رواية



روايـــــة

سلوى بكر

العربة الذهبية

لا تصعد إلى السماء

حيث صبّ البحر

أفاقت عزيزة الإسكندرانية من قيلولتها، التي تنامها عادة – عوضًا عن قيامها الكثير من ساعات الليل، إلى وقت السحر – حتى تهدأ قليلاً حياة النهار، الصاخبة، في سجن النساء، التي يختلط فيها الضحك، بالبكاء، بالشجار المعتاد بين نزيلاته على الحمام، وعلى ما يقدم لهن من طعام، إضافة إلى زعيق السجانات، الذي لا ينقطع، معظم الوقت، لردع الجميع، وحثهم على الامتثال للأوامر، والقواعد المقررة لتسيير الحياة بين جدرانه.

فتحت عينيها، وهي ما زالت ممددة على فراشها الأرضي لم تغادره بعد، فاصطدم بصرها عبر شباك الزنزانة المفتوح العالي بذؤابات الأشجار التي ضاع بعض من معالمها في العتمة، بسبب انطفاء الشمس، ورحيلها الذي لم يكن قد مضى عليه غير وقت قليل، وظلت للحظات تستمع إلى معزوفة الوداع المسائية التي تعزفها العصافير المستقرة على الغصون حتى ضياء صبح آخر، وهي المعزوفة التي

أنصتت إليها مرات ومرات، عند هذا الوقت من كل مساء، منذ أن استقرت كنزيلة في سجن النساء، والتي تختلط ألحانها، المزقزقة والمشقشقة عادة بصوت الشيخ عبد الباسط، أو محمد رفعت، المرتل لتراتيل قرآنية جميلة، تنبعث من الراديو الترانزستور الذي تضعه عادة الحاجة أم عبد العزيز على إفريز شباك عنبر العجزة، بعد أن تثبت مؤشره على محطة إذاعة القرآن الكريم.

تنهدت عزيزة بحرارة، عندما وصل المقرئ إلى قول العزيز الحكيم: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ وكانت قد بدأت تشعر بضيق في تنفسها، وبوطأة الجو الخانق على روحها، وبسماجة لزوجة عرق البلح، المنساب على رقبتها، وتحت إبطيها، بسبب الرطوبة الشديدة لشهر أغسطس، التي تنعم على القطن بتمام نضجه وتفتحه، وعلى البلح بمنتهى استوائه واحمراره فقامت وخلعت جلباب السجن، الميري، الطويل المصنوع من البفتة البيضاء، وتوجهت إلى ركن الحجرة، فحفنت بيديها حفنات من ماء الدلو، البلاستيكي، الأخضر، المركون في ذلك الركن، ومسدت وجهها ورقبتها به، وغسلت تحت إبطيها، تاركة

القطرات المتخلفة عن ذلك، تتساقط منها في صفيحة الفضلات القديمة، والتي كانت بالأصل، صفيحة مسل صناعي ماركة الميزان، ثم إنها ملست، بيديها المبتلتين، على شعرها، لتكبح جماح الشعيرات الناعمة، التي نفرت من عقدته، المثبتة بمشابك ودبابيس، بسبب النوم، فلما انتهت من ذلك، راحت تتمشى قليلاً، في الحجرة الواسعة، ذات الشباكين، اللذين يطل أحدهما على الدهليز، الطويل، الممتد الواقعة عليه زنزانتها، وكل الزنازين الأخرى، في هذا الجناح من السجن، المخصص للعجزة، والمستشفى، والحالات الخاصة مثل حالتها، وتوجهت نحو الشباك الثاني بعد أن ملت التمشي آملة أن تهب من ناحيته نسمات رقيقة تنعش روحها، وتشعرها ببعض البرودة اللذيذة، إذ هي جففت ما غسلته بالماء فلما لم تجد أمامها غير الحائط العالي، المنتهي بحزام الأسلاك الشائكة، التي تحوطه، وهو الحائط الذي يفصل بين سجن النساء، وسجن الرجال، وذؤابات الأشجار، التي ضاعت معالمها أكثر من ظلمة المساء، تنهدت بضيق، تاركة الشباك بقضبانه الحديدية الرفيعة والمطل على ذلك المشهد، الذي حفظته عن ظهر قلب منذ أن نقلتها الإدارة

لهذه الزنزانة، وعادت إلى فرشتها مرة أخرى، فجلست عليها كالمعتاد، لتبدأ سهرتها الليلية، التي لم تنقطع عنها منذ سنوات طويلة، وهي أشبه بخلوة يومية، تختلي فيها بنفسها، تجتــر، خلالها، ذكريات الأيام الخوالي، وتناجي روحهــا الوحيــدة، المفعمة بالوحشة واليأس، وانقطاع كل رجاء يأتي من أهــل الدنيا، أو من سنوات الحياة.

أشعلت لنفسها سيجارة كليوباترة، سحبت منها نفسًــا طويلاً، ابتلعته عميقًا، بمتعة مدخنة مخضرمة، أدمنت الدخان منذ مطلع شبابها، ثم تطلعت، ببصرها إلى نجمات قلــيلات، أطلت عليها من القطعة السماوية الصافية التي يســمح بهــا الشباك، وصبت لنفسها في الكوب البلاستيكي المركون إلــى جوار الإبريق الفخاري، الموضوع بجانب الفراش، قليلاً من الماء البارد نوعًا، فتجرعت منه جرعة ، وراحت تحادث أم رجب، بصوت خفيض هادئ بعد أن استدعتها – كما تفعــل دائمًا – بمخيلتها، من سريرها في عنبر العجــزة المجــاور، لتجسدها جالسة قبالتها تحكي لهــا عــن رأيهــا بوضــوح، وصراحة في تصرفاتها ورأيها الحقيقي فيها فقالت:

- يا أم رجب.. مشكلتك أنك حمارة.. من أول يوم شفتك هنا، قلت لنفسي: الولية العجوز، أم شعر أحمر، خشن مصبوغ لازم أن تكون غبية وحمارة، لأني قدرت من ساعة شوفتي لك، أن عمرك عدى وفات ستين سنة بالتأكيد، والحمار وحده يدخل السجن لما يصبح فوق الستين، ولما حكت لي محروسة السجانة عن سبب سجنك، قلت لها: فعلاً.. ولية حمارة، لأنك يا أم رجب محبوسة لأجل شيء تافه، ثلاث سنين بسبب محفظة ما تساوي أن يبص لها الواحد أبدًا، فيها تسعون جنيهًا عمي يعني كل ثلاثين جنيهًا بسنة من عمرك، والغريب أن تقري في تحقيق النيابة، وتعترفي، أنك طوال عمرك نشالة، لحم أكتافك، من الهبش، ويوصلك هبلك لحد الكلام، معهم عن طريقتك في نشل الفلوس من جيوب ومحافظ الناس.

تصورت عزيزة كعادتها أن أم رجب تجلس أمامها في هذه اللحظات، بلحمها ودمها، شارعة في البكاء والنشيج، إثر سماعها ذلك التوبيخ، بينما فتحة فمها الصغيرة، تلم وتفرد تجاعيد جلدها الكثيرة الدقيقة، المتجمعة، حول شفتيها، الرقيقتين في حركات عصبية مرتعشة، لكن عزيزة كانت

مدركة أن ذلك التوبيخ لم يكن إلا السبب الظاهري لبكـــاء أم رجب، أما السبب الحقيقي العميق فهو كدرها على حالها بعد أن ماتت ابنتها وهي لا تملك سبيلاً لرؤيتها أو تشييعها إلـــى القبر، لذلك حاولت تهدئة الأم الثكلى، التي مازالت تتصورها جالسة، أمامها في زنزانتها الانفرادية، رغم شخير أم رجب، بصوت، يشبه صوت مكبس مضخة المياه، كـــان يتعـــالى، حقيقيًا، عاليًا، آنذاك، من عنبـــر العجـــزة، عبـــر الشـــبابيك المفتوحة، عن آخرها، بسبب حرارة الجو، ويصل لمســـامع عزيزة بمنتهى الوضوح، وذلك بعد أن نامت هـــذه العجـــوز مرهقة، خائرة القوى، إثر أزمة قلبية، كانت قد داهمتها قبـــل ذلك بساعات، وكادت أن تجهز على حياتها، لولا الحاجـــة أم عبد العزيز، التي أعطتها دواء القلب بسرعة، وظلـــت إلـــى جانبها، ترعاها وتمرضها حتى مرت الأزمة بسلام.

ملأت عزيزة كوبها بالماء، ورفعـــت يـــدها بـــه لأم رجب لتشرب، وتهدأ روحها قليلاً، وتتوقف عن البكـــاء ثـــم قالت لها:

– خلاص بطلي النواح، لأن الدموع والبكاء أكلـــت نظرك، وصحتك في النازل يومًا وراء يوم، ثم... فكري في

نفسك لأجل خاطر عيال المرحومة، لأنهم في انتظار ساعة خروجك لتحوطيهم بحنانك ورعايتك، ثم إن قدامك هموم كثيرة، إلى أن يكبروا، ويصلب عودهم، ويقدروا أن يواجهوا الدنيا ومشاكلها.

كانت عزيزة تدرك جيدًا أن حزن أم رجب لن ينقطع مهما كانت الأسباب وكلمات العزاء التي تقولها لها، لكنها كانت فقط تحاول كفها عن البكاء والعويل، لأن فجيعة أم رجب في ابنتها الوحيدة، التي ترملت، قبل شهور قليلة من دخول أمها السجن، لا حدود لها، خصوصًا أنها تركت بعد موتها ثلاثة أطفال صغار، أكبرهم في العاشرة وذلك بعد أن فشلت كل محاولات إنقاذها عندما أمسكت بها نار موقد الغاز، وأتت عليها بسرعة، لأنها كانت ترتدي قميصًا للنوم، طويلاً، مصنوعًا من مادة النايلون سريعة الاشتعال، التصقت بجسدها، وحولته إلى كتلة سوداء متفحمة.

لذلك فعزيزة، منذ أن عرفت بمأساة أم رجب، غيرت من معاملتها لها، ومن نظرتها القديمة إليها باعتبارها شيطانة عجوز، لا تكف عن الشجار، وافتعال المشاكل مع كل من حولها، رغم جسدها النحيل، الضامر وقلبها الضعيف، المهدد

بالتوقف في أية لحظة، كما قال أطباء السجن والذي تلزمه جراحة، لتغيير صمامين من صماماته، وهذا ما لن يحدث بالطبع بسبب أن أم رجب لا أسود لديها ولا أبيض، لتدفعه لجراح متخصص في مثل هذا النوع، من العمليات، يتقاضى مبلغًا خرافيًا، بالنسبة لها، كما أن مستشفيات الحكومة، تفيض عن إمكانياتها، طوابير أولئك المنتظرين أمام أبوابها، لإجراء مثل هذه الجراحات.

وضعت عزيزة الكوب، على الأرض، بعد أن تعبت من رفعه، دون أن تمتد يد أم رجب لتأخذه منها، أطفأت ما تبقى من سيجارتها التي كانت على وشك الانتهاء ثم إنها زمّت عينيها قليلاً، في نظرة متفحصة للمرأة، التي ما زالت تراها جالسة أمامها وقالت:

عندي لك مفاجأة، يا أم رجب.. مفاجأة تخليك في غاية الانبساط، والرضا لكن طوال ما أنت عاملة لي مناحة يبقى سرها محفوظ عندي.. وأنت حرة.. نوحي على كيفك، إن شاء الله تتفلقي، وذنبك على جنبك.

ابتسمت عزيزة، ابتسامة عريضة، راضية، بانت معها أسنانها التي كانت لؤلؤية جميلة في زمن غابر، والتي

أصبحت الآن سوداء وسخة، بسبب الإهمال والتدخين المتواصل لصاحبتها، كانت منتشية بذلك التهديد الذي واجهت به أم رجب، لتجعلها تكف عن البكاء وتستريح روحها المعذبة قليلاً لذلك رفعت كوب الماء، وعبت ما فيه عبًا، على أساس أنه خمر معتق، لذيذ وليس ماء من الإبريق، الذي حرصت على ملئه، قبل إغلاق الزنزانة، عليها من الخارج، ليفي بحاجتها من الماء طوال الليل، وحتى صباح اليوم التالي، وبعد أن توهمت خدرًا لذيذًا، أدار رأسها، الذي ما زال يحتفظ ببقايا من جمال قديم ضائع، ليكتمل تمثلها لكونها قد سكرت فعلاً، مثلما كانت تفعل كثيرًا في الماضي الجميل الذي عاشته، ومازال يعيش معها أشعلت لنفسها سيجارة أخرى راحت تحملق في خيوط دخانها الأزرق، المتصاعد أمامها، بينما أخذها التفكير العميق الأسيان الذي طالما زارها، عندما تبقى وحيدة في زنزانتها الانفرادية، ليذهب بها بعيدًا، بعيدًا، إلى عالمها القديم الذي بات محتجبًا عنها تفصل بينه وبينها قضبان وأسوار، وسنوات طويلة، من الوحدة في تلك الزنزانة، الانفرادية الموحشة، التي طالما حنت وهي جالسة فيها إلى رائحة البحر، وأصوات هدير

أمواجه التي طالما سمعتها في بيتها القديم تأتيها مـن بعـد، وتطمئن روحها بأنها تحيا في مدينتها التي طالمـا عشـقتها، ونحتت معالمها الجميلة في جدران ذاكرتها العتيقة.

كانت عزيزة بنت الإسكندرية، قد دخلت دنيا سـجن النساء، قبل أن تبلغ الأربعين من عمرها كمحكومة بالسـجن المؤبد، بعد أن قتلت زوج أمها، دونما سبب واضـح تبديـه للقضاء في أثناء محاكمتها فلقد أصرت على ترديد قول واحد عللت به اغتيالها له، بينما كان نائمًا في سـريره ذات ليلـة، بأن أغمدت سكين مطبخ حادة في صدره، أردته بعدها قتيلاً، قالت إنها لم تقتله، لكنها قتلت شخصًا آخر غيـره، وجدتـه نائمًا في الفراش، ولم تزد على قولها هذا شيئًا، رغـم كـل المحاولات التي جرت لاستنطاقها، والحصول منهـا علـى أقوال أخرى، تفيد في الحكم عليها حكمًـا لا يشـوبه الظلـم والجور، مع أنها حكت للمحكمة بالتفصيل، كيف أنها غرزت السكين في قلبه القاسي، الذي ما قالت لأحد أبدًا، أنه مـزق قلبها وكسره، وأحرق كل ذكرياتها الجميلة معـه، فأحرقـت معها جميع سفنها، وباعت كل ما معها من مصـاغ وأشـياء ثمينة، تبرعت بثمنها لجمعية خيرية، مفترض أنهـا لرعايـة

مرضى الجذام، الذين يمكن مشاهدة بعضهم يتسول في شوارع المدينة، كأكبر دليل على وجود هذه الرعاية، ثم إنها بعد أن قتلته وتأكدت من خروج نفسه الأخير، قامت بإشعال النار، ليس في صوره، وصورهما المشتركة ومتعلقاته من أوراق وملابس وعصي خشبية وعاجية ثمينة كان يحملها عادة من باب الوجاهة، ولكنها أشعلت النار، أيضًا في كل المحتويات الأخرى التي ضمها المنزل القديم الجميل المحاط بحديقة واسعة غناء، طالما شهدت أوقاتًا سعيدة وذكريات رائعة لا تنسى أيام كان هذا المنزل عامرًا، بسكانه الأحباء، وتفاصيل حياتهم المثيرة، السعيدة.

ظلت عزيزة وحتى لحظات جلوسها هذه في السجن تجتر ذكرياتها القديمة، التي تجعلها لا تندم على ما فعلته أبدًا، لأنها ما قتلت إلا لأجل الاحتفاظ بتلك الذكريات جميلة، صافية الحلاوة، لا تشوبها أية شائبة، تكدر صفاءها، لأن من قتلته، لم يكن هو الرجل الذي عرفته وخبزته، وربيت في كنفه، منذ أن كانت طفلة صغيرة، لم تشب عن طوق البراءة بعد، وحتى صارت شابة جميلة مكتملة الجمال والتكوين، بل إنها قتلت رجلاً آخر له الملامح ذاتها والشكل ذاته، لكنه لم

يكن له القلب نفسه، والروح نفسها اللذان طالما أحبتهما، وعشقتهما، وأخلصت لهما، منذ ذلك الزمن البعيد، وهكذا أيقنت أن ذلك الآخر الشبيه، هو المغتصب لجسدها الجميل منذ أن كانت صبية لم يتجاوز عمرها الثالثة عشر، بعد، وهو المجرم الخطير الذي سرق قلبها المحب وعواطفها الجياشة العميقة، التي طالما سفحتها لأجل عشقه، وهو في النهاية قرين الشر المختبئ في عالمه السفلي، والذي ظهر لها، فجأة، ليكدر سعادتها، ويحطم بنيان الوداد في ذلك البيت القديم.

لقد فكرت قبل اغتياله في طرق عديدة مبتكرة، لتميته الميتة المناسبة التي تليق بكرامة ذلك الآخر – الأصل، الذي طالما أحبته، إذ لم يكن من المعقول، بالنسبة لها، أن تميت من هو جميل، رائع مثله بأسلوب فج خشن، يفتقد إلى كل ذوق وأناقة لذلك اقترحت على نفسها ذات مرة أن تصب عليه كمية هائلة من الشيكولاتة، المغلية، السائلة، بعد أن تخدره بمخدر قوي، يفقده كل قدرة على الحركة، أو المقاومة، ليتسربل بذلك السائل داكن اللون، اللذيذ، ويتحول إلى قالب ضخم من الحلوى، التي قل من لا يقبل عليها، من الناس، ثم إنها قررت تزيينه بحبات الكرز المجفف،

وشيكولاتة السمسم الدقيقة، والكريمــة المخفوقــة، الهشــة، ليصبح جاهزًا للتقطيع قطعًا صــغيرة بالشــوكة والســكين، تضعها برفق وعناية، متراصة إلى جوار بعضها الــبعض، في منظر بديع، ينم عن حس، وذوق فــي أطبــاق الحلــوى المصنوعة من الخزف الصيني ذات الأطر الزرقاء المذهبــة عند الحواف، لتوزعها على الجيران والأصدقاء، مســتحوذة، لنفسها، على تلك القطعة التي يقع في نطاقها القلب الشــرير، الذي طالما عذبها، وحطمها يأسًا وقنوطًا من الحياة.

ثم إنها فكرت مرة أخرى في أسلوب آخر، ربما كان أكثر ملاءمة لقتله من وجهة نظرها، وهو الأســلوب الــذي تفتق عنه ذهنها بعد كل تلك الليالي الطويلة، التي قضتها قبل أن تقتله، تفكر وحيدة، وهي في ذلك البيت الكبير، الذي بات كئيبًا موحشًا، بعد أن ماتت أمها، وتحول كمنزل من منــازل الأشباح، فتخيلت وهي جالسة على المقعد الفوتيــه، الكبيــر، أسفل شباك غرفتها، بينما كانت ترقب القمر ولا صوت يأتيها غير حفيف الأشجار، وذلك العزف الحزين، المنبعــث مــن داخلها تخيلت أن تقتله قتلاً يعوضه عن رغبته في الــزواج، من تلك الأخرى التي بات يحبها، بدلاً منها، والتي قــرر أن

يمنحها قلبه الجديد، الذي ما اعتقدت أبـدًا أنــه ذات القلـب القديم، الذي طالما عشقها سنوات وسنوات، منـذ أن كانـت طفلة صغيرة لم تتفتح عيناها على مشاعر الحب بعـد، ولـم يكن الأسلوب الذي ابتدعته من نسيج خيالها المطواع لرغبتها في طريقة فريدة لإفنائه، إلا أن تخدره قبل أن ينام بمخـدر قوي يفقده كل قدرة على الحركة، ثم تأتي بكميات هائلة مـن الزهور النضرة الجميلة المقطوفة قطفًا حانيًا في صباح اليوم الذي ستغتاله فيه عند المساء، والتي كانت قد قررت ابتياعها وبتوصية خاصة من أشهر محل لبيع الزهور فـي المدينـة، وهو محل الذكرى الجميلة الذي طالما أهداها ذلـك الحبيـب القديم زهورًا منه وبنفسجًا، ونرجسًا وياسـمينًا، فـي زمـن الغرام المشبوب الذي ما كانت لتظن أنه منتـه أبـدًا لتقـوم بتنسيقها تنسيقًا بديعًا يتوافق مع ما حوته من ألوان وأشـكال حيث الياسمين الأبيض، وعصافير الجنة بعروقها الممتـدة، وألوانها المتداخلة البهيجة والخزامى الحزين، والورد البلدي، الأثير إلى قلبها، والذي يكون بلون الدم حينًا، وبلون الكناري حينًا آخر، وبلون خده الجميل الذي طالما قبلته أحيانًا أخرى، وبعد أن تنتهي من تنسيق تلك الزهور، تنسيقًا أنيقًـا طالمـا

برعت فيه – على جسده ورأسه وصدره وتحت قدميه، حتى يتغطى ويلتحف بها تمامًا، ويتضوع برائحتها جسده الساجي الممدد بلا حراك لوقوعه تحت تأثير ما خدرته به، عندئـذ، وعندما تتأكد تمامًا من إغلاقها لنافذة الحجرة وبابها، إغلاقًـا محكمًا لا يسمح بدخول أقل الهواء فإنها تتركه يموت موتًـا بطيئًا جميلاً، وهو يتنسم العبير القاتل الذي طالما تنسمته بين يديه وهو يقدم لها تلك الزهور الرائعة في الزمن الماضي.

لكن عزيزة لم تطبق أيًا من تلك الأفكار التي جالـت برأسها قبل أن تقتله، ولم تنفذ جزءًا واحدًا مما كانت تضمره في نفسها من قتل جميل مبتكر، يختلف عن تلـك الأسـاليب المتعارف عليها للقتل إذ كانت تخشى افتضاح أمرها وفشـل خططها المبتكرة، للموت، لأي سبب من الأسباب يتعلق بعدم دقة التنفيذ أو كشف نواياها، قبل تنفيذها بالفعل، وهكذا عقدت عزمها على استخدام السكين، باعتبارها الوسـيلة الأضـمن والأسرع في التنفيذ، بل والأكثر قدرة على إنجاز ما ترغـب في إنجازه وإحداث فعل المباغتة، الذي عاشته ذات يوم بعيد حين كانت ما تزال طفلة صبية بضفيرتين، ما عاشت زمـن طفولتها، أبدًا، بسبب ما رتبته لها الأيام من تصاريف جعلتها

مضطرة، دومًا لأن تكون سيدة بيت تتحمل ما تتحمله النساء عادة من تدبير شئون عالمهن الضيق، المحدود، بحدود الجدران فتنصرف إلى الطهو والتنظيف، والإشراف على كل ما يتصل بحياة مستقرة تشي بوجود امرأة، لقد بوغتت عزيزة ذات يوم بعيد في زمن الطفولة، المسروقة تلك، وهو اليوم الذي لا يغيب عن ذاكراتها أبدًا إذ كانت تقف في المطبخ لتعد طعام الغداء للأسرة الثلاثية الصغيرة المكونة منها ومن رابِّها وأمها، التي كانت قد ذهبت آنذاك للمشاركة في العزاء المقام عند الجيران وبينما كانت الأم تبكي وتندب مشاركة أهل الميت مصيبتهم في فقده باعتباره شابًا صغيرًا ابتلعه البحر على حين غرة منه كانت ابنتها تدفع بمكبس موقد الكيروسين بكل ما تملك من قوة لتؤجج شعلة ناره تحت الحلة النحاسية المملوءة بقطع القلقاس الوردية التي لم تكن قد نضجت بعد، عندئذ ناداها زوج أمها، الذي كان يجلس في هذه الأثناء على الكنبة الإستامبولي متكئًا بيده على مسندها المغطى بقماش الكيرتون الإنجليزي الفاخر، بعد أن عاد من عمله عند الظهر وطلب منها أن تأتي لتخلع له حذاءه كما اعتادت أن تفعل دائمًا وبينما هي آخذة في فك رباط الجزمة

المصنوعة من الجلد الأجلاسيه، البني الطري بعد أن جاءته ملبية نداءه لها على وجه السرعة من المطبخ حملهـا فجـأة بذراعيه وأخذها في حضنه ليقبلها قبلات كثيرة اكتشفت بعـد قليل أنها تختلف عن تلك القبلات التي اعتاد أن يطبعها على خدها إذ أنها انفعلت انفعالات جديدة عليها لم تشعر بمثلها من قبل، سيطرت على كيانها وجسدها الصغير، الذي ما عـاش، وما كان يجب أن يعيش تجربة من هذا النوع في ذلك العمر المبكر، الذي لم يتعد دنيا البراءة، بعد.

لكنه، ومنذ تلك اللحظات البعيدة، الموغلة في زمـن الطفولة الأولى، ظل ذلك الرجل الكبير بالنسبة لهـا دائمًـا، وحتى بعد أن دست سكين المطبخ الحاد في صدره، رجـلاً جميلاً قويًا، أسرًا، بل ظل بالنسبة لها قادرًا على إحداث هزة وتأثير في النفس وشيء غامض يشـابه الخـوف البسـيط والرهبة عندما يكون المرء في حضرته، سواء أكان رجلاً أم امرأة، ولطالما لمست عزيزة، ذلك، بنفسها، مـن مراقبتهـا لتأثيره على الآخرين، وملاحظتها لكل أولئك الذين يتعاملون معه، سواء داخل البيت أو خارجه، من الرجال أم من النساء على الأغلب.

في يوم القلقاس البعيد هذا، قال لها عندما كانت مـا تزال في حضنه، إنه يحبها حبًا شديدًا، لأنها صغيرة وجميلة، وكأنها حورية من حوريات البحر اللواتي لا يظهرن إلا أثناء الليل سرًا، ثم إنه طلب منها أن تحبه مثلما يحبها، وتطيعـه، وتنفذ كل ما يأمرها به، على الدوام، وقد كان له ما أراد، إذ ظلت عزيزة تطيعه، طاعة المسحورة بفعل سـحر قـوي لا فكاك من إساره، منذ تلك اللحظات القديمة، التـي لـم تفقـد طزوجتها رغم مرور كل السنوات الطويلة عليها، إذ استقرت في عمق الذاكرة، وحتى وقت اغتيالها له، إذ عشقته عشـقًا ناريًا، مستحيلاً، في عطائه وإخلاصه، يصـعب أن تمنحـه أخرى، لرجل من الرجال، بل هو عشق يمكن أن يوزع على ألف امرأة أخلصت في غرامها، وأعطت لـه كـل روحهـا وعميق كيانها، لأنها اعتبرت ذلك الحبيب المباغت ليس أقل من إله معبود، لا يرد له طلب أو أمر ولا يرتجى عشق من سواه، وهكذا منحته ولطوال سنوات طويلـة لقـب الرجـل المعبود، وهو اللقب الذي ما كان يعرف سره غيـره إلاهـا، باعتباره رجلاً لامرأتين تربطهما رابطة الرحم، بينما كـان ثلاثتهم يعيشون في ذلك البيت القديم، الواسع الـذي ورثـه

أمها عن أبيها المتوفى، الذي خرجت عزيـزة مـن صـلبه بالفعل، وقد ظل ذلك الغرام مصوناً لا يمس، ولا يفشى أمره، الذي ما أدركته الأم يومًا من الأيـام، أو شـعرت بجـذوة اشتعاله، بين زوجها، وابنتها، وما لاحظت تلـك النظـرات المشبوبة بالوجد، ولا الزفرات الحارقة الخارجة من مهجـة القلب وكل تلك القبل المسكرة التي ذابت فيها الشفاه، بل ولا تلك الملامسات الجسدية الصاخبة بالصمت، ولم يكـن ذلـك الجهل وغياب الإدراك بسبب بلادة الشعور أو قلة الفطنة، أو الجهل، لكن مبعثه في الحقيقة، أن تلك الأم السعيدة المطمئنة، التي ما تصورت للحظة، حقيقة ما يدور حولها بـين ابنتهـا الصغيرة وزوجها مكتمل الرجولة باعتبارها هي أيضًا، امرأة مكتملة الفتنة والجمال، لم تكن إلا عمياء بالمولد، وإن كـان العمى، الذي خصها به القدر، لم يقف عقبة تحول دون إقبال الرجال عليها، منذ أن كبرت، وصارت شابة مكتملة الأنوثة، بجسدها المرمري، بديع التنسيق، وزرقة البحـر المصـبوبة صبًا في عينيها، اللتين لم يتسن لهما النظر أبدًا ممـا مـنح ملامح تقاطيع الوجه الدقيقة جمالاً، وفتنة، يظـل اكتشـاف المتأمل لها ولعمى صاحبتها، مسألة ذات طـابع شـاعري،

يضفي عليها مسحة إنسانية نبيلة، خصوصًا، عندما كانت تعقد ضفيرتيها الناعمتين الطويلتين، على رأسها، كما لو كانتا إكليلاً ذهبيًا جميلاً، تبدو معه، وكأنها امرأة تنتمي لعالم الأساطير القديمة، التي خيمت بغموضها وسحرها، على تلك المدينة البحرية العتيقة منذ الزمن الغابر القديم.

تزوجت أم عزيزة، التي كانت تنتمي إلى أسرة ميسورة الحال، اشتغل رجالها بأعمال البحر، منذ سنوات بعيدة، من رجل غني أضافت ثروته إلى ثروتها، بعد أن منحها عزيزة، وتوفي إثر إصابته بحمى التيفوئيد، مما أتاح لها فرصة أخرى لاختيار زوج عوضًا عنه، باعتبارها كانت لا تزال شابة صغيرة، لم تؤثر مسألة عماها في الزواج، لأنها كانت تمتلك الكثير من المال، والجمال، فأقبل عليها عدد لا بأس به من رجال المدينة، يطلبون ودها، فاختارت منهم، ذلك الذي أصبح فيما بعد، رجلاً لها، ولابنتها، التي جاءت على صورتها، إلى حد كبير، ما عدا أن ألاعيب الطبيعة، تدخلت بلمسات قليلة، فالبشرة صارت سمراء، بعض الشيء، والعينان عسليتان تركهما الأب الراحل مبكرًا، كتذكار حي، لم تره الأم أبدًا، فتستطيع ملاحظة، تلك الطريقة

الناعسة، العميقة، في النظر ذات الطابع الفطري الغامض للغواية، التي طالما تمتعت بها عينا الابنة الجميلة، فسحرت كل من نظر إليها.

كان التقاء عزيزة، القدري، المبكر، بالعشق، قد عجل بنحت معالم جسدها، وروحها، كامرأة صغيرة، راحت تشارك أمها في إغداق العواطف، على الرجل المحبوب، حبًا مطلقًا، في عالم المرأتين الضيق، المحدود، بحدود تمتد بين جدران البيت الواسع القديم، الذي كانتا تتشاركان في تهيئته لاستقباله كل يوم عند عودته إليه، مثلما كانتا تتهيآن لملاقاته ذلك التهيؤ الذي يجعلهما غاية في الحسن والاكتمال، بحيث لا يقع نظره، إلا على كل جميل، لطيف، فيهما، فكانت عزيزة، تفعل مثلما تفعل أمها كل ليلة، إذ ترتدي قمصان النوم الأنيقة، التي تحيكها سونيا الأرمنية، أشطر وأمهر خياطة في المدينة، والمصنوعة من الساتان دوشيس، والكريب دي شين، والحرير الأطلس اللامع، ثم تفك ضفيرتها، وتترك الخصلات اللعوب لشعرها تنسدل على كتفيها ووجنتها، ثم تسارع بخلع حذائه، بمجرد أن يأتي، ويستقر في موقعه المعتاد، على الكنبة، بينما أمها، بالقرب

منها، تبارك ذلك الاهتمام، بزوجها المحبوب، من جانب ابنتها الصغيرة، وتعتبره بمثابة توفيق حبتها به عين العناية الإلهية، التي طالما نظرت إليها بعين الشفقة والعطف، فعوضتها عن غياب نظرها، وباركت زواجها السعيد، بعد أن ترملت، وهي التي طالما فكرت في الامتناع عن الزواج مرة أخرى، خوفاً من عدم الوفاق بين ابنتها وزوجها المختار، فتقع هي في الحيرة، واختلاط المشاعر، وتنقلب حياتها، التي كانت تنشد فيها السكينة والرضا، إلى جحيم مقيم.

لكن، ها هي تتأكد بمرور الوقت، والأيام على زواجها السعيد من رجاحة عقل زوجها، في تعامله، مع فتاتها الصغيرة، وفيض حنانه، وعظمة شفقته عليها، فهو لا يدخل البيت إلا ويتحدث إلى الابنة، بكل الحب والعطف، ولا يبخل عليها بالثمين الغالي، من الهدايا، والأشياء الجميلة، الرقيقة، التي تبهج قلب كل فتاة، وكانت لفرط امتنانها لكرم أخلاقه تجاه وحيدتها، تقول للناس، إنها لو كانت ابنته، بحق وخرجت من صلبه، فعلاً، ربما لم يكن يعاملها بمثل هذه المعاملة اللينة، الودود وكلما مرت السنوات، على صفائها العائلي، دون ما يكدر قلوب الأسرة الصغيرة، ولمست

بروحها، تنامي المشاعر المفعمة بالمحبة بين ابنتها وزوجها، انشرح صدرها، وتعالى دعاؤها بطول العمر، وصلاح الحال للشيخ أبو المكارم، الذي ذهبت إليه في سوق العطارين، فعمل لها حجابًا مسطورًا، مازالت تضعه في حرز أمين، بين ثيابها، لأنه جالب السعادة إلى قلبها، والوئام إلى بيتها.

الذي لم تعرفه الأم الضريرة، أبدًا أن الوئام العائلي، كان يستمر وينمو، بفضل تمائم أخرى، غير تلك التميمة الحجاب الذي كتبه الشيخ أبو المكارم بقلم كوبيا، على ورق كراس، من كراريس وزارة المعارف العمومية، المصروفة مجانًا لأحد أبنائه، وهي التمائم، التي طالما سحر بها زوج الأم عشيقته الصبية، والمشكلة من ملابس داخلية، حريرية فاخرة لا ترتديها إلا ممثلات السينما عادة، ومشابك شعر عاجية مرصعة بفصوص من الماس الحقيقي، وجوارب رقيقة، مختلفة الأشكال، من الدانتيل والتول، لم يكن يجلب مثلها للأم أبدًا، ناهيك عن ألعاب صغيرة، مسلية، يحضرها لاسترضاء الجانب الطفولي، في الابنة الصغيرة، والذي لم يكن قد أشبع بما يكفي، نظرًا للقفزة المبكرة، التي انتقلت بها إلى عالم المرأة الجديد، وقد تعلمت عزيزة، على ضوء

نصائح العشيق الكبير، كيف تستطيع إخفاء تمائمها الغالية، بمهارة، دون أن تطولها يد أمها، أو تشعر بها، وربما كانت تلك الأشياء الصغيرة، المخفية، هي المبعث الوحيد للشعور بالخطيئة، الذي استشعرته عزيزة، بعد ذلك، تجاه أمها، فقد ظلت تشعر بتأنيب الضمير، حتى بعد أن ماتت هذه الأم، لأنها ما كان يتوجب عليها، أن تخفي عنها، مثل هذه الأشياء البسيطة، التي لم يكن ما يضير لو أنها شاركتها في الفرح بها، والتمتع بمباهجها الصغيرة، لكنها بعدما كانت تتألم، بما يكفي، تلتمس لنفسها الأعذار، إذ كانت ما تزال صغيرة، تخاف ذلك الرجل، القوي، الجميل، الذي لا تملك إلا الامتثال لأوامره ونواهيه.

استطاعت عزيزة، وعلى مدى تلك العلاقة، الطويلة، الممتدة، مع زوج أمها، أن تتخطى كل المصاعب والعثرات التي يمكن أن تعترض عشقاً محرمًا من هذا النوع، فقد حصنت نفسها، تحصيناً فطريًا، نابعًا منها، ضد كل سهام العشق، الخارجية، المصوبة إلى قلبها، والتي فاجأتها، وحاصرتها مرارًا، منذ بداية تفتحها، بعد يوم القلقاس، كأنثى ناضرة، مشتهاة، في مدينة طالما فتحت ذراعيها للعشق، منذ

اليوم الذي ولدت به، في أحضان البحر، داخلة إلى الدنيا من بوابته الزرقاء، على طول المدى، باعتبارها ومنذ نضـــوجها المبكر كجنية طالعة من البحر، واحدة مـــن بنـــات المدينـــة المشار إليهن بالبنان، إذ تعاقب طالبوها من الشبان اليافعين، الحالمين بالعشق، ومن الرجال القادرين على دفع ثمنه، تحت مظلة ترتضيها كل الأطراف، وعقد مرهون استمراره، بوفاء كل طرف من أطرافه بما ألزم به من ســـنة الله ورســـوله، وعلى رءوس الأشهاد، فعزيزة لا تذهب إلى مكان، بصـــحبة أمها، كزيارة أقرباء، أو أصدقاء، لها، في المدينة، إلا ويكون هناك خاطب في انتظارها، تسعى أمه، أو أخته لمفاتحة أمها في أمر زواج ابنتها منه، وإذا ما تصادف وخرجتا للتمشـــي في الأمسيات الصيفية، الحارة، بالقرب من شـــاطئ البحـــر، فإن الخطوات الراغبة في التقرب منها، والنظرات الناعسة، الهائمة بالإعجاب، تلاحقها وتتبعها، لكن عزيزة، كانت تواجه ذلك، بإحكام إيصاد باب القلب، وكأن ذلك العشق، زوج الأم قد سلسله بحبال سرية، غير مرئية للآخرين، تمتد بينه وبينها فتعود إليه رغم كل الملاحقات والإغراءات، وكأنها محصنة بفعل عقار سحري غامض، ضد كل رغبات ليالي الصـــيف

المحمومة، وإغواءات أمواج البحر المتلاطمة، التـي تبـذر بأصواتها الصاخبة حينًا، والناعمة حينًا آخر، بذور العشـق النارية بين المحبين.

مرة واحدة، كادت عزيزة أن تقع في شـباك هـوى رجل آخر، فقد ذهبت ذات يوم، لتصحب أمها، إلـى سـوق الذهب بالمدينة، لشراء سلاسل ذهبية بدلايات من الأحجـار الثمينة، وبعدما طافتا فتـرة مـن الوقـت علـى المحـلات والدكاكين، دون أن تستقرا على شيء بعينه يعجبهما إلى حد شرائه، توقفنا عند محل كان يعرض مشغولات ذهبية جميلة، مرصعة بجواهر ودرر، على نحو خاص بديع، وبينما أخذت عزيزة تتفحص المعروضات وتصف لأمهـا قطعـة منهـا لتتخيلها وتبدي رأيها فيها، لمحت من خلال نافـذة المحـل الزجاجية، الموضوعة فيها المعروضات شابًا يقـف خلـف ميزان الذهب الحساس، يتناقش وعجوز جالسة أمامه، حـول سوار ذهبي موضوع على الميزان؛ تأملت عزيـزة الشـاب للحظة، كانت كافية لأن يطير طائر العشق المجنـون علـى روحها، ليخطف قلبها، الذي أخذ يخفق خفقانًا سريعًا، فتبعته، ساحبة أمها إلى داخل المحل، إذ أدركت أنها واقعة لا محالة

في غرام ذلك الفارع ذي الوجه الآسر، الواقف أمامها، إذ أنه كان من ذلك النوع من الرجال، الذي يمكن أن تعشقه أعـــداد لا حصر لها من النساء، إذا ما سنحت لهن الفرصـــة، ودون أي جهد يبذل من جانبه في سبيل استمالتهن وعندما بدأت في مطالبته بقطع ذهبية وسلاسل، لتجربها في جيـــدها، وتـــرى مدى ملاءمتها لشكلها، ظلت تتأمل كل قطعة بهدوء مصطنع، واصفة لأمها، كل قطعة يعرضها عليها، وتسأله عن مـــدى ملاءمتها لها وتتباطأ على نحو لم تجد أمها له تفسيرًا، حتـــى عيل صبرها، لأنها انتظرت أكثر من نصف ساعة، دون أن يستقر رأي ابنتها على شراء شيء، فقالت لها بضيق، إنهـــا دائمًا لا يعجبها العجب، ولا حتى الصيام في شـــهر رجـــب، لكن الفتاة، التي كانت لم تتجاوز آنذاك السادسة عشرة مـــن عمرها، والتي لم تكن بعد قد عرفت كيـــف تفتـــتح تجربـــة عشق، كانت حائرة، لا تدري ما تفعله، دون أن تعير لنفـــاد صبر أمها انتباهًا، لكنها أخيرًا وجدت الفرصة المواتيـــة، إذ اقترح عليها مغناطيس الغرام الواقف أمامها، عقـــدًا ذهبيًـــا، كان رائعًا حقًا، إذ صنع بدقة وجمال متسر+++ المهـــارات اليدوية القديمة، على هيئة حية رصـــع رأســـها الصـــغير،

بفصوص دقيقة من الياقوت الأحمر الأصلي، وبينما اقترب منها ليساعدها على وضعه، حول جيدها الحريري السامق، ويحكم القفل الذهبي الصغير، بما تستوجبه كياسة تاجر خبير، استقرت نظرات عزيزة في نظراته طويلاً، من خلال المرآة الكبيرة المثبتة على الحائط أمامهما، وبينما كان رأس الحية الملتمع بأشعة خفيفة متكسرة، قد استقر بالقرب من فتحة صدر ثوبها، الصيفي الأزرق، الفاتح، طوحت برأسها قليلاً إلى الوراء حتى مست كتفه، وشعرت بسخونة الدم المتدفق سريعًا إلى وجهه +++ بشمس الصيف السكندري، فهبطت روحها إلى ركبتيها.

زفرت الأم من ذلك الصمت المبهم، وأعادت مجددًا إعلانها عن مللها الانتظار، وأن على الابنة أن تقرر ابتياع شيء وإلا فعليهما الذهاب ومغادرة المحل لكن الفتاة المغرمة، أعلنت بصوت رقيق ذائب في العشق، أنها أحبت تلك الحية، فقال صاحبها إن قفلها بحاجة إلى إصلاح ويمكن أن تعود لتأخذها بعد يومين.

عادت عزيزة بعد يومين من الهيام، المجنون، بصاحب الحية الذهبية، إلى دكانه في الصاغة وبمجرد أن

رأته، وتصاعد نشاطها القلبي إلى ذروتـــه، بادرهـــا فـــورًا بمفاجأة وقعت عليها كالصـــاعقة، لتـــدخل الحادثـــة كلهـــا، وبسرعة مدهشة إلى حيز الذكريات، فقد أخبرهـــا، إذ كانـــا منفردين في المحل، خلال ذلك الوقت الصباحي المبكر، من اليوم، لأن زبوناته المعتادات من نساء الطبقات الميســورة، المدجنات كن مازلن يتقلبن بأجسادهن كالعجينة الرخوة فـــي أسرتهن الوثيرة، أخبرها، أنه أعجب بها إعجابًا لا مثيل لـــه منذ أن رآها واقفة أمام محله في المرة الأولى، وأن إعجابـــه تزايد بها حتى دخلت وتحادث معها، وأنه سأل عن أهلهـــا، وعرف مدى أصالتهم +++ سمعتهم، لذلك فقد قرر الـــزواج منها، علمًا بأنه تاجر ذهب أبًا عن جد وعائلته ميسورة جدًا، ولسوف يتقدم لها إن شاءت في مساء اليوم ذاته ، مصـــطحبًا معه أباه وأخاه الأكبر وعمه، الـــذي لا يـــتم أي اتفـــاق إلا بموافقته باعتباره كبير العائلة وعميدها.

كلما خلت عزيزة لحالها، في تلك الزنزانة الانفرادية الكبيرة، التي خصصتها لها إدارة السجن، تحسبًا لتهورهـــا، واعتدائها على واحدة من السجينات إن هي احتكت بها، لـــو بقيت في عنبر مشترك مع بعضهن راحت تسرد في مخيلتها

شريط حياتها الغريبة، الشبيهة بشـريط سـينمائي طويـل، وتجسد أمام ناظريها، الأشخاص الذين عرفتهم وألقـت بهـم الأقدار في طريقها، كانت عزيزة تشعر بالضيق والحـرج، أمام نفسها، بل كان يمكن أن تتهور وتقبله فتندم على ذلك ما تبقى لها من عمر.

كان شعورها بالخجل والخزي كلما تـذكرت تلـك الواقعة، يجعلها تعض على شفتيها طـويلاً حتـى تؤلماهـا، وتشعر أنهما على وشك أن تدميا، وكان مبعث ذلك الشـعور هو أنها سمحت لنفسها بالتدني والخيانة، وتجاوز مالا يجـب أن تتجاوزه من حدود، لعالمها السري، وعشقها الفريـد، إن وجدت أن الوقوع في غرام رجل آخر إلى حـد اسـتماعها بأذنيها لعرض زواج وحيد، والانشغال بـالتفكير فـي ذلـك الغرام لمدة يومين، بعيدًا عن عشقها الأبدي الفريد، هو قمـة الخيانة تجاه نفسها، وتجاه عالمها الأثير.

بعد أن عادت إلى البيت بعد لقاءها السريع مع ذلـك الغرام السحابة، لم تكن تفكر في العاشق الآخر الـذي كـان جالسًا آنذاك في ديوانـه الحكـومي، يمهـر الأوراق بيـده اليسرى، التي يتعامل بها دومًا.

حيث كان يعمل موظفًا كبيرًا في ذلك الـــديوان، ولا فكرت في أمها التي تبرمت من عودة ابنتها خالية الوفـــاض دون أن تشتري الحية الذهبية ذات الـــرأس الياقوتيـــة، وقـــد أيقنت يومها تمامًا من مشكلة ابنتها الشابة المزمنة، الدائمـــة، وهي التردد، وعدم الحسم في أية خطوة تخطوها حتـــى لـــو كانت تتعلق بأمر بسيط، كشراء قطعة من الحلي الذهبية لكن عزيزة، كانت تفكر في أمر واحد فقط، وهو أنها ظلت تنسج طوال اليومين التاليين للقائها بتاجر الـــذهب، قصـــة عشـــق أسطورية معه، عشق طويل المدى، تتخللـــه آلام وعـــذابات بسبب نيتها البوح له بسرها الغرامي مع زوج أمهـــا، وقـــد ظلت لساعات طويلة، جالسة، تحت شباك غرفتهـــا، المطـــل على الحديقة تتأمل شجرة النرجس، بزهورها البيضاء العبقة، برائحة عطرية رائعة وتجسد في خيالها، حال ذلك الحبيـــب، الواقع حتى أخمص قدميه في الغرام، عنـــدما يلـــم بمعـــالم وتفاصيل تلك العلاقة المحرمة، فتراه يسقط منهـــارًا مـــرة، ساعيًا إلى قتل نفسه والانتحار وتراه في صورة أخرى يهدد بقتل الرجل الذئب، وكانت قمة نشوتها المتخيلة، لحظـــة أن يقوم بقتلها ثم قتل نفسه، على الفور، ليسقطا صريعين إلـــى

جوار بعضهما البعض، فتختلط دماؤهما، اختلاطًا أبديًا، كدليل على اختلاط روحيهما وامتزاجهما بعد الموت.

حين تتذكر عزيزة، في زانزانتها، ذلك الماضي البعيد، حيث كانت تختلق كثيرًا لأمها ذرائع عديدة، لترفض أولئك المتقدمين للزواج منها، مثلما تذرعت لتاجر الذهب، بأنها مخطوبة لقريب لها، عندما عرض عليها الزواج، فقد كانت تضع كل الحجج والعقبات، لرفض خطابها، فهذا قبيح، وهذا كبير السن، وذاك لا يتناسب مع أسرتها، من الناحية الاجتماعية، وفي إحدى المرات، عندما تقدم لها شاب لا يمكن رفضه، لأنه كان ملائمًا لها من الناحية النظرية على الأقل كزوج مثالي، ربما لا تجد مثله مرة أخرى، تذرعت لأمها التي ظلت تلح عليها لتقبله، بأنها عرفت من جارة لها أنه شاذ جنسيًا غير سوي في علاقته بالنساء، وقد فوجئت الأم، بعد مرور وقت قصير على هذا التصريح من ابنتها بأن الجارة الصغيرة التي كانت صديقة لابنتها تتزوجه في عرس كبير ظلت المدينة تتحدث عنه لعدة أيام.

ولطالما اشترك الزوج العاشق في إقناع الأم، برفض الرجال المتقدمين لابنتها الوحيدة، فقد كان يقول بضيق

وتبرم، كلما فاتحته في أمر عريس متقدم للزواج من ابنتهـا، أن لا ضرورة، ولا داع، للتعجل في تزويجها، لأنها ما زالت صبية صغيرة، لم يفتها قطار الزواج، ثم إنها جميلـة، ذلـك الجمال الذي يزداد بمرور الأيام، مما يجعل فرصـتها فـي الارتباط، بإنسان ممتاز الصفات والإمكانيـات، واردة مـع التأني والانتظار ثم إنه يراها كالجوهرة النادرة النفيسة التـي قلما يجود الزمان بمثلها فلماذا التعجل في التفريط بها، وهي وردة البيت ومبعث الأنس والسعادة فيه وعند هذا الحد مـن الكلام كانت عزيزة تشاركه الرأي، وتقول إن أمهـا تريـد تزويجها للتخلص منها، وليروق بالها لذلك فهـي تريـد أن تزوجها بأي طريقة والسلام فتقسم الأم بأنها لا ترغب فـي تزويجها إلا للاطمئنان عليها وعلى مستقبلها، وأنها لو خيرت لاختارت أن تبقى، مهجة قلبها إلى جانبها طوال العمر.

لسنوات طويلة، بعد دخولها السجن، ظلت عزيزة لا تنسى التفاصيل الصغيرة لحياتها الغريبة بذاكرة مدهشة فـي قوتها، لا تضارعها، إلا دقة ذاكرة سـمك الثعـابين النيلـي العارف بتفاصيل رحلته إلى المحـيط الأطلسـي، للتكـاثر ووضع البيض لكن بمرور الوقت أخذت تفاصيل كثيرة تسقط

من نسيج الذاكرة التي أخذ يبليها الزمن، فهي لم تعد متيقنة، تمامًا من شكل السكين الذي استخدمته في القتل بل ومن لون مقبضه، وهل كان بنيًا مصنوعًا من خشب الكافور أم أسـود من مادة الفيبر، الأكثر من هذا أنها لم تعد تذكر، ماذا شربت مع ذلك الزوج المعشوق، في تلك الليلة الشتوية العاصفة، من أيام النوة الكبرى، بينما كانت السماء تدر ماءها على المدينة المنكمشة على نفسها، في هذا الوقت من السنة، والبحر يلطم شواطئها بأمواجه الهائجة المجنونة، هل كان النبيـذ القـديم، المعتق الذي جلبه بناء على رغبتها من عند كوستا اليونـاني العجوز، الذي كان يصنعه، ويعتقه بنفسه، ولا يبيعه إلا لقلـة من زبائن محله الأثيرين، العارفين بقيمة الخمـر، ومذاقـه البديع؟ أم كان ذلك النوع من الروم القوي الذي يبعث تيارات من الدفء المتواصل في الجسد في ليلة باردة كتلـك الليلـة البعيدة؟ لكن رغم ضياع تفاصيل من هذا النوع، وتفاصـيل أخرى عديدة، طالما تشبثت بها عزيزة وخبأتها فـي عمـق الذاكرة، إلا أنها لم تنس أبدًا، الحديث الذي دار بينهما، فـي تلك الليلة، وقرارها الهادئ بقتله، الذي اتخذته في التو، بعـد سماعها لكلامه، وهو القتل الذي نفذته بعد ذلك بأيام قليلة.

بينما هما جالسان، يشربان كما يحدث لهما بين الحين والحين، بعد أن كانت أمها قد غادرت الدنيا منذ شهور معدودة، إثر إصابتها بحمى شوكية مفاجئة لم تصبها بأي عاهة مستديمة كالطرش أو العمى لأنها كانت عمياء بالفعل بل قضت عليها ولم تمهلها إلا ثلاثة أيام في الحياة، وذلك بعد أن اختلطت أعراضها على الطبيب وظن أنها أعراض أنفلونزا شائعة، يصاب بها الناس في نهاية فصل الصيف وبداية الخريف.

بينما هما جالسان، يتحادثان في أحوالهما، صارحها، بعد مقدمات طويلة أنه ينوي الزواج مرة أخرى، لأنه لا يستطيع أن يظل معها، تحت سقف واحد دون زواج أمام الناس، حتى لا تثار حولهما الأقاويل، ويصبحان نهبًا للشائعات، لكن عزيزة، كانت مدركة تمامًا للكذبة، ولتذرعه بثرثرة الآخرين وهذه لم تكن بالنسبة لها أكثر من حجة مكشوفة، تشبه واحدة من حججها العديدة، التي طالما أثارتها في الماضي، بوجه أمها عندما كانت تلح عليها وتطالبها بالزواج فقد كانت تعرف حقيقة عشقه الجديد، وغرامه الذي وقع فيه ولم يعد قادرًا على إخفائه، رغم الجهد الكبير، الذي

يبذله في سبيل ذلك، إلا أن بوصلتها الفطرية الكامنة بداخلها، لاكتشاف الجهة الموجه لها العشق والهيام كانت قد بصـــرتها بغرامه المشبوب، بنادرة ابنة صديقه الأثير عفت شاهين أحد أساطين صناعة العطور في المدينة كانت عزيزة تغار مـــن نادرة غيرة لا حد لها، قائمة على أساس متين هو الذي جعل نادرة موضع غيرة نساء عديدات، غير عزيزة، لأنها تنتمي إلى ذلك النوع من النساء الذي يتعامل مع الحياة. باعتبارهـــا لعبة كبرى، كل شيء فيهـــا قابـــل للمغـــامرة والتجريـــب، والاكتشاف ابتداء من ارتداء بنطال الهيلانكا الضـــيق الـــذي كانت تسير به، عارضة مفاتنهـــا فـــي شـــوارع المدينـــة، باعتبارها من النساء القلائل اللواتي غامرن بارتدائـــه عنـــد بداية ظهوره كأحدث صيحة في عـــالم الأزيـــاء العصـــرية وكذلك الرقص بطوق الهولاهوب، الذي كانت نادرة أول فتاة ترقص به في مكان عام بالمدينة فلقد رقصت به فـــي نـــادي سبورتنج حيث تحلق حولها كم هائل من الشبان، بين معجب ومستنكر، والتقطت لها عدة صور، تباين الغرض منها بـــين الفضيحة والامتنان، وانتهاء بالدخول في علاقات متكررة مع شبان ورجال كان أصغرهم يقل عمره عـــن عمرهـــا تســـع

سنوات وأكبرهم زوج أم عزيزة الذي كان عمره ضعف عمرها عندما وقع في غرامها وقد كانت نادرة من أولئك الذين ساهموا في ساعات الاستماع لأغاني عبد الحليم حافظ، وفايزة أحمد اللذين لم يكونا قد اشتهرا بما يكفي آنذاك إذ كانت فرائسها الغرامية المحبطة كثيرًا ما تجد عزاءها في الاستماع إلى هذين المغنيين المعبرين بأدائهما الدافئ الصادق عن أرق مشاعر الحب والحنين التي يكنها كل عاشق لمعشوقه الأثير.

ومنذ أن حلمت عزيزة بنادرة ذات يوم من الأيام الخوالي في ذلك الزمن القديم، أيقنت أن نهاية عشقها، السري، المجنون لزوج أمها سوف تأتي عما قريب، إذ رأت عزيزة نادرة في الحلم، تأتي إليها ضاحكة باشة الوجه بينما كانت ممددة على سريرها، لا تقوى على الحركة كما لو كانت جثة ميتة بالفعل، ثم أخذت تكفنها بقماش من الحرير الوردي الجميل، وتضع على رأسها إكليلاً من الشوك، آمرة أربعة من الرجال الطوال المسربلين بأردية سوداء طويلة، أن يحملوا عزيزة، بسريرها، ليلقوها في البحر، عندئذ قامت عزيزة، صارخة فزعة من شدة الرعب والضيق، وبقيت في

سريرها، حتى مطلع فجر ذلك الليل، الذي داهمها فيه هذا الكابوس، تفكر في مغزاه، وفي نادرة مسترجعة تفاصيل العلاقة التي ربطتها بها، بعد وفاة أمها فلقد جاء عفت شاهين مع ابنته وأمها للعزاء وسرعان ما صادقتها نادرة صداقة شديدة، وأحاطتها برعايتها وحنانها كما لو كانت أختًا كبرى لها، وقد انجذبت عزيزة إلى نادرة بسبب بساطتها وسلاستها في التعامل معها إضافة إلى قدرتها على تجنب أية مواطن لعدم الانسجام، تسارع النساء بتخليقها عادة فيما بينهن لإيجاد الذرائع المسببة لعدم استمرار علاقات الصداقة بينهن، وهو الأمر الطبيعي المترتب على سنوات طويلة من غياب كينونتهن الإنسانية نظرًا لعوالمهن التابعة لعالم الرجال، لكن نادرة كانت لا تفتأ، تشن على جمال عزيزة ورقتها خصوصًا، خلال مساءات الملل العائلي التي باتت تتكرر كثيرًا ويجري مواجهتها بلعب الورق إذ تتجمع أسرة عفت شاهين، والأسرة الحزينة بسبب فراق الأم لكن نادرة تمكنت في النهاية من هدم ما بنته من وشائج مودة وصداقة جميلة بينها وبين عزيزة، لأنها دخلت منطقة قدس الأقداس، المحرمة، بل وحرقت أقانيم العشق المبجلة، في ذلك البيت

المنزوي القديم الذي عاش كل ركن من أركانه تفصيلة من تفاصيل العشق، الذي نمت عزيزة وترعرعت في كنفه ولم تعرف في الدنيا عشقًا سواه، والذي طالما حفظت سره باحتراس، وحذر، فلم يفطن له حتى أقرب المقربين إليها بل وكان كل الناس، من أهل وأقارب وأصدقاء، يرون في علاقتها المثالية، الظاهرة لهم بزوج أمها، نموذجًا فريدًا للسلام، والصفاء الإنساني، والأبوة الممكنة لأبناء لا يخرجون من الصلب بالضرورة، وكانت عزيزة قد اعتادت أن تعايش الدورين بمهارة، حتى وكأنها خلقت لهما بالأصل، وهما دورا: الابنة البارة بوالدها المفترض وأمها الضريرة الطيبة، والعشيقة الفاتنة الغارقة حتى أدق ذرة في خلاياها في بحار العشق الواسعة، والأكثر من ذلك أنها ظلت طوال حياتها، وحتى بعد أن دخلت السجن، وباتت تجلس في الزنزانة، كما تفعل الآن لم تشعر أبدًا بغرابة الدورين وتناقضهما، بل إنها لم تجد في أي وقت من الأوقات أدنى غضاضة في أن تشترك وأمها في رجل واحد، إذ كانت تحب أمها حبًا كثيرًا، وتحنو عليها حين تساعدها على ارتداء ملابسها، وتصفيف شعرها بل كانت تختار لها بنفسها أجمل

الملابس المناسبة للون بشرتها وطبيعة جسدها الــذي يميــل للامتلاء بعض الشيء، وظلت حتى آخر وقت في حياتهــا، تختار لها تسريحات الشعر العصرية، حتى أنهــا نصـــحتها بقصة الآجارسون وكانت لا تتكاسل عن اصـــطحابها إلـــى أشهر حلاق نسائي في المدينة بين فترة وأخـــرى، بعـــد أن أقنعتها أن زمن الضفائر قد انتهى، وأن لوجهها جمالاً طاغيًا بتلك التسريحات الجميلة الجديدة.

كذلك، لم تشعر عزيزة بنفور قط، من ذلـــك الـــذي اغتصبها، في ذلك الزمن البعيد، بل كانت الأيام وتراكمهـــا الدائم، تزيدها اقترابًا منه، وتعلقًا به، وهي التي اعتادت عليه منذ أن كانت طفلة صغيرة باعتباره الراعي لشئونها والمهتم بها، الذي يحرص على تحميمها بالصابون النابلسي المصنوع من زيت الزيتون، لأن رغاويه قليلة، لا تضايقها في عينيها، كما كان يمشط شعرها ، واضعًا فيـــه الشـــرائط الملونـــة، الجميلة، المتلائمة الألوان، مع ما ترتديه من ثيـــاب أنيقـــة، حرص على شرائها من أرقـــى محـــلات أزيـــاء الأطفـــال بالمدينة، وقبل أن يواقعها في ذلك اليوم الذي لا تنساه أبـــدًا، كانت قد اعتادت النوم في حضنه لفترات طويلة، وهو يحكي

لها القصص والحكايات، وتأخذ أصابعها، الدودية، الرفيعة في تحسس ذقنه الخشنة غير الحليقة.

ستظل نادرة المرأة الوحيدة، التي كرهتها، وستكرهها عزيزة طوال حياتها، لأن نادرة برأيها، هي اللصة الزانية الكاذبة القاتلة لها، هادمة اللذات، بل إنها العاصفة التي اجتاحت بشرها أعمدة السعادة السبعة التي ظلت تستند إليها عزيزة دومًا فلقد خطفت منها الزوج والعشيق والحبيب والأخ والابن والصديق وانتزعتها دونما ضمير أو رحمة من الماضي، والحاضر، والمستقبل.

كانت نادرة أقل جمالاً من عزيزة بكل المقاييس فملامحها أقل تناسقًا واتزانا، مثل جسدها، الذي كان يعيبه اتساع كتفيها وارتفاع خصرها بعض الشيء، لكنها كانت ذات شخصية قوية، ناعمة، وقدرة على التأنق وإبراز كل ما هو جميل فيها، وإخفاء ما عداه من مواطن ضعف حسني، بحيث تبدو في النهاية، لكل من يراها وكأنها فاتنة تتألق أنوثة وفتنة، مما يثير الرغبة في الرجل لامتلاكها، لا لشيء إلا لانتزاعها من كل الرجال الآخرين، أولاً وقبل أي شيء آخر وقد ساعد نادرة على تميزها، وقوة حضورها، الشخصي

حصولها على قدر لا بأس به من التعليم إذا أنها التحقت بالجامعة لبعض الوقت، لكن الدراسة لم تستهوها كثيرًا فتركتها، على أمل أن تتعلم الرسم، وذلك على عكس عزيزة، التي أنهت دراستها الأولية بالكاد، وكانت محدودة الخبرة بالحياة، والمعارف الدنيوية المكتسبة، لعزلتها الدائمة في ذلك البيت الواسع، مع أمها الضريرة، وغياب أشقاء لها تشاركهم تفاصيل يومية، لم يتسن لها معرفتها أبدًا.

ولطالما لاحظت عزيزة الانطباع الذي تحدثه نادرة، عند دخولها، أو وجودها في مكان من الأماكن فتشعر بالغيرة، والضيق، عندما يخصها الناس بالاهتمام والحديث دونها، أو يغير الرجال من زوايا جلوسهم للاستماع إليها، غير أن نادرة، كانت تتميز بذكاء ولباقة، فتمتص ما تعانيه عزيزة من ضيق، وتظل تمتدحها، على نحو لا يشوبه افتعال وتدير دفة الحديث بحيث يوجه جانب منه في اتجاهها، لكنها في أحد الأيام، اكتشفت عزيزة أن معشوقها واقع في غرام تلك السمراء، اللطيفة، لأنها شعرت بأنه يلعب معها دورًا أبعد من دور المضيف الكريم، إذ كانوا ساهرين ذات ليلة في البيت يلعبون الورق.

فظل العشيق الأرمل حريصًا علــى تقــديم الطعــام لنادرة بنفسه متابعًا لكل حركة من حركاتها المدروسة بدقــة، للتعبير عن أنوثتها، بينما كان يستمع بآذان كربونية حساســة إلى كل ما تقوله، ويبادلها الكلام الذي شاركت فيه النظــرات المتيمة بالغرام أيضًا.

ظنت عزيزة، بعد ذلك، أن نــادرة ســوف تكــون كسحابة صيف، عابرة في سماء علاقتها الصافية بزوج أمها ككل تلك السحابات، التي عبرت، ومرت مــن قبــل طــوال علاقته الطويلة بها، والتي شاركت فيها راقصات في ملاهي ومحلات المدينة الليلية، وسيدة إيطالية جميلة، طالمــا نســي صورها، مبعثرة، ضمن أوراقه، على مكتبه بالبيت، وكانــت تمنحه هدايا وتذكارات عديدة، ولم تعرف عزيزة أبــدًا أنــه منحها بدوره طفلاً صغيرًا، أخذته بعد تأميم مصــنع أدوات التجميل، الذي كانت تعمل به وغادرت البلاد لكن ظنها خاب في اللحظة التي فاتحها فيها برغبته في الزواج مــن نــادرة، رغم أنه كان قد صار على مشارف الستين من عمره تقريبًا، وما كانت تظن هي أبدًا أنه يفكر في الزواج، مرة أخرى لكن احتفاظه بوسامته القديمة وقلة التجاعيد في وجهــه، التــي لا

تفصح عن عمره الحقيقي ربما كانت من العوامل التي شجعته على التفكير والإقدام على خطوة من هذا النوع، وخصوصًا أن نادرة، كانت تبدو له كفرصة سانحة لا تعوض، وعندما أيقنت أنه جاد فيما انتوى عليه، إذ أخذ في إقناعها أن ذلك أفضل لها وله، وبدأ يناقشها في التفاصيل العملية، لتلك الزيجة التي ينتويها، خصوصًا فيما يتعلق بالبيت وحجراته، ظلت عزيزة تحملق فيه، وهي تفكر في الطريقة الملائمة لقتله، دون أن يطرف لها رمش.

كانت أعراض الجنون قد أخذت في الظهور على عزيزة، شيئًا فشيئًا بعد سنوات قليلة من دخولها السجن، ففي بداية الأمر، شوهدت وهي تحادث نفسها بين الحين والحين، بكلمات غير مفهومة المعنى لمن تسمعها من السجينات وهي الكلمات اليونانية القليلة التي كانت قد عرفتها من أم زخاري، جارتهم القبرصية، في الشارع الذي كان يقع فيه بيتهم، ثم لوحظ عليها بعد ذلك، أنها حطت كثيرًا من شموخها، وترفعها المعتاد في تعاملها مع كل اللواتي يتعاملن معها في السجن، بما في ذلك السجانات أنفسهن اللواتي يتعاملن معها بتحفظ أكثر، لأنها ظلت حريصة دائمًا، على ألا تضع نفسها

في موضع يعرض كرامتها للإهانة منهن، بأي حـال مـن الأحوال، ثم إنها أخذت توزع ملابسها، على كل من يحتاج، محتفظة بأقل القليل منها لنفسها، ثم أخيرًا بدأت تضرب كـل من تضايقها، أو تتعرض لها مـن السـجينات، وكـادت أن تضرب، ذات مرة، محروسة السجانة التي أوشـكت علـى ضربها ضربًا شديدًا، يمكن أن يجعلها ترقد على أثره ممددة كالجثة في فراشها، إلا أن طيبة قلب محروسة، وتذكرها لأن عزيزة أعطتها قميصًا داخليًا مصنوعًا من الدانتيل الأسـود الفاخر، قبل ذلك بيومين، جعلاها تتراجـع، وتأخـذها إلـى زنزانتها بالتحايل، واللين، لتهدأ وتستريح لكنها، ذات يـوم، عضت لولا القوادة عضًا شديدًا، بعد أن هجمت عليهـا، لأن لولا التقتها في دهليز السجن، وقالت لها إنها كان يجـب أن تلقاها خارج السجن قبل ذلك بعشر سنوات، ليصبح لها معها شأن آخر، أخيرًا قررت إدارة السجن عرضها على الأطبـاء المتخصصين في الأمراض النفسية والعصبية، بعد أن فشلت معها كل طرق العقاب الممكنة داخل السجن، دون أن ترتدع أو ترعوي، لكنها بدت في حضرة الطبيبين الشابين اللـذين حضرا لمعاينة حالتها، وكتابة تقرير عنها، هادئـة، رقيقـة،

تتحدث بثقة أميرة، من أميرات الأسرة العلويـــة المخلوعـــة، وبأسلوب متحضر يفصح مع مظهرها الراقي، عـــن حقيقـــة انتمائها الاجتماعي، مما جعلها موضـــع تقـــدير، واحتـــرام، منهما، فقررا، في النهاية، وبعد حوار طويل أجرياه معهـــا، أنها ليست مجنونة، على الإطلاق إلا أن قرارهما هذا ربمـــا كان بالقياس إلى كمية الجنون التي طالمـــا صـــادفاها، فـــي حياتهما المهنية، بعيدًا عن السجن.

لذلك، اكتفت إدارة السجن بعزل عزيزة، في زنزانة انفرادية، داخل مستشفاه، بجوار عنبر الضـــعفاء والعجـــزة، وربما كان ذلك أسعد، وأجمل، قرار اتخذ تجاهها، منـــذ أن حكم عليها بالسجن المؤبد، بعد أن قتلت زوج أمها، فقد أتيح لها، ولأول مرة منذ زمن طويل، تمضية أمسيات، طويلـــة، هادئة، تخلو فيها إلى نفسها، دون أي إزعـــاج، مـــن أحـــد، يشاركها المكان، مثلما يحدث عادة في العنـــابر المشـــتركة، وباتت تستطيع السهر، وحيدة، تتطلع إلى النجـــوم لأوقـــات طويلة، دون أن يطالبها أحد بإغلاق النوافذ الخشـــبية، لمنـــع تسلل القطط الضالة، والحشرات إلى العنبر، وها هي تمضي الليالي، تفكر بصفاء ودقة في كل، أولئـــك اللـــواتي ســـوف

تأخذهن معها، في عربتها الذهبية الجميلــة، ذات الأفــراس البيضاء المجنحة الصاعدة إلى السماء، واللاتي تحــرص أن يكن من أفضل وأنبل نساء السجن، بل اللواتي هن في الحقيقة ملائكة بلا أجنحة، ضللن طريقهن إلى السماء، فجئن إلى هذا الموضع الموحش الكئيب الذي ستصعد بهن منه، معيدة إياهن إلى موضعهن السماوي اللائق بهن، بواسطة تلــك العربــة الرائعة التي تفوق روعتها روعة عربة الملك فاروق التــي رأتها، ذات مرة، بأم عينها تجري في شوارع المدينة، عنــد الصباح آتية من قصره البحري في المنتزه، وها هي تجلــس الآن بعد أن فكرت كثيرًا في أمر أم رجب، فتقرر ضمها إلى الركب الملائكي الصاعد إلى السماء.

لم تكن عزيزة لترتاح قبل ذلك لأم رجب أبدًا، فهــي بنظرها السوقية المجسدة، والنصب، والاحتيال، بعينهما، إذا وقفا على أقدام ومنذ اليوم الأول الذي جاءت فيه أم رجــب إلى السجن محكومة بثلاث سنوات، بعد إثبات تهمة النشــل عليها، كانت عزيزة تتجنب الاحتكاك بها، أو التعامل معهــا، لأنها كانت تكره منظرها الشيطاني، بوجهها العجوز الصغير الذي رتعت في كل موضع من جلده التجاعيد الكثيرة الدقيقة،

وشعرها الأحمر الأقرب للبرتقالي الفاتح، لكثـــرة صـــباغته بالحناء، والذي كان كثيفًا مجعدًا منكوشًا دائمًا، بحيث يجعــل رأسها يوحي، لمن يراه، بأن شعلة النار الأبدية قــد اتخذتــه مستقرًا لها، غير أن شعور عزيزة نحو هذا الرأس، كان يأتي على نحو مختلف، غريب بعض الشـــيء، إذ كانـــت تشـــعر وكأنه شمامة صغيرة فاسدة، تعطنت قشرتها وباتـــت أكثـــر دكانة، وربما كان مصدر ذلك الشعور تلك الرائحة العطنـــة الكريهة الملازمة دومًا لأم رجب، والتـــي طالمـــا اشـــتمتها عزيزة كلما مرت بجانبها، أو اقتربت منها، بالإضافة إلى ما لاحظته في أم رجب من نظرات حادة سريعة قلقة، لا تستقر أبدًا، أشبه بنظرات ثعلب صغير، لم تستطع عزيزة أن تبلعها أو تستريح لها، أبدًا، وقد كانت محقة في ذلك، لأنها كانـــت كتلك النظرات التي طالما تميز بها النشالون دون سواهم من اللصوص، والتي دلت أيضًا إلى جانـــب أصـــابعها النحيلـــة للغاية، ويديها المعروقتين على كونها نشالة محترفة، طالمـــا التقطت بمهارة وخفة، محافظ ونقودًا، وأشياء ثمينـــة، مـــن أماكنها في جيوب، أو حقائب الناس.

رغم أن أم رجب لم تكـن سـليلة أسـرة نشـالين محترفين، ورغم أنها لم تتلق طوال حياتها دروسًا منظمة في النشل، إلا أنها كانت بارعة جدًا، إلى ذلك الحد الذي جعلها تحترف النشل بسهولة، بعد أن طلقها زوجها، قبل انقضاء خمس شهور على زواجها فاضطرت لإعالة نفسها، بعد أن وضعت طفلة كانت قد حملتها منه، واضطرت لمواجهة الحياة، بمفردها، والجري على لقمتها ولقمة ابنتها الصغيرة.

أما حكاية أم رجب، وهو الاسم الذي طلبت من جميع المسجونات مناداتها به، فكان مبعثها أنها كانت ومازالت تحلم بأن تكون أمًا لطفل آخر ذكر ، تسميه رجب، وقد كانت هذه الأمنية، من الأمور القليلة التي سعت إلى تحقيقها، في الحياة، قبل ذلك، خارج السجن، دون جدوى، إذ أنها حاولت الارتباط بأي رجل، آخر، يقبل الزواج بها مهما كانت ظروفه، ومهما بلغ فقره وحاجته لكنها فشلت تمامًا، حتى أنها ذات مرة استدرجت شحاذًا عجوزًا، كانت تراه يجوب الشوارع، زاحفًا على الأرض بسبب فقده لساقية، دعته لأن تؤويه، في غرفتها الصغيرة التي كانت تعيش فيها مع ابنتها، ووافق الرجل الذي كان بلا مأوى محدد فكان يبيت كيفما

اتفق في الجوامع، أو عند بعض زملائــه مــن الشــحاذين الميسورين الذين يمتلكون مساكن تؤويهم مقابل أن يدفع لهــم لأجل ذلك، وقد استبشرت أم رجب خيــرًا، بعــد أن انتقــل الرجل إلى مسكنها، وشعرت أنها قاب قوسين أو أدنى مــن رجب، وكادت أن تفاتحه في أمر الزواج، بعد أن أطمأنــت لجانبه، وأغدقت عليه، في حدود مســتطاعها، ممــا كانــت تجلبه، كل يوم من عمليات النشل الذي برعت فيه إلى حــد كبير، بسبب الظروف العامة المواتية، إذ كانت الحكومة قــد عجزت عجزًا شبه تام، عن حل مشكلة المواصلات، بســبب سوء التخطيط الإداري، وتكدس المدينة بســكانها الوافــدين إليها، يومًا بعد يوم، من القرى، والمدن الصغيرة المحرومــة من معظم الخدمات الأساسية، مما أتاح الفرصة لأم رجب أن يتسع رزقها، ويكثر، في ظل ذلك الازدحام، وتكدس النــاس في المركبات العامة، والقطارات، وخصوصًا تلك القطارات التي تعمل بين مركز المدينة وضــواحيها البعيــدة، لكــن أم رجب فوجئت، مفاجأة أذهلتها، إذ اكتشــفت وجــود صــبي صغير ينام إلى جوار شحاذها العجوز، في رضــا، عنــدما عادت، ذات ليلة، متأخرة بعد يوم حافل بالنشاط النشلي، لأنه

كان يوم وقفة عيد الفطر المبارك، وقد خرج معظم العاملين بالحكومة والقطاع العام، لشراء ملابس وأحذية جديدة لأفراد أسرهم، بعد أن حصلوا على منحة العيد، وقد أيقنت أم رجب على الفور، خيبة أملها المعقود الذي كانت تعد له، للحصول على عزيز المنال رجب، عندئذ، وبدون أدنى مناقشة، طردته، شر طردة، من بيتها مسبوقًا بطفله الصغير، بعد أن جردته من أعز ما يملك، وهو جاكت نسائي كروازيه وطاقية من صوف الغنم، كانت قد اشترتهما خصيصا لأجله، من بائع يبيع الملابس القديمة، دون أن تدري بالطبع أن الجاكت مخصص للنساء، لأنه كان على طراز أوائل السبعينات، حيث شاع أسلوب الألبسة الرجالية في أزياء النساء، ورغم توسلات الرجل لتتركه يبيت ليلته حتى الصباح، وتعهده أن يدفع نصف الثمن الذي اشترت به الجاكت، إلا أنها رفضت رفضًا قاطعًا، ضاربة عرض الحائط، برغبة ابنتها، وطلبها اللحوح، منها أن تترك الصبي يبيت ليلته معهما، حتى تلعب معه قليلاً.

ولعل فشل أم رجب في تحقيق أمنيتها البسيطة المتواضعة التي ترى عشرات النساء يحققنها كل يوم، هو

الذي جعلها تشعر بعقدة نقص دائمة في داخلها، وأن تظل، دائمًا، مكسورة الخاطر، وذات قدرة فذة على تحويل أبسط العقبات إلى مصائب كبرى، كأن تنسى اللبن يفور على النار، أو يسقط من ابنتها كوب على الأرض، فتصرخ وتولول، كما لو أن ملمة كبرى قد ألمت بها، ثم إنها تحولت، بمرور الوقت، وبسبب رجب أيضًا، إلى إنسانة حقود، ذات نزعة دونية تجاه الناس، وهي النزعة التي أهلتها لأن تكون جاسوسة، مثالية، للسجانات اللواتي كانت تبالغ في تملقهن والتودد إليهن، عبر إبلاغهن بكل تفصيلة تحدث في عنابر النزيلات، سواء شاهدتها، أو سمعت بها، بل كانت لا تتورع عن الوشاية بأية سجينة تحاول مخالفة اللوائح الداخلية للسجن، كأن تحتفظ بمرآة أو ببعض من أدوات التجميل البسيطة، أو بأي من الملابس الملونة التي تخفى، عادة، بعناية، وترتدى أثناء الليل، حيث لا تبقى إلا سجانة واحدة، أو اثنتين على الأكثر، تغطان في نوم عميق، خلال هذه الأثناء، غير أن كل ذلك لم يتعارض مع أن أم رجب، كانت تقوم وكلما سنحت لها الفرصة بممارسة نشاطها الذي جاءت بسببه إلى السجن، والذي طالما عرضها إلى مشكلات عندما

كانت في خارجه أيضا. وقد تصادمت معهـا عزيـزة لأول مرة، عندما لمحتها تحاول سرقة بيضة مسلوقة، كانـت قـد وضعتها، إلى جانب بضعة زيتونات، على رغيف فوق إفريز الشباك، استعدادًا لأن تفطر بهم، وكانت عندئذ تقف خـارج الحجرة مادة يدها إليهما، عندما، أمسكت عزيزة بيدها، بينما كانت واقفة داخل الحجرة تغسل حبة طمـاطم، لتبلـع بهـا الأكل، وانقضت عليها، بعضة قوية، كادت أن تقتطع جـزءًا من لحم يدها، لولا صراخ أم رجب الذي تجمعت على أثـره عدة مسجونات، قمن بتخليص يدها من أسنان عزيزة التـي ظلت تسب وتشتم بغيظ، ثم بـدلاً مـن أن تلـتهم البيضـة والزيتون بالرغيف، طوحت ، بهم جميعًا، في فناء السـجن، لأنها أنفت من تناول طعام اشتهته أم رجب إلى حد السرقة، لكن عزيزة كانت تحمل سببًا أعمق من هـذا، لكراهيـة أم رجب، فقد اكتشفت أنها تكاد أن تخاصم المـاء والصـابون، وربما كان ذلك سبب رائحتها الزنخة الكريهة التي تهب على كل من يقترب منها، ورغم أن السجانات، كـن يجبـرن أم رجب على الاستحمام بين الحين والحـين، إلا أن فطريـات الصيف، كانت تنتعش، أكثر، عقب كل مرة تسـتحم فيهـا،

فتتكاثر بين أصابع قدميها ويديها وتحت إبطيها، وبين ثنيات جلدها المتغضن، دالة على ازدهارها بتلك الرائحة التي لا تطاق.

لكن في يوم مشهود، لم ير سجن النساء مثله، تغيرت رؤية عزيزة لأم رجب، تغيرًا يعادل رؤية جاليليو لنظرية بطليموس في دوران الشمس والأرض، فقد هبت عزيزة ذات يوم من قيلولتها المعتادة، على صراخ ونحيب أم رجب التي كانت قد أخبرت للتو، من قبل إدارة السجن بوفاة ابنتها، بعد أن شب حريق هائل، في البيت الذي كانت ما تزال تقطن إحدى حجراته، والذي كان يؤجره صاحبه، كحجرات مشتركة أو منفردة لأولئك الذين لا يقوون على دفع إيجار سكن مستقل، من فقراء المدينة، وقد ظلت أم رجب تبكي وتندب ابنتها التي راحت دون بناتها الثلاث، في الحريق الذي شب بسبب انفجار أنبوبة غاز، كان صاحب عربة فشار، يقطن الحجرة المقابلة لها، يحاول ملأها، ففشل، وانفجرت لينتشر الغاز في كل أرجاء البيت، ويشتعل.

كانت المحروقة واقفة بحجرتها تقلي باذنجانًا وبطاطس لبناتها اللواتي كن يلعبن، حتى ذلك الوقت من

منتصف النهار الحجلة في الشارع، وقد كان شعور أم رجب بالمصيبة يتزايد، كلما تذكرت مصير هؤلاء البنات الصغيرات اللواتي كن قد فقدن أباهن، منذ شهور، بعد أن داهمته نوبة من نوبات مرض السكر الذي كان مزمنًا لديه، بعد أن تناول، بنهم، خرطتين كبيرتين من الكنافة.

لذلك ظلت أم رجب تلطم، وتصرخ، لساعات طويلة، وقد واتتها طاقة هائلة على ذلك، وانتفخ خداها الضامران، انتفاخا واضحًا، غارت خلفه فتحتا عينيها الضيقتين الشبيهتين بعيون الثعالب، ولما لم تعد قادرة على بذل المزيد، من مشاعر الغم والنكد، سقطت مغشيًا عليها.

ظلت عزيزة تتابع من مكانها، على فرشتها، بالزنزانة، معاناة أم رجب، وحزنها الذي شعرت بمدى عظمته، من كل ذلك النواح، واللطم والعديد الذي كان يصل إليها، عبر الشباك المفتوح بزنزانتها، من عنبر العجزة، وقد تفتحت عينا عزيزة لأول مرة، على حقيقة كون أم رجب، أشد الناس الذين عرفتهم ابتئاسًا، ومسكنة، وأنها امرأة أكلها الغلب، من كل جانب، فها هي لا تستطيع حتى أن ترى ابنتها، عندما ماتت، ولا أن تودعها الوداع الأخير إلى قبرها،

ناهيك عن طاقة الألم الهائلة التي سوف تلتهم روحها، كلما فكرت في الصغيرات الثلاث اللواتي بتن بلا أم أو أب يحنو عليهن، وهي بعيدة، لا تملك أمرًا لهن، ولا تستطيع دفع شر يحيق بهن.

بكت عزيزة عندئذ بدموع حقيقية، لفرط تعاطفها مع أم رجب، والتمست لها العذر، في هذه اللحظات في كونها لصة نشالة، فأم رجب ما حققت شيئًا، خلال حياتها من النشل، وما صنعت من ورائه مجدًا ولا مدخرًا ينفعها في أيام العوز والشدة، بل طالما سرقت، ونشلت، لتعيش وتأكل، ولعلها لو وجدت فرصة أفضل للعيش ما كانت بسارقة في يوم من الأيام.

لكن عزيزة شعرت بعدئذ أنها تمادت في تعاطفها مع أم رجب، لأن اللصوص، برأيها، لصوص مهما كان الأمر، ويجب أن ينالوا عقابًا على لصوصيتهم وسرقتهم للناس لكنها عند ذلك الحد من التفكير وتقليب الأمر مع نفسها، تذكرت زوج أمها، وتذكرت نادرة، وأيقنت أن العدالة، رغم كل شيء قاصرة، ولا يمكن أن تتحقق، كما يجب، بين الناس، على الأرض، ولو قدر لها أن تمسك بميزان العدالة،

لوضعت نادرة في موضع أم رجب، ووضعت زوج أمها في موضعها، فثمة جرائم للضمير لا تكفي قوانين البشر لإدانتها ومواجهتها، فها هي أم رجب محكومة بالسجن، لكنها في الحقيقة والواقع، كالمحكومة بالموت، ولا تستطيع حتى أن تنظر إلى ابنتها وهي راقدة رقدة الموت ولن تتمكن، أبدًا، من احتضانها، والبكاء على صدرها، ومن طبع قبلة الوداع الأخير على وجنتها.

بكت عزيزة أكثر لأجل أم رجب، وشعرت كم أنها كانت قاسية عليها عنيفة معها، وداخلها ندم شديد، لأنها لم تتركها تسرق البيضة والزيتون بالرغيف، بل عضتها، حتى رسمت بأسنانها على معصمها ما يشبه ساعة مستديرة زرقاء، ظلت آثارها باقية على لحمها لأيام طويلة، ثم إن عزيزة قامت وتمشت في الحجرة بعد أن أشعلت لنفسها سيجارة، وظلت تقدح ذهنها بشدة، لأنها أدركت كم ستكون متهورة لو أنها لم تأخذ أم رجب، معها في العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، لأنها قبل هذه الواقعة التي هزتها من أعماق نفسها، كانت تعتبر مجرد التفكير في أن تلمس أم رجب بيدها الدنسة، تلك العربة السماوية المقدسة، ضربًا من

ضروب المستحيل، باعتبارها العربة الملكية المذهبة التي رأتها ذات يوم بعيد، لآخر ملوك مصر في القرن العشرين، مع تعديل بسيط أدخلته عليها وهو مجموعة من الأجنحة القوية الممتدة التي تساعد أفراسها الجميلة البيضاء الستة، على الصعود إلى السماء، وشق عباب السحاب.

لم يكن هذا الحادث هو العامل المرجح، فقط، لتراجع عزيزة عن قرارها، في عدم إلحاق أم رجب بالعربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، بل كانت هناك حيثيات أخرى، جعلت عزيزة تحسم الأمر حسمًا نهائيًا لا رجعة فيه، وهي حيثيات، وإن لم تكن قوية من حيث المنطق والعقل، إلا أنها على أية حال، كانت مقنعة تمامًا بالنسبة لعزيزة التي طالما استندت إلى مشاعرها الصادقة التي تثق بها عادة، لأنها حيثيات نبعت حقاً من عمق انفعالها لما جرى لأم رجب وتعاطفها العميق معها، فرغم أن أم رجب كانت نشالة محترفة، إلا أنها، وكما اعترفت لعزيزة فيما بعد، لم تسرق أبدًا إلا تحت ضغط الحاجة، بعد أن ضاقت السبل بها، فقد حاولت بعد أن تركها زوجها، أن تعمل أي عمل يسد جوعها وجوع ابنتها، فاشتغلت مرة في مدبغة لدبغ الجلود، وكانت مهمتها تنظيف

جلود الجاموس والبقر من الشعر، وقد حصلت من عملها الشاق هذا الذي كان يمتد طوال النهار، على أجر زهيد، كان يكفي بالكاد لأود حياتها هي وصغيرتها، بالإضافة إلى ما حصلت عليه من إصابة فطرية مزمنة، لم يكن من السهل علاجها، لو تمكنت أم رجب، من ذلك، وسنحت لها الظروف التي كانت تضن عليها بأي فائض مالي بسيط، يجعلها تواجه هذه الفطريات اللعينة بأي مرهم أو عقار طبي يمكن شراؤه من أي صيدلية صغيرة، ثم إنها عملت كموزعة لأكياس غزل البنات التي كانت تحصل عليها من بائع يقوم بتصنيعها، لتنال نسبة ربح بسيطة مقابل هذا، لكن المشكلة كانت أنها تضطر لأكل ما تبقى منها، في نهاية اليوم، إذ تكون قدماها قد تعبتا من اللف والدوران، وبطنها الخاوية قد نهشها الجوع، ثم عملت بائعة بالونات، وذرة مشوية، وظلت لفترات طويلة تشتغل كحمالة في سوق الخضار، تشيل أجولة البطاطس والطماطم الثقيلة، حتى أصيبت، ذات يوم بانزلاق غضروفي أقعدها عن العمل، ولولا بعض حبات البطاطس التي كانت تختلسها من الجوالات الكبيرة، بين الحين والحين، لكانت نفقت جوعًا، هي وابنتها، كما تنفق الحيوانات، لذلك

احترفت النشل أخيرًا، رغم أن ذلك جاء بالصدفة المحضـــة، إذ كانت تقف ذات يوم أمام جمعية تعاونية مزدحمة، لابتياع كيس من الأرز، عندما وقع نظرها على حقيبـــة مفتوحـــة، لسيدة واقفة، أمامها في الطابور، يبدو من هيئتها أنها موظفة من موظفات الحكومة اللواتي يضطررن لقضـــاء حاجـــاتهن المنزلية، بعد انتهاء يوم عملهن، وقد كـــان بالحقيبـــة كـــيس جلدي صغير، مدت أم رجب أصـــابعها الرشـــيقة الرفيعـــة، والتقطته، بهدوء، لتدسه في صدرها وتنسحب متســـللة مـــن الطابور، صحيح أنها لم تجد فيه غير ثلاثة جنيهـــات، إلا أن فرحتها بها كانت بلا حدود، إذ اشترت يومها علبـــة حـــلاوة طحينية تغدت بنصفها مع ابنتها، وكيلو يوسف أفندي، وكيلو مكرونة، لمواجهة يوم أو يومين آخرين، وقد شكلت الجنيهات الثلاثة فتحا مبينًا، بالنسبة لأم رجب في عالم النشـــل الـــذي ظلت فيه مستقلة طوال حياتها المهنية، إذ رفضت الانتمـــاء إلى أية عصابة، أو جماعة من جماعات النشل المتخصصـــة المنتشرة في أنحاء المدينة، وقد اعترفت أم رجب لعزيزة بعد أن صار بينهما أخذ وعطاء في كلام، بأنهـــا ضـــعفت ذات مرة، وكادت أن تنتمي إلى عصابة منظمة تمارس نشـــاطها،

على نطاق واسع في سيارات نقل الركاب، بين القاهرة والأقاليم الأخرى، إلا أنها تراجعت، بعد أن فكرت جيدًا وأدركت أن النشل الانفرادي أفضل لها، ألف مرة، لأن من المحتمل، لو وقع أحد أفراد العصابة في يد البوليس، أن يعترف على بقية زملائه. لكن ذلك التفرد، طالما كلف أم رجب الكثير، لأنها كانت مضطرة دائمًا لتوخي الحذر، ليس فقط من العصابات التي طالما اختلست هي العمل في مناطق نفوذها، ولكن من أعين الشرطة أيضًا، ثم حكت لعزيزة أنها كادت أن تقتل في مرة من المرات، من قبل أفراد عصابة، طالما ألحوا عليها في الانضمام إليهم وظلت ترفض طلبهم على الدوام، لكنهم اكتشفوا، بعد فترة أنها تقوم بالنشل داخل الحدود الخاصة بعصابتهم والمتفق عليها مع العصابات الأخرى، فقامت هذه العصابة بخطفها، إلى مكان بعيد عن العمران، وشرع أفراد منهم في خنقها، لكنها توسلت إليهم توسلاً شديدًا ليتركوها تعود إلى ابنتها الوحيدة التي تحتاج لرعايتها، فاكتفوا بضربها ضربًا مبرحًا، كان من آثاره عاهة مستديمة، فوق حاجبها الأيسر، قلما تلحظ بسبب كثرة تجاعيد وجهها.

كانت النهاية المأساوية التي ألقت بأم رجب في السجن، والتي عرفتها عزيزة منها بالتفصيل بعد فترة من المصالحة بينهما، هي العامل الأخير الذي رجح ترجيحًا مطلقًا انضمامها إلى زمرة أهل العربة السماوية المذهبة لأن عزيزة التي طالما خبرت القدر، وفهمت ألاعيبه أدركت بعد تفكير وتمحيص لحالة أم رجب، أنه لم يلعب لعبته معها، على هذا النحو، إلا ليجيء بها، لتكون ضمن اللواتي سيصعدن إلى السماء،، فرغم دقة أم رجب في تأدية عملها، وحرصها الشديد، وموهبتها الفائقة في النشل، إلا أن الحكومة أمسكت بها، بطريقة الصدفة القدرية، فبينما كانت تعمل ذات يوم في مترو مصر الجديدة الذي طالما اعتبر بالنسبة لها، واحدًا من أفضل حقول استخراج النقود من محافظ ركابه الصابرين على عدم دقة مواعيده، وبطء سيره، وبعد أن نجحت في سحب كيس نقود خرزي ملون، من ذلك النوع المصنوع في تايوان الذي تتهافت عليه النساء وشاع انتشاره بعد سفر المصريين إلى الخليج الذي طالما فتح صدره على الرحب والسعة، لكل منتجات الاستهلاكية، من مثل هذا النوع، وغيره كالبلوزة المحاكة من الحرير الصناعي

المشغولة بالخرز على الصدر، والتي كانت ترتديها صاحبة الكيس الشابة الذي كانت تضعه دون حرص في حقيبة يدها التي فتحتها أم رجب في منتهى اليسر بمهارة خبيرة متمرسة على النشل لمدة تزيد عن ثلاثين عامًا، بينما كانت الشابة مشغولة بترتيب خصلات شعرها بأناملها المطلية أظافرها، ورغم أن العملية تمت بنجاح، واستدارت أم رجب، بعد أن خبأت الكيس، بسرعة في كيس بلاستيكي به بعض الخضار، والخبز، ثم أخذت تستعد للنزول بسلام في المحطة التالية التي كان سيتوقف فيها المترو إلا أن طفلاً رضيعًا التقط، ببراءة رغيفًا من الخبز، بأصابعه الرقيقة، كاشفًا عن الكيس الذي تحته. ولسوء حظ أم رجب، لمحته صاحبته بسرعة، إذ كانت قد استدارت هي الأخرى، لتقف خلف أم رجب استعدادًا للنزول في المحطة ذاتها التي كانت أم رجب ستنزل فيها.

كانت كومة من نفايات السجائر قد تجمعت أمام عزيزة، بينما عاودتها آلام الرأس والصداع الذي كان يداهمها، بين الحين والحين، بسبب إصابتها بضغط الدم المرتفع، وكانت قد فكرت بما يكفي، وقلبت مسألة أم رجب

على كل جانب من جوانبها، فقامت لتتمشى قليلاً ولتعد لنفسها شيئًا تأكله، لأنها كانت قد بدأت تشعر بالجوع، تأملت سقف الحجرة العالي الذي عشش العنكبوت في كل زاوية من زواياه، رفعت يمناها محيية إياه تحية المساء، قائلة له إنها تراه أحسن منها، وأفضل حالاً، لأنه أتى إلى هذا المكان بإرادته، ثم إنها سألته أن يسدي لها خدمة بسيطة، لكنها هامة جدًا وسرية للغاية، وهي أن يذهب بهدوء إلى أم رجب ويوشوشها في أذنها قائلاً لها:

عزيزة قالت لي أن أقول لك.. خلاص.. هي ناوية أن تطلعك لهناك إن كان لها عمر، بإذن واحد أحد.

فصل الخطاب في تآخي الأضداد

ظلت الأسباب الحقيقية الكامنة وراء قتل حنة العجوز لزوجها الذي يكبرها بحوالي أربع سنوات، سـرًا مجهـولاً، لكل الناس، بما فيهم أولادها الثلاثة، وهيئة المحكمـة التـي أصرت حنة أمامها على كل الأقوال التي كانت قد أدلت بها، قبل ذلك، للنيابة، فلم تزد عن أن وعاء الماء الذي كانت قـد وضعته على موقد الغاز، قد غلى وفار، بعد أن نسيته ونامت وزوجها في المساء، وأنها عندما أفاقت في صـبيحة اليـوم التالي، لذلك المساء، وجدت نفسها وكأنها مخدرة، لا تقـوى على الحركة أو حتى التنفس الطبيعي، فلما نـادت زوجهـا، ليساعدها على النهوض من الفراش، لم يرد عليها، رغم أنها كررت نداءها له عدة مرات، ثم إنها شمت رائحة غاز قوية تملأ البيت، فتذكرت حينئذ الوعاء الذي كانت قـد وضـعته على النار قبل نومها مما جعلها تتحامل على نفسها وتجـري إلى المطبخ، لتكتشف تسرب الغاز من الشعلة التي كانت قـد انطفأت قبل ذلك، بوقت طويل، لكن هيئة المحكمة اسـتمعت إلى أقوال حنة، بقدر عال من الاستخفاف، وعـدم الجديـة، وهو ما كانت النيابة قد فعلته أيضًا، بسبب ثغـرات عديـدة،

تثبت سبق الإصرار والترصد، ليس في هذه الأقوال فقـط، ولكن في الشواهد، والأدلة الكثيرة التي توصلت إليها النيابـة أثناء التحقيق، وحكمت عليها بالسجن عشر سنوات بعـد أن وجهت إليها تهمة القتل العمد، مع سبق الإصرار والترصد، وبعد أن فشلت كل الجهود المبذولة من محاميها الذي كلفـه أبناؤها بالترافع عنها، وباءت بالخيبة توسلاته لها لكي تنطق وتقول إن زوجها كان يضربها ويعذبها ويقتر فـي الإنفـاق عليها، مما جعل السبل تضيق بها، وتظلم الدنيا في عينيهـا، فتقتله في لحظة غضب، وإنها الآن، نادمة كل النـدم علـى فعلتها الشنعاء التي قامت بها ضد أقرب الناس إليها، وتلتمس من هيئة المحكمة، أن تنظر بعين العطف والرحمة إليها بعد أن أقرت بجريمتها، وبات الندم والحسـرة ينهشـان قلبهـا، ويحطمان روحها، بسببها، لكن حنة ظلت مصرة على أقوالها الأولى، لا تعير أذنيها لنصائح المحامي الذي اعتبرت تدخله في هذا الموضوع، نوعًا من السخف، وعتهًا من أبنائها الذين اعتادوا إنفاق فلوسهم فيما لا يفيد، وآثـرت إطباقًـا شـفتيها الرفيعتين إطباقا تامًا في بؤرة ضيقة صغيرة، اختفت بداخلها نهايات الخطوط، والتجاعيد الدقيقة للمنطقة المحيطة بهمـا،

مما جعل القاضي الذي ظل يتثاءب، بملل، أثناء المرافعة الإنشائية الطويلة، لممثل النيابة، يقرر حكمه الذي بدا متساهلاً بعض الشيء، إذا أنه لم يحكم عليها بالسجن المؤبد، أو الإعدام، كما هو شائع في مثل هذه الحالات، مستندًا في هذا إلى شيخوختها وإلى تقرير طبي ضمه المحامي إلى أوراق قضيتها، يؤكد معاناتها من ضعف في عضلة القلب، وارتفاع في ضغط الدم، فاعتبرها قاب قوسين أو أدنى من الموت، وآثر ترك مهمة إعدامها لعزرائيل الذي تشير كل الدلائل إلى أنه ليس بعيدًا عنها، وهو ما أثبتت الأيام عكسه، إذ عاشت حنة حتى أمضت نصف مدة عقوبتها، وخرجت إلى الدنيا، مرة أخرى بعد أن صدر قرار عفو جمهوري شملها وسجينات أخريات، بمناسبة عيد الثورة، وربما كان شعورها المتفائل، لحظة سماعها الحكم، وراء تلك الابتسامة الخفيفة التي انفرجت عنها شفتاها، وأغاظت ممثل النيابة الذي ظل، قبل ذلك بوقت طويل، يصفها بأبشع الصفات، وأحطها.

جرى إيداع حنة سجن النساء، حيث استقر بها المقام في عنبر العجائز، والضعفاء، بالقرب من الزنزانة الانفرادية

المخصصة لعزيزة الإسكندرية التي سرعان ما حظيت حنة بمحبتها ورضاها، بعد أن التقتها في اليوم التالي لإيداعها السجن في دورة المياه، أمام حوض غسيل الوجه، وكانت حنة تشب بقدميها محاولة الوصول إلى صنبور الحوض العالي وفتحه دون أن يساعدها جسدها القصير، قصرًا شديدًا، على ذلك، فقامت عزيزة بمساعدتها، وفتحته لها، فشكرتها حنة، وهي تضحك ساخرة، من قصرها الذي طالما جلب لها المتاعب في تعاملاتها مع الناس، وجعلها موضع تندرهم، على الدوام، بل وكان يجعل زوجها يأنف من السير إلى جانبها في الطريق، إذ كانت قامته تميل إلى الطول، فتضطر لأن تسير خلفه بخطوات، حتى المكان الذي يذهبان إليه.

ثم إن عزيزة استلطفتها جدًا، ودعتها لتناول الإفطار، معها في زنزانتها الانفرادية، فلما جاءت حنة، وجلست المرأتان تأكلان ما جادت به الأيام على عزيزة من طعام، كان عبارة عن بقايا مكرونة مقصوصة، كانت جمالات الحرامية، قد أعدتها لعزيزة في اليوم الفائت، بعد أن سرقت علبة صلصة صغيرة من مطبخ السجن، بينما ظلت المرأتان تدفعان بملعقتين حبات المكرونة إلى فميها، وتقضمان البصل

الأخضر، بشهية ونهم، بعد أن غسلته جمالات التي كانت واقفة، آنذاك في ركن الحجرة تنتظر غليان الماء الموضوع في كوز صغير، على السخان الكهربائي الرخيص، ذي الأسلاك اللولبية، لتعد الشاي الكشري الذي تفضله عزيزة، ولا ينفعها من وجع الدماغ عند الصباح سواه، وبينما كانتا تأكلان برضا وانشراح، حكت حنة لعزيزة ببساطة وسلاسة شديدتين، وكأنها تحكي قصة فيلم سينمائي ممتع شاهدته منذ وقت قريب، حكايتها مع زوجها التي قادتها في النهاية، إلى سجن النساء، وذلك دون أن تداخلها لحظة ضيق، أو شعور واضح بالندم، بل إنها بدت، وهي تقص تفاصيل هذه الحكاية، كما لو كانت سعيدة جدًا، إذ ظلت تبتسم بين الحين والحين، كاشفة عن أسنانها المتراصة البيضاء الجميلة، ليس بسبب أي شيء سوى أنها أسنان صناعية، تحمل ابنها الصغير نفقات صنعها عند واحد من أشهر معامل تصنيع الأسنان في الجمهورية كلها، وقد استطاعت حنة أن تشد عزيزة إلى حكايتها المثيرة، وكذلك جمالات التي كانت تستمع إليها بشغف شديد، لأنها تستحق ذلك أولاً ثم لتحفظ تفاصيلها فتحكيها لصديقاتها في عنبر الجرب، بعد ذلك، لتزجية

الوقت، وصرع الملل، كانت جمالات منتبهة إلى كلام حنة، سارحة بفكرها فيه، لدرجة أن الماء غلى غلياناً شديدًا، ولم تنتبه إليه إلا عندما سال وانسكب على السخان الصغير، محدثًا صوتًا واضحًا، لتبخره السريع، بفعل الحرارة الشديدة التي كانت عليها الأسلاك اللولبية الرفيعة التي وصلت إلى حد التوهج بالاحمرار.

اكتشفت حنة، وهي تحكي حكايتها لعزيزة التي تعتبر أول إنسان باحت له بها، منذ أن قتلت زوجها، حقيقة لم تفطن إليها، طوال سنوات عمرها الطويلة، وهي أنه كان يجب عليها التخلص من ذلك الزوج الذي عاشرته حوالي خمسًا وأربعين سنة، قبل أن تقدم على قتله، ولعل من محاسن الصدف – التي لم تدركها أبدًا – بالنسبة لها، أن اكتشافها، لهذه الحقيقة، تم بعد أن كانت قد بلغت من الكبر عتيًا، فلو أنها قتلت زوجها في سن أبكر كثيرًا، من العمر الذي هي فيه، فإن هيئة المحكمة التي راعت اعتبار السن بالنسبة لحالتها، لم تكن لتوكل مهمة إعدامها لعزرائيل، لأنها كانت على الأغلب، سوف تحكم عليها بالإعدام، أو على الأقل، بالسجن المؤبد، كما يحدث في هذا النوع من الجرائم.

كانت حنة مستعدة لقص حكايتها، ليس على عزيـــزة فقط، ولكن على أية امرأة أخرى، غيرها، إذا ما طلبت منها ذلك، حتى لو لم تكن على علاقة حميمة بها، أو ارتاحت لها، وحاولت التعرف عليها، مثل عزيزة، لكنها لم تكن على أقل استعداد لأن تتكلم مع أي رجل، مهما كان قريبًا منها في هذا الموضوع، حتى لو كان واحدًا مـــن أبنائهـــا، أو محاميهـــا الخاص، أو قاضي المحكمة نفسه، حتى لو قـــرر أن يحكـــم عليها بتقطيعها قطعًا صغيرة، ورميها للكلاب في الشـــارع، لأنه من المستحيل بالنسبة لها أن تحكي واحدة مثلها، تربـــت تربية مهذبة، فاضلة، عن أمور خاصة، سرية، تتعلـــق بمـــا يحدث بين الرجال والنساء، عادة في غرف النوم، وحتى مع النساء أنفسهن، ما كانت بمستعدة أن تفتح فمها بكلمة واحـــدة في هذا النوع من المسائل، مع أية واحدة منهن، قبل قيامها، بحادثة القتل، مهما بلغ الأمر بها من ضيق وزهق، ورغبـــة في الفضفضة عما بداخل النفس، أما الآن، وبعد أن انتهى كل شيء، وأخذ كل نصيبه من الدنيا ، فانتهى زوجهـــا نهايتـــه المكتوبة، والمقدرة له عند الرب، وبات مستقرها فـــي ذلـــك السجن النسوي بعالمه الغريب، فقد تساوى كل شيء بالنسبة

لها، وهي لا تجد ما يمنع من قص حكايتها، من طـق طـق لسلام عليكم، لكل واحدة تسأل عنها، لأنها لن تخجـل ولـن تستحي من امرأة مثلها، لديها بجسدها ما بجسد حنـة ذاتـه، ولها مشاعر لا تختلف عن مشاعرها كثيرًا، فتستطيع أن تفهم وتحس وتقدر ما عانته في حياتها، ولم تستطع التعبير عنـه، قط في حياة عين زوجها الراحل.

حكت حنة لعزيزة عن شراهة زوجها لجنس النسـاء التي اكتشفتها، منذ ذلك اليوم البعيد الذي زفت فيه إليه، وهي الشراهة المجنونة التي دفعته لأن يضاجعها في ليلتها الأولى معه، تسع مرات متواليات، رغم الآلام الفظيعة التي عانتها، فجعلتها تتوسل إليه أن يكف عن ذلك الفعـل المـؤلم الـذي يجعلها تشعر أنها على وشك الاحتضار، لكنـه، بـدلاً مـن الاستجابة لتوسلاتها المعذبة، واصل إغارته عليها، مرة تلـو أخرى، حتى طلع فجر تلك الليلة، بينما كانـت آلامهـا قـد وصلت إلى درجة اضطرتها لتمضية ساعة كاملة جالسة في وعاء واسع مملوء بالماء الدافيء، بعد أن أضافت إليه نصف ملعقة من الملح، حتى تخفف من شعورها بالألم الذي امتزج برغبة حادة في النوم، تغلبت عليها، فسـقط رأسـها، علـى

صدرها، وراحت في سبات عميق، وهي جالسة في ذلك الوعاء، دون أن تشعر.

في ظهيرة اليوم التالي، عندما جاءت أمها وأبوها، مصطحبين إخوتها الصغار، لتهنئتها بحلول نهار اليوم الأول على استقرارها في منزل الزوجية السعيد، فقد ودت أن تبصق عليهم جميعًا، وأن تضرب أمها التي اعتبرتها، آنذاك المسئولة الأولى عن أكبر جريمة عرفتها البشرية، إذ كانت وراء تزويجها من ذلك الفحل المعجزة الذي هو بحاجة، ليس إلى امرأة واحدة فقط، بل إلى قطيع من الإناث، ليقفز عليهن طيلة الوقت، مثل الديك وسط الدجاجات في الحظيرة، لكنها عوضًا عن فكرة البصق والضرب التي ربما كانت قد أتتها تحت تأثير كئوس الخمر التي أجبرها الزوج المفاجأة على تجرعها، غصبًا عنها، ومازال تأثيرها يفعل فعله في رأسها، عوضًا عن ذلك الأسلوب غير المهذب الذي أوشكت على الوقوع فيه، مع أهلها الذين هم أقرب إليها من حبل الوريد، وأمها التي حملتها في بطنها تسعة أشهر، تماسكت وكظمت غيظها، دون أن تعفو عنهم، وراحت ترسم على شفتيها، ابتسامة فرح، كاذبة، تليق بمعاناة عروس في مثل حالتها عند

النهار الأول لزواجها، إذ كانت قد أيقنت أن الفأس وقع في الرأس، وأنها أصبحت أمام الناس، وعند الدولة، وبمعرفة أهلها زوجة لذلك الرجل الذي يطفح وجهه بشرًا وسعادة وهو يستقبل عائلتها بترحاب ومودة، باعتباره زوجًا لابنتهم، يستقبلهم في بيته الزوجي للمرة الأولى.

تحاملت حنة على نفسها، وأعدت مائدة الغداء الذي كانت أمها قد طبخته لها بنفسها، وأحضرته معها حرصًا على راحتها، وعلى عدم إزعاج الزوج الجديد، لكن وبينما كان الجميع يستمعون إلى تمثيلية من التمثيليات الشيقة التي كانت تبثها الإذاعة آنذاك، قام زوجها، من بينهم، ودخل غرفة النوم، ثم نادى على حنة منها، فلما ذهبت إليه، أغلق دونهما الباب، وباغتها بجولة سريعة، اقتنصها من وقت الضيوف الذين كانوا ما يزالون منصتين إلى التمثيلية، لكنهم سرعان ما تنبهوا لغياب الزوجين في غرفة نومهما، فأحسوا بثقل وجودهم الذي بدا في نظرهم، غير مرغوب فيه، وهبوا راحلين، بعد أن أرسلوا بتحياتهم وتمنياتهم الطيبة للزوجين السعيدين،وتركوا مبلغاً من النقود في مظروف ورقي صغير،

فوق المذياع الذي نسوا أن يغلقوه، وذلك كهدية بسيطة للعزيزين في صبيحة زواجهما.

منذ ذلك الزمن البعيد، وطوال سنين طويلة، ظلت حنة، مطية تحت الطلب لزوجها، آناء الليل، وأطراف النهار فقد كان يباغتها، أحيانًا بعودته من العمل، مبكرًا عن الوقت المعتاد لرجوعه، كل يوم، عندئذ، كان عليها أن تترك، على وجه السرعة، ما بيدها من أعمال منزلية، أيًا كانت وتتوجه إلى الفراش، لذلك طالما احترق طعام، كانت تعده لوجبة الغداء في قدرة على النار، وسقطت رغمًا عنها قطع غسيل صغيرة، كانت تلمها أو تنشرها على الحبال بعد غسلها، لارتباكها وعجلتها، لتلحق به في السرير، ورغم أنها ما لبثت أن أنجبت له ثلاثة صبيان النظرة في الواحد منهم تشرح القلب الحزين، إلا أن ذلك لم يصرفه عن طلب المتعة المنشودة في جسد حنة الضعيف، فكانت تترك رضيعها يصرخ طالبًا الرضاع منها، بينما هي مشغولة بأبيه الذي هو بحاجة لتلبية رغباته أيضًا، والمشكلة أن ذلك الأمر، كان يلتهم ساعات يوم حنة التي أصبح شعارها، كشعار أي تلميذ في فريق الكشافة:

"كن مستعدًا"، لأنها كان يتوجب عليها أن تؤهل نفسها التأهيل المناسب، لذلك النوع من المطالب الزوجية، فتستحم، وتتزين واضعة الكحل في عينيها، والمساحيق على وجهها، كاشفة عن أكبر مساحات ممكنة، من ذراعيها وصدرها الذي كان عليها أن تترك شعرها الأسود الجميل يتهدل عليه ليضفي عليها شكلاً يجعلها أشبه بمهرة صغيرة، ولدت منذ زمن قصير، كل ذلك لتبدو، كما يريد أن يراها دائمًا، مثيرة للرغبة، وعلى حال تبدو معه وكأنها واحدة من بائعات الهوى في علبة من علب الليل المنتشرة بالمدينة، وليست زوجة من ربات الخدور، وأمًا فاضلة لا تغفل عينها عن أبنائها، إلا عندما تكون مضطرة للانشغال بذلك الزوج المشكلة.

أدى كل ذلك في النهاية، إلى أن تضرب حنة عرض الحائط، بكل التعليمات والنصائح الأمومية التي تلقتها قبل الزواج، وبعده بشأن العناية بالبيت، والحفاظ على جماله، وهي النصائح التي طالما تمنت أن يسنح لها الوقت لاتباعها، مما جعل الشقة في النهاية، تتحول إلى ما يشبه نزلاً للعابرين، بدلاً من أن يكون بيتًا، للإقامة العائلية المريحة.

ثم إنها كانت تحرص دومًا على ألا تكون مجهدة، أو ملطخة بالأتربة والأوساخ، إذا ما قامت بعمليات الكنس والتنظيف، وقد كان أي زائر عابر للبيت، يلحظ التناقض الغريب بين عناية امرأته بزينتها، ونظافتها الشخصية، وبين تلك الكميات المتراكمة من الأتربة على المرآة البلجيكية الصنع، ذات الإطار الذهبي الجميل الذي ضاعت تفاصيل نقوشه الدقيقة، لكثرة ما استقر عليه من أوساخ، وعفار غطى كل شيء بالحجرة، حتى ريشات الطاووس الخمس في مزهرية الصيني الكحلية الموضوعة على المنضدة ذات السطح الرخامي، والأرجل المذهبة المنتهية بإطار على شاكلتها، يحوط ذلك السطح، أما المطبخ، فقد كانت عناكب السقف، والصراصير المستوطنة لشقوق دواليبه الخشبية، استيطانًا مطمئنًا، لا تكدر صفوه غارات نظافة دورية، أو مبيدات حشرية قاتلة، تشهد على مدى قلة اهتمام ربة المنزل بذلك المكان، وعلى وضعه في مؤخرة أولويات مهامها العملية التي كان على رأس قائمتها، تمكين الزوج منها وتهيئة الظروف المناسبة لممارسة نشاطه اليومي المعتاد في أي وقت من الأوقات.

لقد حاولت حنة في حدود استطاعتها الإقلال من اندفاع الزوج في شهوته الطاغية، بأساليب مختلفة، فعندما كان أولادها صغارًا كانت تصحبهم في زيارات طويلة إلى بيت أمها، تمتد من أول النهار وحتى حلول المساء، على أمل أن تقتل الوقت بعيدًا عن حصانها الجامح، لكنه عندما كان يجدها، قد غابت نهارًا بكامله، وهو أكثر مما يمكن احتماله، من وجهة نظره، كان يلاحقها إلى حيث تكون، ويعود بها إلى البيت، بسرعة بل إنه في إحدى المرات لم يطق صبرًا، بانتظار عودتهما إلى بيتهما، فسحبها إلى حمام بيت أمها وأغلقه عليهما دون أدنى شعور بالحرج من أطفاله الذين ظلوا يصرخون خلف الباب لفرط انزعاجهم من دخول والديهما إلى ذلك المكان سويًا، وهو ما لم يعتادوه قبل ذلك، ولحسن الحظ فإن أمها كانت خارج البيت آنذاك، وإلا لكانت حنة قد تعرضت لحرج شديد وفي محاولة أخرى، قررت حنة تلهيته بلعب الورق، أو النرد في الأمسيات التي كان يحرص على تمضيتها إلى جوارها في البيت، لكنها فشلت في ذلك أيضًا فشلاً ذريعًا، إذ أنه كان يفضل قتل الوقت بلعبته الأساسية المفضلة، ثم إنه لما كبر الأولاد، وزادت

مطالب الحياة التي لم يعد من الممكــن مواجهتهــا براتبــه الصغير فقط، ابتاعت ماكينة تريكو بالتقسيط، وظللت تتذرع بانشغالها بها ليلاً، عندما كان يطلبها في الفراش، لكنه فــي لحظة من لحظات غضبه، وحنقه الجــامح عليهــا، بســبب انصرافها عنه إلى الماكينة – الغريم، قام بتحطيم تلك الماكينة التي كانت للأسف، صناعة يابانية ضعيفة، من ذلــك النــوع الرخيص الذي اكتسحت به اليابان أسواق البلدان المتخلفــة، ونجحت في سحب السجادة من تحت أقدام الخواجــة ســنجر وشركاه.

ومثلما فشلت خططها في لعــب الــورق والنــرد، وماكينة التريكو الذين استعاض عنهم، جميعًا، بالفرجة علــى مجلات جنسية فاضحة، حتى يتمكن من تجريب، وابتكــار، أساليب مضاجعة جديدة، مع حسنائه الكبيرة فشــلت أيضــا محاولتها في تقليل مرات اتصاله بها، عــن طريــق وضــع أقراص منومة له في كوب اللبن المحلى بعسل النحل والذي كان حريصًا على شربه كل مساء، فرغم أنه كان يرقد بعــد ذلك كجثة هامدة، حتى صباح اليوم التــالي، إلا أنــه كــان بمجرد أن يفيق ويعي الدنيا حوله، وقبل أن ينطــق، حتــى

بتحية الصباح، كانت يده تمتد لتحسس جسدها، شارعًا في الانقضاض عليها، مستفيدًا من ساعات نومه العميق، وجسده المستريح المسترخي، طيلة الليل.

المرة الوحيدة التي شعرت فيها حنة أن مشكلتها مع هذا الزوج قابلة للحل، ولو إلى حين كانت عندما جرى نقله من عمله إلى مدينة ساحلية بعيدة، تفصلها عن القاهرة، عدة ساعات بالقطار، ولكن سرعان ما خاب ظنها، إذ أنها بعد أسبوع واحد فقط من النوم الليلي الهادئ الذي لا تنغصه هجمات مفاجئة، عادت حنة لمعاناتها الأولى، فلقد نجح الزوج في العودة إلى مقره الأول في العمل بعد أن دفع رشوة، كانت تشكل نصف ما ادخرته طوال سنتين لشراء تلفزيون، كسائر الجيران، لأنها الوحيدة في العمارة التي يسكنون بها التي لم يكن بشقتها تلفزيون. بعد ذلك، أيقنت حنة أن لا فائدة، واعتبرت حالة زوجها ميئوسا منها، بل هي المقدر والمكتوب، على لوحها المحفوظ في السماء، قبل أن توضع بذرتها في رحم أمها، لأن لكل مخلوق – كما قالت لها أمها ذات يوم، لوح محفوظ عند الله، مكتوب فيه، كل ما كانه وما سيكونه، منذ ابتداء خلقه، وحتى مماته، ورغم أنها

كانت تتمنى حدوث معجزة، تجعل زوجها – يمرض مرضًا يقعده عن واجبه الزوجي الزائد عن الحد، أو يصاب بعاهة مستديمة تجعله يكف عنها، إلا أنها كانت أحيانًا تحاول مواساة نفسها، لأن مصيبتها كانت ستكون أكبر وأشد، لو أن زوجها كان من ذلك النوع من الرجال الذي يلجأ إلى نساء، غيرها، فهو موظف صغير، محدود الدخل، ولولا قدرتها على التدبير والاقتصاد، لما سارت بأسرتها عجلة الحياة براتبه الضئيل، ولعله لو كان عيل إلى معرفة امرأة غيرها، لكان ولابد سيقطع جزءًا من دخله، للإنفاق على هذه المرأة، سواء فيما يتعلق بالهدايا، أو الخروج والدخول معها، مما كان سيشكل خطرًا، يهدد استقرار حياتها العائلية الآمنة.

في النهاية، يئست حنة، بعد أن اقتنعت أن مشكلتها من ذلك النوع الذي لا يحله إلا الزمن، لكنها عندما تجاوزت الخمسين، أدركت خيبة ظنها، فرغم بلوغها هذه السن التي وضعتها على أعتاب الشيخوخة، وزواج أبنائها الثلاثة، ومغادرتهم البيت إلى بيوت الزوجية، فإن آية الإعجاز الحسي – هذا – التي هبطت على حنة، زادت مطالبه الزوجية، على اعتبار أنه انتهى من هم العيال، وبات متفرغًا

لعلاقته بها من جديد، الأكثر من هذا أنه أصبح يجلب لها مساحيق التجميل، والعطور، وقمصان النوم العارية التي تليق ببنت بنوت ليلة زفافها، طالبًا منها ارتداءها طيلة الوقت، مستفيدًا بذلك من الزيادة التي تطرأ على مرتبه بين الحين والحين، وتخففه من عبء الإنفاق على أولاده، بعد أن كبروا وباتوا متحملين لمسئولية أنفسهم، وكان ما يزيد من غيظها منه، وحنقها عليه، هو مطالبته اللحوح، لها أن تترك شعرها منسدلاً على كتفيها، ما عدا غرة صغيرة منه، تجعلها على جنبيها، لتبرز فتنة وجهها، ولما كان شعر حنة، قد بات خفيفًا منحولاً، بسبب الحمل والرضاع، ومرور الأيام وكثرة الصباغ والشد على لفائف، منذ أن أصبحت شابة تطلب للزواج، فقد حاولت إقناع زوجها، بأنه لا داعي للغرة، بل من الأفضل والأريح لها أن تقصه عند حلاق النساء، بطريقة مناسبة تتلاءم مع الطبيعة الحالية لهذا الشعر، وظروف سنها، لكنه أبى ذلك بشدة، مدعيًا أنه سيشتري لها، من عند عطار كبير معروف بشطارته، مجموعة زيوت مقوية لجذور الشعر. الأكثر من هذا، أنه رفض رفضًا قاطعًا، أن تخلع عند النوم أسنانها الصناعية التي كانت قد استعاضت بها عن

أسنانها الطبيعية، بسبب نخر السوس والالتهاب المزمن الذي عانت منه منذ طفولتها في لثتها فقد كان ذلك الزوج الذواقة، لا يحب أن يقبل فمًا خاويًا من الأسنان، إذا ما رغب في ذلك في أي وقت من أوقات الليل، مما جعل حنة تنام نومًا متقطعًا قلقًا، بسبب مخاوفها من أن تغيب في النوم فتبتلع فكًا من فكيها أثناء ذلك، أما المسألة التي باتت تثير حقدها عليه بالفعل فهي إصراره الدائم على مضاجعتها، وهي عارية تمامًا، حتى في أقسى ليالي الشتاء برودة، خلال شهر طوبة، وكان أقصى ما يسمح به لها، بعد توسلها الشديد هو أن ترتدي جوربًا من جواربه القديمة في قدميها، لتدفئ أصابعها التي تكاد أن تتيبس من شدة البرد.

تحملت حنة كل هذه السخافات، والمضايقات الزوجية الشنيعة، لأنها لم تجد ما تفعله إزاءها، بل وكانت لا تستطيع أن تحكي عنها لأي مخلوق آنذاك، لأنها كانت مستوعبة جيدًا لدرس الحياة الزوجية الأول الذي لقنتها إياه أمها قبل الزواج، وهو أنه لا يجوز مهما كانت الأسباب الكلام عما يدور داخل حجرة النوم، خارج جدرانها، حتى لأقرب المقربين للإنسان، بما فيهم الأم، ذاتها، لذلك فإن حنة، طوال حياتها الزوجية

الطويلة، لم تناقش متاعبها الزوجية الخاصة، مع أي كـــائن كان، بما في ذلك أختيها، وأمها نفسها، بل وكانت فيما بعــد تتحمل على مضض همزات ولمـــزات وتعليقـــات زوجـــات أبنائها المبطنة بالسخرية، عندما كن يأتين لزيارتهـــا، وتقـــع عيونهن بالصدفة على ملابسها الداخلية الوردية، والحمـــراء، أو على تلك القمصان الحريرية الناعمة المخصصة للنـــوم، والتي تكشف كامل الذراعين، والجزء الأكبر من الصدر عند ارتدائها، لأنهن كن على الأغلب، ورغم كونهن شابات فـــي عز شبابهن، يكتفين بارتداء تلك الأنواع القطنية، ذات الطابع البسيط العملي الاستخدام، والتي تنحو نحو التحفظ والاحتشام.

بعد أن بلغت حنة الستين، بدأت في حركـــة تمـــرد وعصيان لمطالب هذا الزوج الذي لا يهدأ أبدًا، لأنها كانـــت ترى أن الحكومة نفسها، وهي التي لا تعرف الرحمة أبـــدًا، تحيل الموظف أو العامل إلى التقاعد عند بلوغه هذا العمـــر، وأنه يحق لكل إنسان أن يحيا بسلام وهدوء في هذه المرحلة المتقدمة من حياته، ثم إن الحكومة تعطي معاشاً لمن تركهـــا في هذه السن، أما هي فلا ترغب في أي شـــيء، ســـوى أن يتركها ذلك الزوج في حالها، فتستمتع بنوم هادئ أثناء الليل،

وترتدي ما تشاء من ملابس تريحها، دون التقيد برغباته صيفًا وشتاءًا، ليلاً ونهارًا، ثم إنها تريد أن تريح نفسها وترحم وجهها الذي أصبح جلده عجوزًا مكرمشًا، فتقلع عن وضع المساحيق التي باتت، وبسبب رعشة يديها المستجدة عليها لا تقوى على استخدامها بشكل متقن جميل، مثلما كانت تفعل في الماضي لتزيد وجهها فتنة وإشراقًا، وخصوصًا مع تزايد حالة الضعف التي ألمت ببصرها، فجعلتها تضع الكحل بعيدًا عن خط الجفن الداخلي للعين، فيبدو منظرها بعد ذلك غريبًا مضحكًا، حتى أن زوجة أبنها الأكبر، لفتت نظرها إلى ذلك، ونصحتها بالامتناع عن استخدام الماكياج، عمومًا، والكحل، خصوصًا، لكن في كل مرة كانت تناقش هذا الأمر مع زوجها، كان يرفض رفضًا تامًا، إحجامها عما افترض أنه عناية واجبة، بنفسها، وحق من حقوقه الشرعية عليها، بل واعتبر في إحدى المرات التي كررت فيها رغبتها في التوقف عن استخدام المساحيق، أن هذا نوع من الدلال والمناورة منها، حتى تحصل على المزيد من الرعاية والاهتمام منه، لذلك راح يغدق عليها الكثير من العطور، والملابس الداخلية، وكل تلك الأشياء النسائية التي لا لزوم

لمعظمها، كطلاء الأظافر، وكريمات الأيدي والوجه، وزيوت الشعر، وهي الأشياء التي يمكن أن تفتن بها عادة شابة صغيرة مازالت في بداية حياتها الزوجية.

في إحدى المرات، أحضر لها ملبنًا محشوًا بالجوز، باعتباره النوع الأثير، من الحلوى، لديها، على أمل أن ينال رضاها، ولقاءها في الفراش، لكنها رفضت ذلك بشدة، وظلت متشددة في موقفها، دون أن تقرب الملبن بالجوز الذي كانت تتلمظ عليه، وبقيت في مكانها جالسة تشمس على كنبة الصالون في ذلك اليوم الشتوي الدافئ وراحت تقنعه أنهما صارا جدان لعشرة أطفال، هم حصيلة زيجات أبنائها الثلاثة الذين تكفي النظرة إلى الواحد منهم، لغمر القلب بالسعادة والفرح، وأنه من الأجدى، لمن في مثل سنه، أن يتقرب إلى الله بالصلاة والصيام والشكر على تلك السنين الراضية الهنية التي عاشها، والصحة الموفورة التي يتمتع بها، والنسل المبارك الذي من به عليه، ثم إنها دعت له بالتوفيق وصلاح الحال، وسألته أن يسأل الله النهاية السهلة المستورة، والمثوى الطيب في الآخرة، لكن الزوج الطائش اشتعل غضبًا عند سمع هذا الكلام، وقال لها إنه كلام يقصف العمر، ويغم

النفس، ويجعله يشعر بأنه يجب أن يسارع بتجهيز تربته، وأنها تريد أن تحرم ما أحله الله له، ثم إنها جاحدة، لا تقدر النعمة التي خصها الله بها دون سائر النساء اللواتي تتمنى الواحدة منهن، أن يكون لها زوج مثله لذلك فإنها ولابد، ستحشر في نار جهنم، لتذوق فيها عذابًا أليمًا، لكونها لا تطيعه الطاعة الواجبة له، والتي هي من طاعة الله، بل وتدفعه بتمنعها، وابتعادها عنه إلى الانحراف، والسير في طريق الفسق والفجور.

غير أن حنة، ظلت مصرة على موقفها، رافضة الاستجابة لمطلبه الخاص بمرافقته في الفراش، بل وراحت تهدده بأنها ستشرب سمًا، وتقتل نفسها، إن هو حاول الاقتراب منها، والحقيقة أن الدافع الأكبر لموقفها، هذا، كان سببًا طبيعيًا دفعها إلى رفض حدوث ذلك الأمر بينها وبين زوجها تمامًا، إذ أن جسدها القصير الضئيل، أصلاً، انكمش كثيرًا، وبات أكثر ضآلة في سنوات شيخوختها الأخيرة، ولم يعد قادرًا على تحمل ثقل سبعة وثمانين كيلو جرامًا من اللحم البشري، هي ما آل إليه وزن الزوج، آنذاك، وعندما كانت تواجهه بهذه الحقيقة أيضًا، كان يتحول غضبه إلى بكاء

مرير، متهمًا إياها بأنها باتت تكرهه، وتعيره بما أصبح عليه حال جسده من سمنة وترهل، بعد أن كان رشيقًا، ممشـوقًا، قويًا، كعود الخيزران، ثم إنه كان يأخذ عندئذ في نعي حظـه العاثر الذي أوقعه في زوجة مثلها، لم ير معها يومًا واحـدا حلوًا في حياته، فهي نكدة، معقدة، خالية من الأنوثـة، كـان الأليق بها ألا تتزوج وأن تلتحق بدير مـن الأديـرة مـدى الحياة.

ولما صارت حنة في كل مرة تحدث بينهما مثل هذه المشاحنات، تبدو كصخرة لا تتزحزح من مكانها، ولا ترجع في قرارها العنيد الذي لا يضعف حتى عند سقوط دموعـه الحارة، ابتدع أسلوبًا جديدًا للضغط عليها، فأخـذ يشـتكيها لأبنائها، قائلاً لهم إنها تتفنن في إيلامه وتعذيبه، وإنها باتـت تهمله ولا ترعاه، وتمضي معظم وقتها في الاسترخاء والنوم، ولم يتطرق بالطبع إلى علاقتهما الخاصة لأنه كان، كحنة قد استمع جيدًا إلى دروس أبيه في هذا الجانب أيضًا مكتفيًا بأن يفهم أبناؤه ما بين السطور في كلامه لهم لكـن الأبنـاء لـم يفهموا ما قصده أبوهم، أبدًا، لأن عقولهم كانت منصرفة عن مثل هذه الأمور، باعتبارهم يقومون بالكاد بواجباتهم الزوجية

المتعلقة بالجزء السفلي من الجسد، بسبب الإرهاق الذي يعانون منه كغيرهم في مواصلات المدينة، وكافة جوانب حياتهم اليومية المنهكة للقوى، مما يجعلهم يعودون إلى بيوتهم، آخر كل نهار، متعبين إلى الحد الذي لا يتمنون معه إلا الدخول إلى السرير، للنوم، وإراحة أجسامهم المكدودة، ثم لأنهم كانوا يظنون أن علاقة أبيهم الخاصة، بأمهم في هذا الجانب، قد انقطعت منذ زمن طويل.

بعد أن جرب الزوج كل وسيلة تجعل حنة ترعوي وتثوب إلى رشدها، فتلبي مطالبه الزوجية، وأيقن أنه لا جدوى معها أبدًا، بالأساليب السلمية التي صدت كل باب في وجهها، والتي كان منها أنه اصطحبها إلى حديقة الحيوان مرة، ومرة أخرى إلى السيرك القومي الذي لم تكن قد رأته على الطبيعة أبدًا، ثم إنه دعاها للعشاء على فتة كوارع بالحسين، وبعد أن عدم كل طريقة من الطرق الممكنة التي تجعله مقبولاً، مرغوبًا، من وجهة نظرها، اضطر للجوء إلى الجفاء والقسوة، وخصوصًا وأنها تجاهلت جهده في الاعتناء بهندامه وصبغ شعره الأبيض بالأسود، وحرصه على حلاقة ذقنه وتهذيب شاربه، ورش نفسه عند كل خروج، ودخول،

بكولونيا "ثلاث خمسات" التي يمكن استخدامها لتطهير الجروح، لاحتوائها على نسبة مرتفعة جدًا من الكحول الأبيض النقي، وبات يشتمها ويثور في وجهها لأسباب بسيطة، وعادات هي سيئة في الحقيقة، لكنها لا تستحق كل هذا التجريح، مثل كونها تعيد عيدان الكبريت، بعد إشعالها، إلى العلبة مرة أخرى أو أن تصر على شرب الحلبة الحصى المغلية وهي جالسة في السرير واللحاف فوقها، صحيح أنه لم يضربها أبدًا مثلما يفعل أزواج كثيرون مع زوجاتهم، لكن تلك الإهانات التي باتت تسمعها حنة موجهة لها، صارت تؤلمها وتؤذي مشاعرها إلى أقصى حد، بل إنها صارت تستفز وترد عليه وهي التي لا تحب ذلك أبدًا، لأن احترام الزوج واجب غير أن كيلها طفح، خصوصًا عندما أصبح يسخر منها ويقول لها إنها قصيرة كيد الهاون، ويحاول إغاظتها أمام أحفادها الصغار، عندما يأتون لزيارتهما، فيحكي لهم حكاية السيدة القصيرة التي لديها مقشة بيد قصيرة، وسريرها بأرجل قصيرة، وناموسيته قصيرة، وحنفيتها بخرطوم قصير، وكيف اشتكت للقاضي ذات يوم، وهو جالس يحكم بين الناس، من ذبابة ضايقتها وسقطت في

طبق العسل الذي كانت قد وضعته لتأكل منه، فما كان منـــه إلا أن أعطاها منشة، ذات يد طويلة، وقال لها: كلما رأيــت ذبابة نشيها، وبينما هي جالسة أمامه تنظر إليه، إذ رأت على عمامته البيضاء الضخمة ذبابة تقف في اطمئنان، فما كـــان منها إلا أن سارعت برفع المنشة، وهوت بها علـــى رأســـه فغضب منها غضبًا شديدًا، لأنها آلمته، وجعلت الحاضـــرين يضحكون عليه، فأمر بمدها في الفلقة، وضربها على قدميها عشرين ضربة، حتى لا تفعل ذلك مرة أخرى، وتكون عبرة لكل من لا يعتبر.

الشيء الذي لم تتصور حنة أن يصدر في حقها مـــن زوجها في أي يوم من الأيام، كان اتهامه لها ذات مرة، بأنها تبتسم في دلال لبائع الفول المدمس الجوال الـــذي يتعـــاملان معه منذ زمن بعيد، وقال إنه كان، ولابـــد، يغازلهـــا وهـــي تستجيب لغزله بتلك الابتسامات الناعمة التـــي رآهـــا علـــى وجهها بنفسه، فلما شرحت له أن البائع، كان يقـــص عليهـــا حكاية الولد الصغير الذي خدعه، وأعطاه عملة ليبيـــة علـــى أنها مصرية، من فئة العشرة قروش، فابتسمت لشقاوة الولد، وقالت للفوال يعوض الله عليك، لكن الـــزوج لـــم يصـــدقها

وتوعدها بقطع يدها، إن رآها تمتد، مرة أخرى، بأي طبق لبائع الفول، مهما كان الأمر، مفضلاً، بذلك، تحمل مشقة الذهاب إلى مطعم بعيد عن شارعهما لشراء الفول كل صباح.

ثم إنه بعد ذلك امتنع نهائيًا عن شراء الملبن بالجوز الذي تحبه حنة، ومنع عنها المصروف الشخصي، باعتبارها زوجة متمردة سادرة في غيها، دونما شفقة أو رحمة، منها تجاهه، فباتت تجد صعوبة في شراء الحلوى الرخيصة، والهدايا الصغيرة التي كانت تشتريها لأحفادها، من ذلك المصروف المقرر لها شهريًا، وفي السنتين الأخيرتين اللتين سبقتا قتلها له، بدأ الزوج في عزف نغمة جديدة على حنة تمامًا، وهي أنه بصدد البحث عن امرأة أخرى بدلاً منها، وأنه سوف يقوم بطردها من البيت.

لم تكن فكرة المرأة الجديدة هي التي أرعبت حنة، رغم ضيقها الشديد منها، ولكن رعبها كان مبعثه فكرة الطرد، لأنها لم تكن تعرف مكانًا آخر يمكنها العيش فيه غير بيتها الذي عاشت بين جدرانه على الحلوة والمرة خمسًا وأربعين سنة، ولأنها لا يمكن أن تلجأ لأحد أبنائها للعيش

عنده، فالأكبر منهم، يقيم في شقة صغيرة مكونة من غرفتين ومنافعهما، ولديه ولدان وبنتان، يكفيهم المكان بالكاد، إضافة إلى أمهم، وأبيهم الذي اضطر لتحويل الشرفة الملحقة بغرفة نومه مع زوجته، إلى مكـان لنـوم البنتـين، لأن الحجـرة الأخرى كانت مخصصة لنوم الولدين، أما الأوسـط، فهـو يعيش مع زوجته في إحدى الغرف ببيت أهل هذه الزوجـة، وحياته، باتت جحيمًا، بسبب تلـك المعيشـة المشـتركة، إذ تتدخل حماته في كل كبيرة وصغيرة، مـن تفاصـيل حيـاة ابنتها، وترصد دومًا كل ما يدور بينها وبين زوجهـا الـذي يبذل جهدًا كبيرًا لئلا تفسد الحماة ما بينـه وبـين امرأتـه، فيضطر لفراقها، أما الصغير فزوجته لا تطاق وهي لا تطيق أهله، كذلك، ثم إنها متكبرة، تعامله باستعلاء، لأنها هي التي حلت مشكلة المسكن، وأنفقت على تأثيـث شـقة الزوجيـة الشطر الأكبر، من النفقات، من مدخراتها الخاصة، بالإضافة إلى إسهامها بشكل رئيسي في دخل الأسرة، بسبب اشـتغالها في فندق سياحي، بينما زوجها ليس إلا مهندسًا مغمورًا فـي إحدى المصالح الحكومية كل هذه الأسـباب، كانـت تجعـل

إمكانية لجوء حنة إلى أي واحد من أبنائها، وإقامتها عنده ضربًا من المستحيل.

في الأسابيع الأخيرة التي سبقت قتل حنة لزوجها، باتت شبه مجنونة يلتهمها القلق، فقد أصبح الزوج العجوز يتغيب كثيرًا عن البيت خلافًا لعادته، وعندما يظهر، يحادثها في أضيق الحدود، وبجفاء واضح، كما أنه امتنع عن مشاركتها الطعام، أو الجلوس للفرجة على مسلسل السابعة والربع في التليفزيون، فلم تكن المسألة كما ظنت بحاجة إلى ذكاء كبير، لتستنتج أن زوجها لا بد وأن يكون قد ارتبط بامرأة أخرى، وبالتالي، فإن مسألة بقائها في البيت، أصبحت مسألة وقت فقط لا غير لكن الحقيقة أن حنة التي لم تكن قد درست أبدًا نظرية الاحتمالات لأن تعليمها توقف عند السنة الخامسة الابتدائية، لم تعرف أبدًا أن الزوج كان يمضي جل وقته خارج منزله في الفرجة على أفلام جنسية فاضحة، عبر جهاز فيديو، عند صديق تعرف عليه في المقهى، وذلك مقابل خدمات صغيرة، أو هدايا محدودة، كان يقدمها لذلك الصديق.

غير أن الترجيح المطلق لمسألة المرأة الأخرى عند حنة، كان كفيلاً باستعار نار حامية في صدرها، وتصاعد

قلق حطم أعصابها، لأن ذلك كان معناه الإلقاء بها في الطريق، بمجرد وصول هذه المرأة، إلى البيت لتحل محلها.

في أحد الأيام، وبينما هي تفتش جيوب أحد بناطيله لتخليها مما بها، قبل أن تغسله، عثرت على صورة امرأة محجبة، لا يتعدى عمرها الأربعين ذات عينين جميلتين، لا تخلو نظراتهما من جرأة وشقاوة وفم شهواني لا يلزمه الطلاء باللون الأحمر لإحداث المزيد من الإثارة، وبمجرد أن تأملت الصورة، ارتمت منهارة على السرير، ولم تنتبه لدبوس المشبك المفتوح الذي شكها في يدها، وهو واحد من دبابيس كثيرة، تجدها عادة في جيوبه، قبل تنظيف ملابسه، كان يشتريها في الأتوبيسات، من الباعة الجائلين الذين يصعدون إليها، ضمن ما يشتريه منهم، من باغات لياقات قمصانه، وأمواس حلاقة، وبلى النفتالين وإبر خياطة، ومطاط لدكك ألبسته الداخلية، وأشياء أخرى عديدة يعود بها إليها، باعتباره من هواة الشراء من هؤلاء الباعة دون سواهم، لا لشيء إلا لاستمتاعه بطريقة نداءهم، لترويج بضائعهم، وهي الطريقة التي تتخللها، أحياناً، قصص مأساوية مؤثرة يحكونها بسرعة قبل سير الأتوبيس، وكذلك أغنيات قصيرة على

غرار أشعر الأغنيات التي تبث دون كلل ولا ملل، من المبنى الضخم الواقع على ضفة النيل، مع تعديل بسيط فيها، وهو أنها أقل تسببًا في وجع الدماغ، لقصرها النسبي وعدم جنوحها للإطالة بحكم ضيق الوقت المتاح لها.

استدعت تلك الواقعة التي هي بمثابة سابقة خطيرة للزوج، أن تفكر حنة على نحو جدي، فيما سوف تفعله لتواجه المصيبة وشيكة الحدوث، لها، فلقد أيقنت تمامًا، أن موضوع المرأة أصبح حقيقة لا شك فيها، لذلك فكرت في البداية، أن تقتل نفسها، وتستريح لكن فكرة الانتحار كانت صعبة التحقيق، بالنسبة لها، لأن روحها صعبت عليها، ثم لأنها لم تفعل شيئًا آثمًا تستحق عليه ذلك، لهذا فكرت في ضرورة التخلص من الزوج، إذ ليس أمامها غير ذلك، على أن يتم الأمر دون علم أي إنسان، غيرها، ودون أن يشعر هو بذلك أولاً وقبل كل شيء.

بعد اتخاذها لهذا القرار الخطير، بدت حنة إنسانة مرحة، تتصرف مع زوجها بهدوء، وتقابل شتائمه لها دون أدنى مبالاة، كما كان يحدث عادة، صحيح أنها ظلت على حالها، لا تسمح له بالاقتراب منها، لكنها كانت تعامله برقة

الحريص على صحته المهتم بشئونه، خشية أن يكتشف ما تنوي أن تفعله به.

في إحدى الأمسيات الشتوية الباردة، قامت حنة بوضع وعاء مملوء بالماء على موقد الغاز، بعد أن استمعت جيدًا إلى شخيره المستمر الشبيه بنقيق ضفدع، والذي طالما تعودته بعد أن ينام، مما أكد لها دخوله في سابع نومة، وفتحت أنبوبة الغاز عن آخرها، وأحكمت إغلاق نوافذ الشقة، ثم تسللت لتقضي بقية الليل في شرفة الصالة، بعد أن تلحفت ببطانية، سميكة، وجلست مستندة بظهرها إلى الباب الذي أغلقته، من الخارج، حتى تضمن ألا يفتح، فيسمح بدخول الهواء إلى الشقة، وباتت ليلتها على هذا الوضع حتى طلوع النهار.

لم يصدق البوليس – كما قلنا من قبل – حكاية وفاة الزوج قضاء وقدرًا، متأثرا باستنشاق الغاز حتى الاختناق، لأنه عندما وصل إلى الشقة، إثر استدعاء عاجل، من جيران حنة، على ضوء صراخها ولطمها، كانت هي بصحة جيدة، ولا تعاني من أية أعراض للاختناق كالإعياء وضعف التنفس، بل وكانت تبدو متماسكة ولم يلحظ رجال البوليس

عليها سوى أنها كانت تكح كحة متقطعة، لسبب لم يكن واضحًا لهم، بالطبع، وهو أنها باتت طوال تلك الليلة الباردة في الهواء الطلق، لكنها كانت أيضًا، تبكي بكاء صادقًا، لشعورها بالحزن، بعد أن فقدت رفيق عشرة لخمسة وأربعين سنة بالتمام والكمال، ولما واجهتها النيابة، بعد ذلك في التحقيق الذي أجرته معها بالمفارقة المتمثلة في حالتها الصحية السليمة واختناق زوجها، رغم وجودها في الوقت ذاته، بالبيت أثناء وقوع الحادث ادعت حنة أنها نامت ليلتها في الصالة التي تبعد عن المطبخ، لأن الزوج الميت، كانت تزعجه كحتها المستمرة، وكاد البوليس أن يصدق هذه الحكاية، لولا اكتشاف النيابة المعاينة للحادث لخطأ ساذج ارتكبته حنة وهو تركها مفتاحي شعلتين من شعلات الغاز مفتوحين بدلاً من مفتاح شعلة واحدة كان موضوعًا فوقها قدر الماء، لأنها على ما يبدو كانت متلهفة على تسريب الغاز بأكبر كمية ممكنة بحيث تكفي للموت في أقل وقت، خشية أن يفيق الزوج، وينتبه، لرائحة الغاز المنتشرة في البيت.

كان من السهل بعد ذلك توجيه تهمة القتل العمد لحنة، لوجود أدلة أخرى عديدة، على ذلك، لم تكن مفاتيح

الغاز إلا مفتاحًا بسيطًا لها، لكن حنة، ظلت طوال الوقت مصرة على أقوالها التي أدلت بها أول مرة، لا تحيد عنها، رغم تضييق الخناق عليها بالأسئلة، والطريف أنها كانت تبدو وكأنها مصدقة تمامًا لروايتها، بل وتغضب بشدة كلما واجهتها النيابة بتهمة القتل، وكأنها تتبلى عليها بشيء لم تفعله قط، وهكذا ظلت طوال فترة التحقيق معها، ومحاكمتها في حالة شديدة من الضيق لشعورها بظلم صارخ، واقع عليها، ولغيظها من النيابة التي ظل ممثلها، أثناء ذلك، يعيد ويزيد في التهم التي كالها لها، مصورًا إياها على أنها وحش بشري عجوز افترس ولي نعمته وأقرب الناس إليه، مخالفًا بذلك كل النواميس الأخلاقية، والشرائع السماوية المقدسة التي تنص عليها كافة الأديان.

لكن حنة بمجرد صدور الحكم، شعرت بارتياح من ألقى حملاً كان يثقل ظهره، وأخذت من خلف القضبان تهدئ روع أبنائها الذين شرعوا في البكاء مطمئنة إياهم بأنها سوف تكون بخير، بل وأخذت توصيهم على الأشياء التي يجب أن يوافوها بها، عند زيارتهم لها في السجن، ومن

ضمنها ملبن محشو بالجوز، وإبرة كيروشيه معقوفة الطرف، وخيوط قطنية من ذلك النوع المستخدم في التنجيد.

كانت اللحظة السعيدة الحقيقية التي شعرت بها حنة منذ مقتل زوجها، هي لحظة استقرارها في عنبر الضعفاء مع عجائز أخريات أصابهن الضعف والوهن، فلقد اطمأنت إلى أن هناك مأوى يؤويها في أمان، خلال البقية الباقية من أيامها في الدنيا، لأنها كانت ترجح الموت، على الحياة، خلال السنين العشر التي حكم أن تقضيها في هذا المكان لكن ذلك لم يمنعها من الحلم بحياة أفضل إذا ما عاشت بعد انتهاء مدة السجن، فكانت تراودها أحلام يقظة بأن تعيد تنظيم أثاث الشقة وفقا لذوقها ورغبتها خلافًا لما كانت قد تركته عليه من وضع وترتيب وفقًا لذوق زوجها، كما أنها فكرت في ضرورة تأجير الحجرة التي مات فيها مفروشة، باعتبارها أوسع حجرات البيت، لطالبة أو اثنتين، من اللاتي يأتين من الأقاليم للدراسة في الجامعة، كما تفعل جارتها التي تسكن في الطابق السفلي بالعمارة، ثم إنها ستأكل كما تشاء وفقًا لذوقها وخيارها في الطعام، بل وستعود من جديد إلى طبخ السبانخ التي توقفت عن طبخها لأن زوجها منع من أكلها بسبب

الالتهاب الكلوي الخفيف الذي يعاني منه، الأكثر من ذلك، هو أنها سوف تشتري لحافًا جديدًا، بدلاً من ذلك القديم المهترئ الذي يعود تاريخه إلى زمن الزواج القديم، ذلك اللحاف الذي ترجت الزوج مرارًا أن يعيد تنجيده وتجديد كسوته دون جدوى.

أثناء ذلك، كانت عزيزة تضع خطة أخرى لحنة، خطة أجمل وأعظم من خططها الدنيوية الصغيرة، فهي ستصحبها معها إلى السماء، ستضمها إلى العربة الذهبية ذات الأفراس البيضاء السحرية المجنحة التي ستطير وتعلو، بينما تعزف لها آلهة الموسيقى والطرب، ألحانًا كتلك الألحان التي سمعتها ذات يوم بعيد تعزفها فرقة الجيش الموسيقية بمدينتها، وهزت أعطافها، وعندما تصبح العربة وسط السحاب، وتتهادى على صفحات الأثير، سوف تنسى حنة السبانخ واللحاف والزوج الذي قتلها ألف مرة طوال خمس وأربعين سنة، ولم تقتله إلا مرة واحدة، وستعرف وقتها كم تحبها عزيزة وتقدرها، وتسعى لأن تجعلها تحظى بكل سعادة، وتكريم يليق بها وتستحقه، باعتبارها واحدة من أولئك المظلومات بسجن النساء، بل الأكثر أنها سوف تجلسها إلى

جوار عظيمة الطويلة التي هي أنبل وأجمل امـرأة عرفتهـا عزيزة طوال فترة إقامتها في هذا السجن.

وللوهلة الأولى، تحدث لأي إنسان تقع عيناه علـى عظيمة الطويلة صدمة مفاجئة نظرًا لغرابة منظرها، حتى أن مأمور سجن النساء ارتبك عندما رآها للمرة الأولى، بينمـا كان يستلمها لتصبح إحدى نزيلات السجن المسئول عنه، بل إنه خرج عن تحفظه الوظيفي وراح يسألها عن سر طولهـا الغريب.

وبالطبع لم تجب عظيمة إجابة شافية، لأنها لم تعرف أبدًا سر طولها، فهي طفرة طولية بين النسـاء، إذ تجـاوز طولها المترين، متجاوزة لقامة أبيها بمقدار ربع المتر، رغم أنه كان يعتبر طويلاً بين الناس.

كانت عظيمة، حتى الثانية عشر من عمرهـا طفلـة عادية، تبدو طويلة من الشيء بالنسبة لأقرانها من البنـات، لكن طولها لم يكن ملحوظا إلى حد قلق أهلها الـذين كـانوا يعدونها للزواج، مثل بقية أخواتها اللواتي تـزوجن، كفتـاة عادية الشكل، سوف تجد رجـلاً يقبـل عليهـا، ذات يـوم، يتزوجها، وقد تأكدت هذه الحقيقة بعد أن فشلت عظيمة فـي

الحصول على مادة إتمام الدراسة الابتدائية، مثل معظم تلاميذ تلك المرحلة، بسبب الفشل المزمن للسياسة التعليمية، وأصبحت متفرغة تمامًا لإتمام تعلم الشئون المنزلية، والمهام التي يتطلبها الزواج.

لكن مشكلة عظيمة بدأت في الظهور بعد ذلك بقليل، إذ أخذ جسدها يمدد تمددًا رأسيًا على نحو مذهل السرعة، وبشكل واضح ساعد على وضوحه نحافتها الملحوظة، وغياب التناسق بين أعضائها، إذ كان نصفها الأسفل طويلاً، ممتدًا، يتناقض مع قصر نصفها الأعلى وطول رقبتها المنتهية برأس صغير ذي عينين واسعتين لا تخلوان من جحوظ، حتى أن الناظر إليها يظن أنها كانت في الأصل مشروع زرافة ضلت طريقها لتصبح من النوع البشري، وعندما بلغ عمرها السادسة عشرة، كان طولها قد وصل إلى حد تبدو معه أطول من أي إنسان موجود بالمكان الذي هي فيه، بفارق كبير، مما أدى إلى تعرضها لكميات هائلة من السخرية، سواء وهي سائرة في الطريق، أو حتى داخل البيت، فباتت تعاني معاناة نفسية فظيعة، لا بد أن تعانيها فتاة في عمر المراهقة، إذا ما تعرضت لذلك، لأن هاجسها في

عمر كهذا، أن تكون محبوبة مقبولـــة مـــن النـــاس عمومًـــا والجنس الآخر خصوصًا، وقد وصلت تلك المرارة النفســية بها إلى حد الإقدام على محاولة انتحار، فشلت، لأنها عنـــدما ألقت بنفسها من شرفة بيت أهلها الواقع في الـــدور الرابـــع، بإحدى العمارات سقطت بالصدفة على عربة إسمنت كانـــت تعبر الطريق، فلم يصبها سوى كسر أحد قواطعها الأماميـــة، لأنه اصطدم بجانب من الجوانب الحديديـــة للســيارة التـــي مضت بها حتى نهاية الشارع، وظل ذلك الكسر تذكارًا، أبديًا صغيرًا، شاهدًا على ذلك الحادث البسيط.

وإذا كانت تلك الواقعة لم تترك بصماتها، بما يكفي، على حياة عظيمة، فإن واقعة أخرى حولت مجـــرى حياتهـــا تحويلاً كاملاً، فبعد ذلك بشهور قليلة، مات عم لها في ريعان شبابه، ميتة مأساوية، اهتزت لها مشاعر كـــل مـــن ســـمع تفاصيلها، إذ أنه بعد أن أنقذ أمه وأباه، وشقيقاته الثلاث مـــن موت محقق، بعدما بدأ المنزل الذي يقطنون فيه بالانهيـــار، بشكل مفاجئ، أثناء الليل، توسلت إليه جارة لهم، أن ينقذ أمها المشلولة، من الموت، فسارع الشاب بحمل العجـــوز التـــي كانت قد زحفت حتى وصلت إلى إحدى الشرفات، وألقى بها

إلى الحشد المنتظر ليتلقفها منه أسفل المبنى، لكن قطعة ضخمة من الحجر سقطت، فور وصول العجوز سالمة، على رأس الشاب فحطمته، على الفور تمامًا.

عندئذ شهد الحي الذي جرت فيه الواقعة، مأتمًا لذلك الشاب الشهيد، لم يحدث مثله منذ أيام مأتم شهداء ثورة ١٩١٩، حيث تشارك الناس في نصب أكبر شادر عزاء ممكن، وجلبوا أفضل مقرئ للقرآن تصل إليه فلوسهم، لتلاوة ما تيسر من آي الذكر الحكيم، بعد أن شيعته حشود كبيرة، حتى مقره الأبدي في مشهد مهيب شارك فيه طوب الأرض، وأدى إلى تعطيل المرور في شارع محمد علي المتجه إلى القلعة لمدة نصف ساعة، زادت إلى ساعتين، بعد ذلك، رغم انتهاء مرور الجنازة، لأن السيارات كانت قد زحفت على شريط الترام القديم، بينما كان العسكري المنظم للمرور مشغولاً بتناول شقتي رغيف بطعمية، لأنه ظل على لحم بطنه، ولم يذق طعامًا منذ بداية اليوم، حتى الظهر، وقت مرور الجنازة.

بعد تشييع الجنازة، كانت النساء قد تجمعن في ساحة صغيرة، أمام بيت الأسرة المنكوبة الجديد الذي لم يكن إلا

بيت أهل عظيمة، حيث سالت دموع تكفي لغسل ميت آخر غير الفقيد، ولفرط التأثر والانفعال، سقطت عدة نساء – كن قد بذلن جهدًا جبارًا في الصراخ واللطم – في حالة إغماء، وكانت منهن أم المتوفى، وخطيبته خائبة الرجاء التي شاركت تلك التي لم تصر حماتها في التعبير عن الألم.

عندئذ، تفتقت مواهب عظيمة، على نحو لم يحدث من قبل، عن شاعرة ندابة، قادرة على قول كلمات رثاء بليغة، شديدة التأثير في النفوس، عبر صور حافلة بالجناس والطباق والتشبيه والاستعارة، وكل ألوان البديع الأخرى، مستندة في ذلك، إلى خيال جامح، اكتشفت وجوده آنذاك، ونفس شعري طويل، مشابه لطولها الجسدي، وقد ساعدها في ذلك، إضافة إلى الدور البطولي للفقيد، أنه كان على جانب غير قليل من الوسامة، أتاح لها التغزل في محاسنه الجسدية التي لم ينقض على مواراتها الرديم إلا وقت قصير، مما زاد شعور خطيبته بفداحة مصابها في الفقيد الذي قد لا توفق في الارتباط بمثله، مرة أخرى.

منذ ذلك اليوم، باتت عظيمة هي الندابة المعتمدة في الحي، وامتد نشاطها، بمرور الوقت، إلى الأحياء المجاورة

الأخرى فصارت تقصد، عند حدوث أية نازلة تلم بعائلة من العائلات. عبر ذلك، اكتشفت عظيمة طريقها في الحياة، وهو الطريق الذي جعلها قادرة على التكيف مع محيط كان قبل ذلك يعرضها دائمًا لأبشع الآلام النفسية التي يمكن أن تعيشها فتاة، بسبب السخرية الدائمة منها ومن طولها الذي لا يتلاءم مع معايير الأنوثة التي وضعت منذ أزمان بعيدة، المتطلبة لتوافق طول المرأة مع وظيفتها المقررة لها، كمطية للمتعة الذكورية، ووسيلة لإنتاج النوع البشري.

لذلك، تضاءل الهاجس الذي طالما أرق عظيمة، والذي أيقن أهلها باستحالة تحققه، على أرض الواقع، وهو هاجس الارتباط – عبر الزواج – بكائن من الجنس الآخر، وقررت أن تهب حياتها لدنيا الندب التي وجدت تحققها الكبير فيها، وباتت، ذات حيثية في محيطها الاجتماعي من خلالها، وكان ذلك يتطلب، بالضرورة، أن تبدو عظيمة في مظهر، وقور يليق بهذه المهمة الحزينة، يختلف عما كان عليه مظهرها، قبل ذلك، فصارت حريصة على ارتداء الملابس السوداء الطويلة، عند الخروج، وكان ذلك ملائمًا لها، من أجل إخفاء ساقيها العظميتين عن النظر، كما أنها صارت لا

تظهر في أي مكان بدون طرحة، من الشيفون الخفيف، على رأسها، تقمطها بقماط أسود من الحرير الصناعي الشيء الوحيد الذي ظلت عظيمة تحافظ عليه من زينة النساء هو الكحل الأسود الذي تضعه في عينيها بمجرد أن تفيق في الصباح، وتغسل وجهها، والذي لم يمنح عينيها غير المزيد من الاتساع والحزن، مما يجعلها تبدو وكأنها امرأة لم تخلق إلا للهم والأسى.

بمرور الوقت، اكتسبت عظيمة خبرات فائقة في مجالها، فقد باتت تختار المراثي الملائمة لحالة كل فقيد، يحرص أهلها على رثائه، بحيث تتماشى مع سنه وملابسات موته، وصفاته الجسدية، فإذا كان طويلاً عريضًا يسد الباب، كأنور وجدي في أفلام الأربعينات والخمسينات، فإنها تقول: طول بعرض، تحضنه الأرض، وإذا كان نحيلاً رقيقًا تقول: عصفور محني، خطفه الموت مني، وكانت تبدع وتتألق إذا كان الميت شابًا، أو فتاة جميلة لم تفقد عذريتها، بعلم الدولة في سجلات الزواج الرسمية، فتجعل قلوب السامعين تتفجر بالأسى والحزن، وقد وصلت شدة تأثيرها عبر الكلمات المنظومة، وقدرتها على التشبيب الحزين، إلى حد تعرضها،

أحياناً، لمشاكل من أقارب الميت، أنفسهم، ففي إحدى المرات هددها شقيق أحد المرثيين بالضرب، إن لم تكف عن الندب، وتغادر المكان فورًا، لأن أمه فاجأتها أزمة قلبية حادة لشدة انفعالها، وفرط حزنها، على ابنها المتوفى، وهو الحزن الذي كانت تؤجج ناره المرثية الرجزية المطولة التي أتقنت عظيمة إلقاءها في مأتم ذكراه السنوية الأولى.

بالإضافة لذلك، واستكمالاً لإجادة دورها الذي باتت تتلقى عليه أجرًا، ويدر دخلاً كافيًا لمواجهة متطلبات الحياة، أخذت عظيمة تطالع بعض المواعظ، والخطب الدينية، لتلقيها في المآتم، وحفظت حفظًا متقنًا لا يشوبه لحن سورة الرحمن، إلى جانب بعض قصار السور التي كانت قد ترسبت في ذاكرتها منذ أيام المدرسة الابتدائية، فأصبحت تتلوها بصوت حرصت أن يكون رخيمًا، قدر مستطاع حنجرتها التي لم تكن تلبي متطلبات عملها كقريحتها المتوقدة، أما في فترات الاستراحة، حيث كانت تلين صوتها باليانسون أو الجنزبيل الذي يقدمه لها أهل المتوفى، أو عند الجلوس لطاولة الغداء لالتهام اللحم المسلوق والثريد، فإنها كانت تقوم بتفسير الأحلام على ضوء منهج ابن سيرين، بتصرف كبير، إذ كان

خيالها يمدها بحلول سعيدة، ترضي صاحبة الحلــم وتشــرح صدرها.

لم يشكل انتشــار ورواج عــادة اســتخدام شــرائط الكاسيت المسجلة عليها سور بأصوات كبار ومشاهير مقرئي القرآن المعتمدين من الأزهر والإذاعة أية مشــكلة لعظيمــة التي لم تجد في ذلك منافسة حقيقية تخشى منها كساد عملها، ولم تخش تأثير الجماعات الإســلامية التــي تحــرم نــدب المتوفى، ورثاءه، لأنهما يتنافيان وتعــاليم الــدين الحنيــف، فالإقبال عليها كان يتزايد مع مرور الأيام، لسبب لم تعرفــه، أبدًا، كان يعود إلى كونها تلقي بنوع من النظم يلبــي حاجــة مفتقدة عند الناس، بسبب كلمات الأغاني السخيفة التي يفتعلها شعراء العامية، والمفروضة عليهم ليل نهــار فــي أجهــزة الإذاعة والتليفزيون، وتلك الأشعار الغامضة التي تنشر فــي الصحف والمجلات، بين الحين والحين ولا تعبر عــن أيــة قضية تخصهم أو تخاطب مشاعرهم، ويكتبها شعراء يصفون أنفسهم بالحداثة، أو آخرون عفا الزمن عليهم، يصرون على ضلفتين من الشعر ينسجون بهما، نسيجًا اهتــرأت خيوطــه، على غرار قدماء الشعراء، حيث الفروسية لم تعد موجــودة،

لأن الناس لم يعودوا يتعاملون مع الأفراس في حياتهم اليومية الصعبة التي غابت عنها كل ملامح النبالة الأخلاقية في خضم الصراع الشرس من أجل البقاء.

بعد ذلك بسنوات، حيث تنصبت بين الناس كندابة بارعة معترف بها، لا يرقى إلى مستواها وحذقها شك، سلكت عظيمة طريقًا أخرى، إضافية، أضافت رصيدًا جديدًا، إلى رصيدها المالي الذي كانت تؤثر الاحتفاظ به في يديها وعلى جيدها وصدرها، على هيئة حلي ذهبية، بدلاً من وضعه في بنك من البنوك، فأخذت تشارك في الموالد والاحتفالات الدينية، بمواويل ومدائح دينية، لاقت ذيوعًا وانتشارًا، مستفيدة بذلك من إنجازات العلم الحديث الذي ابتكر جهاز الميكروفون القادر على منح الأصوات الضعيفة قوة، سحرية، مبهرة، لأن عظيمة لم تتمتع بصوت متميز قط، لكن بما أن كل من هب ودب بات يغني، ليس في الموالد فقط، ولكن في الإذاعة والتليفزيون وشرائط الكاسيت المنتشرة، انتشار النار في الهشيم، من أعلى نقطة بشمال البلاد، حتى أسفل نقطة في جنوبها، فإن عظيمة دخلت حلبة الغناء، من أعظم أبوابها في نظر الجماهير العريضة، من محبي الغناء،

وهو باب الموال الديني الذي تفننت في نظم كلماته، وبذلت جهدًا صادقًا، ليخرج صوتها المدعم بالقوة الكهربية، قويًا رخيمًا بقدر المستطاع، مستفيدة بذلك من البحة التاريخية المكتسبة بفضل سنوات طويلة من الندب، وهي البحة التي طالما حظيت بإعجاب الجموع التي كانت تحتشد للاستماع إليها في الموالد، والتي تجعلها جرعات، لا بأس بها من أنواع المخدرات المختلفة، تغالي في تثمين ذلك الصوت، ذي البحة الحزينة المغازلة للشعور الكامن في أعماق الوجدان، بالانكسار والقهر وانقطاع الرجاء باعتبارها قدرا أبديا، لأسباب سماوية ربانية، لا تمت بصلة للبؤس المقيم الذي تعيش فيه تلك الجموع.

لم تمض سنوات أخرى، إلا وكان لعظيمة فرقة موسيقية خاصة، تصاحبها في إحياء ليالي الموالد القاهرية الشهيرة، كمولد الحسين، ومولد السيدة زينب وكذلك مولد السيد البدوي في مدينة طنطا، ونظرًا لتزايد انتشارها الغنائي، فقد باتت تلبي حاجة سامعيها ومحبي فنها، باعتبارها مطربة الموال الأولى، فتطبع مواويلها على شرائط مسجلة يحمل غلافها صورتها وهي تبتسم ابتسامة عريضة، لا تظهر

على نحو الدقة الأضراس الذهبية الثلاث التي في فمها، وقد كتب فوقها اسمها وتحتها مطربة الموال الأولى، وهو اللقب الذي منحته لنفسها على غرار الألقاب التي باتت شائعة في كل المجالات، لتضفي على أصحابها صفة التميز والتفوق، وقد حظيت عظيمة بإقبال جماهيري من خلال هذه الشرائط، بسبب جنوحها فيها، إلى وصفية دنيوية واضحة لحالات العشق والغزل في شعرها، وهو جنوح تغطى بغطاء ديني، متخذاً شكل المديح في صاحب البيت النبوي الشريف وأهله الكرام، سائرة بذلك على درب كل المداحين الشعبيين السائرين على درب جهابذة الصوفية، وعظمائها في القرون الوسطى، وقد أجادت عظيمة في هذا الجانب، إجادة حاذقة، بعد أن طعمت مواويلها بمقتطفات لم تخل من تصرف منها، من أشعار كبار أهل التصوف كابن الفارض الذي طالما صعدت إلى جامعه بجبل المقطم، للدعاء والتبرك، وابن عربي، وذي النون المصري، وغيرهم من أهل الطريق الواصلين، هذه الأشعار، كانت عظيمة تحصل عليها مطبوعة طبعات شعبية رخيصة من باعة الكتب المنتشرين على أرصفة ميدان الحسين أو السيدة زينب.

استدعى المجال الفني لعظيمة، أن تستبدل ملابس المآتم السوداء التي طالما ارتدتها في الماضي، بأثواب ملونة حريرية طويلة، مشغولة بالخرز والترتر، من باب الأناقة، وطرحة تتناسب ولون الثوب الذي ترتديه معها، ومع قماط الرأس الموشى، بخيوط ذهبية أو فضية، حسب الأموال، ثم إنها اكتشفت أن الكحل الحجري الأزرق الشائع بين فلاحات الدلتا، يلائم عينيها، على نحو أفضل من ذلك النوع الأسود المصنوع من هباب قطنة، مشتعلة، بعد غمسها في الزيت، وقد كان ذلك كله لأجل جمهورها الحبيب الذي حرصت على أن يطالعها وهي في أجمل صورة ممكنة، بالنسبة لإمكانياتها المحدودة في هذا الجانب، وهو الجمهور الذي أصبحت تتخلى عن الندب، تدريجيًا، ليس لأجله فقط، ولكن لأنها اغتمت طوال سنوات شبابها بما يكفي، وباتت لا تذهب إلى المآتم، إلا في حالات نادرة للغاية، يكون فيها العائد المالي مجزيًا، يستحق عناء النكد والغم.

غير أن حادثًا ثالثًا، تلاعب بسيرة حياة عظيمة الطويلة، وهو الحادث الذي لو لم يقع، لاختلف مصيرها تمامًا، إذ كان من المحتمل، أن يكتشف مواهبها، فنان عاشق

للفن الشعبي، كزكريا الحجاوي، أو أن تنضم إلى أولئك المطربين الشعبيين الذين تجلبهم الثقافة الجماهيرية، وتضعهم على المسارح كالفجل بطينه، ليستريح ضمير الدولة، من ناحية الاهتمام بالثقافة الشعبية ورعايتها.

ولم يكن ذلك الحادث من الحوادث البسيطة العابرة في حياة شاعرة موهوبة، مرهفة، مأساتها أنها لم تأت في زمن كالزمن الذي جاءت فيه المغنية "سافو" لكن مواهبها تفتقت في زمن يضع الثقافة في نهاية جدول أعماله، لا لشيء إلا لكي لا تغيب عن قاموسه اللغوي، فبعد أن بلغت عظيمة الأربعين وقعت فيما لم تقع فيه من قبل أبدًا، إذ دخلت في شباك الهوى والعشق، كحمامة بريئة تتعلم الطيران لأول مرة فأوقع بها صياد ماهر، لم يكن إلا أحد أفراد فرقتها الموسيقية، مما بدل حالها، وأمد روحها بقصائد عشق مجنونة، جن بها الناس، كانت موجهة لسيدنا الحسين دون سواه من أهل البيت النبوي الشريف لأن حبيب الغفلة كان اسمه حسين أيضا، وهو ناياتي غير بارع العزف، انضم إلى فرقتها عن طريق عازف الربابة الأول في الفرقة نفسها، والذي كانت قدماه قد حفيتا بحثًا عن ناياتي جيد المستوى،

دون جدوى، لأن معظم الآلاتية باتوا يفضلون العمل في فرق شارع الهرم، والملاهي الليلية بالمدينة، دون الانضمام إلـــى الفرق الشعبية المرتبط عملها بمواسم الموالد والأعياد.

وكان ذلك الحسين من أولئك الذين يعرفـــون كيـــف يضعون أيديهم على كتف المرأة، فبعد أن تفحص بنظراتـــه جسد عظيمة، موقناً أن به ما لا يستحق التقدير سوى الذهب الوفير المستريح، على ذراعيها، وحول جيدها، وفي أذنيهـــا، أخذ يرميها بنظرات الغرام والوله، بعد أن ســـاعدته خبرتـــه الطويلة في الغرام والعشق، على اكتشاف حاجتها الحقيقيـــة إلى رجل ليس فقط كجسد ظامئ بحاجة إلى الارتواء، ولكن كروح شاعرة تنشد العشق والجمال.

أمد العشق عظيمة بطاقات أخرى، تفجـــرت لـــيس بروحها فقط بل بجسدها أيضا، فأخذ في الامتلاء، لأول مرة طوال تاريخها، صحيح أنها باتت تشبه ساترًا مـــن الســـواتر الطوبية التي كان يجري بناؤها، أمام مداخل البنايات، أثنـــاء كل حرب من الحروب التي خاضها جيشنا ضـــد إســـرائيل، لكن شكلها على أية حال، بدا أفضل، بعد أن استدار وجههـــا الذي امتلأ باللحم، فاندس أنفها الممطـــوط، داخلـــه، وباتـــت

تعيش، كحقيقة واقعة، حلم عمرهـا المسـتحيل: أن تسـمع كلمات حب رقيقة، من رجل في هذه الدنيا، فأغدقت عظيمـة على عاشقها كل ما يمكن أن تغدقه امرأة متفانية في عشـقها لرجل، ابتداء من حر مالها الذي جلبته بفنها، وجمعتـه مـن جيوب عشاقها، ومحبيها، من فلاحي القـرى البعيـدة فـي الريف، وفقراء المدينة الذين كانوا يحجون إليهـا، طـالبين طربها، وانتهاء بجسدها الضخم محدود الخير الأنثوي.

لم تمض فترة إلا وكان النایاتي، سيد روحها، وسـيد فرقتها الموسيقية أيضا، بعد أن تقهقر عازف الربابـة الأول إلى الموقع الثاني، وأصبح العشيق الذي كان يعـرف جيـدًا كيف يركب الموجة، آخر الأمر، مديرًا لأعمالها، والمـتحكم في كل مسألة تتعلق بحياتها، والآمر الناهي صاحب الكلمـة النافذة عليها.

كانت عظيمة تضع عشقها في كفة، وكل ذلـك فـي الكفة الأخرى، فكانت مستعدة لبذل المزيد من مالها وروحها، وكل ما ملكت يدها في هذه الدنيا، لهذا الجيـب الـذي جـاد الزمان عليها به، شريطة أن يتزوجها زواجًا شرعيًا، فتكون علاقتهما في النور بالحلال الذي تتمنـى أن تكـون ذريتهـا

الممكنة، من هذا الرجل – اللقية، به أيضًا، فلما صارحته، دون أية مواربة، أو لف أو دوران في الكلام، برغبتها في الزواج منه بسرعة الأمر الذي لن يكلفه أي شيء، وكانت تظن أنه منتهى أمله وسعادته، وكمال مراده، فوجئت بتهربه من إجابة مطلبها، لأنها لم تدرك أبدًا، أن الناياتي العليم بخبايا وبواطن قلوب النساء كان يرى أن أفضل طريقة للاحتفاظ بقلب المرأة هي ألا يتزوج المرء منها أبدًا، وقد رفض عرضها للزواج الذي لم يكن مفاجأة بالنسبة له على أية حال، فلقد توقع حدوثه يومًا، وتلقاه بمنتهى الهدوء، بينما كان جالسًا إلى جانبها على الكنبة الوثيرة في صالة منزلها، يدخنان تدخينهما الصباحي المعتاد للنرجيلة ويشربان قهوة بعد الفطور، فقال لها وهو يتحسس أصابعها الطويلة المنتهية بأظافر مشذبة، ومطلية بلون أحمر فاقع، أنه يحبها حبًا لا حدود له، ويعشق كل جزء من أجزاء جسدها الجميل، وخصوصًا رقبتها الطويلة الملفوفة البيضاء وكأنها كوز من الفضة، لكنه لا يمكن أن يتزوجها أبدًا، وهو على ما هو عليه من حال، إذ أنه يعمل عندها كأجير، لا طاقة له على تحمل تكلفة الزواج، ومواجهة الإنفاق عليها، وعلى بيت الزوجية،

لذلك فهو يفضل تأجيل الزواج، حتى تتحسن ظروفه المالية، ويكون جديرًا بالتجرؤ على طلب يدها، على سنة الله ورسوله، ويتزوجها على رءوس الأشهاد.

عند هذا الحد من الكلام، تأثرت عظيمة جدًا، وخفق قلبها بشدة، إذ كانت ترى أنه صادق في كل كلمة قالها لها، لأنه كان في هذه اللحظات، يضع عينيه في عينيها، ويذيب مشاعرها بنظراته المتأججة بنار الحب التي أججت نار قلبها أكثر فأكثر، لذلك وافقت على ما قاله، ثم اقترحت عليه، أن تبيع مصحفاً ذهبيًا كبيرًا، وزنه حوالي أونصة وسوارًا مشغولاً، كانت قد اشترته، من عدة أعوام، بحوالي خمسة آلاف من الجنيهات، ربما يصل ثمنه، عند البيع إلى ما يزيد على ذلك بألفين من الجنيهات، وأن تعطيه حصيلة ذلك، ليخطبها، ويقدمها لها كمقدم الصداق عند عقد القران، لكن الناياتي الذي كان يتأمل وجهها وهي تتكلم، ويتفحص فمها، وأضراسها الذهبية اللامعة، كلما تمكن من ذلك لم يقع في الفك المفترس ، ولا بات مزنوقًا في خانة اليك، إذ أقسم بالله العظيم، ثلاثًا، ودعاه وهو يرفع يديه بالدعاء، أن يحرقه بالنار، ويحوله إلى مثل جمرات النرجيلة المشتعلة أمامهما،

إن هو مد يده وأخذ منها الفلوس، أو أقدم على أية خطوة للزواج منها، لا تكون بفلوسه المجلوبة من عرق جبينه المتصبب من كثرة النفخ في الناي بالطبع.

لم تستطع عظيمة ابتلاع الحجج الواهية للعشيق المداهن بسهولة، لأنها كانت غير مقبولة شكلاً ولا مضمونًا، إذ أنه كان يغترف حتى هذه اللحظات من أموالها كيفما شاء، ويقبل، بكل الرضا، ما تقدمه له، ليكون رجلاً ملء هدومه، ابتداء من الجنيهات النقدية التي تدسها في يده، بين الحين والحين، وانتهاء بسيارة المرسيدس الخاصة بها الموضوعة تحت تصرفه، وقتما يشاء، ومن الناحية العملية، لن يتحقق ما تذرع به من حجج أبدًا، لأنه لو ظل مائة سنة، وباض كما تبيض الدجاجة في القفص، فإنه لن يستطيع جمع المال اللازم للزواج منها، فهو لا يملك شروى نقير.

لذلك وجعتها كرامتها، وآثرت الانسحاب من العلاقة التي لم يكن من الممكن استمرارها في الحرام، بالنسبة لها أبدًا، خصوصًا أن رائحتها بدأت تفوح، وتلفت الأنظار إليها واكتفت بإيصاد باب قلبها بالضبة والمفتاح على عشقها الكبير، ليبقى بداخله، كشجرة يانعة للذكرى، ولأيام غرام،

جميل، عبرت حياتها كحلم أفاقت منه، سريعًا، دون اكتمال تفاصيله السعيدة، لكن النایاتي لم يقبل بانقطاع ما اتصل بينه وبينها، لذلك راح يبتز مشاعرها من جديد، بالمزيد من كلمات الهوى، ونظرات الهيام التي تذيب مشاعرها، وتلين عواطفها التي حرصت أن تكون جافة جامدة أمامه، وكانت عظيمة، عظيمة في تشددها وحسمها معه ، إذ جعلت الزواج الرسمي، هو شرطها الأول والأخير لاستمرار العلاقة، ورفضت عرضه الجديد الذي تقدم به، بعد القطيعة بينهما، للزواج العرفي بها، مما لا يرتب أية التزامات قانونية من ناحيته لها، محافظة على تشددها، وإصرارها على أنه لا مساس بقضية الشرعية الزواجية، على عكس الحكومة التي طالما أعلنت أنه لا مساس بالدعم الاقتصادي للفقراء وواظبت على مسه مسًا خفيفًا، وثقيلاً، وصل إلى حد ضرب عرض الحائط، بكل ما أعلنته بخصوص ذلك، بل إن عظيمة قلصت علاقتها بالنایاتي إلى أضيق الحدود التي لم تكن إلا حدود العمل في الفرقة الموسيقية، لأنها لم تستطيع طرده والتخلي عنه، بسبب النقص في العازفين الذي كان ما يزال مستمرًا في سوق الموسيقى، وقد استطاعت مواجهة الضغوط

العاطفية للحبيب الغادر، والإشاحة بوجهها عنه، رغم أن قلبها كان بحاجة، آنذاك، إلى عشر أغنيات من أغاني فريد الأطرش المسيلة للدموع، لتندب غرامها المقطوع، وحظها العاثر في دنيا الهوى، ولما لم يجد العاشق الحريف، حلاً سلميًا، ومل حالة اللاسلم واللاحرب، بدأ بالكشف عن وجهه القبيح، وأخذ يشن عليها حرب تشهير واسعة النطاق، تتعلق بتفاصيل علاقته بها، بأسلوب غاية في الخبث، ينحو إلى التلميح، دون التصريح، وإبراز أطراف من خيوطها، لينشغل الناس بها، ويضيفون من عنديات خيالهم إليها، وكان يستهدف من ذلك أن ترضخ عظيمة له من جديد، لتلم ما بعثره من تفاصيل غرامها، ولتجعله يسكت عن التشهير، ويكفي على الخبر ماجورًا.

اعتبرت عظيمة هذا الأسلوب أسلوبًا متوحشًا، لا يليق إلا بضبع من الضباع لا يتورع عن نهش لحم فريسة ميتة إذ أنها اعتبرت نفسها كذلك بعد انقطاع أملها فيه.. واستشاطت غيظًا وغضبًا، شاركها فيه عازف الربابة الأول في فرقتها الذي كان صديقها الصدوق، وذراعها اليمنى في تصريف أمورها الفنية، والشخصية، حتى بعد وقوعها في

الغرام، لأنه كان يؤمن بها إيمانًا مطلقًا، كأفضل مطربة شعبية تقول الموال في زمانها، بعد أن مات سيد الموال محمد عبد المطلب، ولم يكن رأيه هذا ناتجًا، إلا عن اعتباره لنفسه عازف ربابة قدير، ينحدر من أسرة قوالين جوالين عريقة، احترفت الغناء الشعبي أبًا عن جد، دون أية حرفة أخرى، على مدى تاريخها المجهول بعد الجد الرابع.

الغضب الشائط، انجلى عن خطة انتقام صغيرة، من رمز الغدر والخيانة، تلخصت في تأجير أحد خبراء صنع العاهات المستديمة، لشحاذي الحسين، وسائر شحاذي القاهرة، ليقوم بخصي العشيق السابق الذي استدرجته عظيمة ذات مساء بعد أن أوهمته بعودة مياه غرامها العميقة إلى مجراها القديم، وذهبت به إلى بيت عازف الربابة الأول الواقع في منطقة الترب، بحجة التدرب مع بقية أفراد الفرقة، استعدادًا للمشاركة في مولد السيدة زينب الذي كان موعده قد أوشك، فجربت عظيمة صوتها، وعادت، وزادت، وأبدعت في أداء أغنية جديدة في مدح رسول الله ﷺ ، كانت في الأصل أغنية عاطفية، لحنها محمد عبد الوهاب لفايزة أحمد، منذ زمن طويل، لكن عظيمة غيرت في الكلمات، بما يتناسب

والمديح النبوي، مع الالتزام باللحن الذي عزفته الفرقة بتصرف يسير، يتلاءم مع المزاج الشعبي المفعم بالنشوة والمعتاد في الموالد، فأتيح مجال أوسع لآلات الإيقاع، والوتريات الشعبية التي جرى تلخيصها تاريخيًا في الربابة التي كانت ترد بجواب لحني صاخب، كلما أدت عظيمة بصوتها المبحوح "أنا قلبي إليك ميال".

وبعد الانتهاء من التجريب والتدريب، غادر أعضاء الفرقة بيت عازف الربابة الأول، ما عدا عظيمة، والناياتي الذي جلس إلى جانبها ليتلقى توبتها وطلبها للعفو والمغفرة منه، بعد أن استيقظ قلبها على نداءات حبه الجديدة، لكنه لم يلبث إلا وقتًا قصيرًا حتى ذهب في غيبوبة تامة بعد تجرعه لعدة كئوس من النبيذ الوردي المضاف إليه كمية لا بأس بها من المخدر، فلما جرى التيقن من غيبوبته، نقل على وجه السرعة لغرفة النوم الواسعة لعازف الربابة الأول، حيث كان في انتظاره خبير الخصي الذي تجرى في عروقه موهبة تاريخية، وصلت إليه عبر دم آبائه من زمن العصر المملوكي، فقام بعد أن قرأ الشهادتين وشمر عن أكمامه، وتأكد من تأثير المخدر، وتمام تعقيم أدواته الجراحية

الموضوعة في حلة ألمونيوم صغيرة بها ماء يغلي، على موقد كحولي من النوع المستخدم عادة في إعداد القهوة، ووجود قطن، وشاش وصبغة يود ومسحوق سلفا بكميات كافية، مد يده إلى الماء المغلي واستخرج دون الالتفات لسخونته الشديدة، موسى حلاقة من ذلك النوع الحاد الذي يستخدمه المزينون عادة، فقطع به ما تقاضى، خمسمائة جنيه – نصفهم مدفوع كمقدم – على قطعه، وبعد أن انتهى من العملية التي كللت بالنجاح، ووضع صبغة اليود، ومسحوق السلفا ولف القطن والشاش، جرى نقل الناياتي، على وجه السرعة إلى مسكنه الذي كان مفتاحه لم يزل مع عظيمة، منذ ما قبل القطيعة الأولى، وتم وضعه على سريره وتغطيته باللحاف، وتركه ليجد نفسه في ظهيرة اليوم التالي، بعد أن أفاق من غيبوبته، ونومته الطويلة، كالطواشي صبيح.

حاول عازف الربابة الأول، أن يحل محل العشيق الغادر المنتقم منه، فعرض الزواج مباشرة على عظيمة، رغم كونه متزوجًا، منذ سنوات طويلة، ويعول، لكن عظيمة اعتبرت عرضه على سبيل الشفقة بها، ورد الاعتبار لكرامتها المهانة، وإخراسًا للمغرضين من الناس، ورفضت

طلبة بلباقه لهذه الأسباب النبيلة، ولسبب آخر غير نبيل، هو أن عازف الربابة الأول، كان قصيرًا على نحو واضح، مما يجعله يصل بالكاد إلى ما بعد وسطها بقليل، ثم إنها كانت ما تزال واقعة في غرام الناياتي الميئوس منه، وهو الغرام الذي باتت تفضل العيش على ذكراه الجميلة، دون التفكير في رجل آخر، أو الإقدام على زواج، إذ كانت آمالها في الرجال جميعًا، قد ضاعت وفنيت، من جديد، واعتبرت ما جرى درسًا لها وتجربة كان لا بد منها لتفيق إلى نفسها، مرة أخرى، بعد أن أغرتها الشهرة والفلوس، وجعلاها تظن أنها تستطيع أن تشتري بهما العواطف والحب مثلما تشتري أي شيء آخر من السوق.

كادت الحياة أن تمضي بعظيمة، بعد ذلك، بالشكل المعتاد الذي كانت عليه قبل دخول الناياتي فيها، لولا أنه كان يجهز لخطة انتقامية مضادة للعملية الجهنمية الانتقامية التي استهدفت بنجاح أعز ما يملك فقد آثر بعد أن أكتشف ما لحق به، أن يكفأ على الخبز ماجورًا، لأنه لا يريد أن يكون موضوعًا لتندر وسخرية كل من هب ودب، وخصوصًا، أولئك الذين كان يتعمد إخبارهم طرفًا من أخبار غرامه

بعظيمة، وفضل ألا يشتكي للبوليس ليروحهما في داهيـــة، إذ كان يفضل أن يقوم هو شخصيًا بهذه الداهية، كسبًا للوقـــت، لأن يوم الحكومة بسنة، والبوليس سوف يمط في الموضوع، بسبب السين والجيم، وإحالة الموضوع للنيابة والمحكمة، مما يجعله يعيش بنار غيظه وغله وقتًا طويلاً، قـــد يصـــل إلـــى سنين، لذلك قرر أن يحصل على حقه في الانتقام، بيده، فقام بوضع خطة مرحلية، تتركز أولاً على عازف الربابة الأول، باعتباره الرأس المدبر لعملية الخصي، وتستهدف في الجزء الثاني منها عظيمة التي سوف يطبخ طبخة الانتقام منها على نار هادئة حتى تؤتي أكلها، وهي طبخة سيكون أول مكوناتها قذف وجه عظيمة بماء النار، أي حامض الكبريتيك المركز، لتشويه وجهها، بحيث يضيع مستقبلها الفني، إذ أنها لن تقوى بعد ذلك على مواجهة جمهورها الحبيب، بوجـــه مرعـــب، يناسب أبا رجل مسلوخة الذي كانت أمه تخيفـــه بـــه وهـــو صغير لينام، ثم بعد ذلك فإنه سوف يعمـــل علـــى تركيعهـــا أمامه، بحيث تجيء إليه سائرة على أربع، بعـــد أن تســـف التراب الذي يمشي عليه، طالبة منه العفو والرحمة والمغفرة.

لكن خطة حسين الناياتي، فشلت منذ بداية تنفيذ مطلعها، فقد فشلت محاولة قتل العازف الأول من قبل القتلة المأجورين الذين كلفهم بقتله، بعد أن أصيب المغدور إصابات شديدة، استدعت نقله لمستشفى الحسين الجامعي، على وجه السرعة، وانتقل إليه أيضًا البوليس والنيابة للتحقيق معه، ورغم أنه لم يتهم حسينًا الناياتي، إلا أنه تعرف على الذين حاولوا قتله، بينما كان يسير في الترب عائدًا من زيارة لعظيمة في بيتها بباب الشعرية، بعد أن أطلعها على مصاريف وأجور العازفين الجدد للربابة الذين ضمهم للفرقة، وكان بينهم طالب مبتدئ في معهد الموسيقى العربية.

في النيابة، اعترف هؤلاء الذين فشلوا في القتل، بعد أن نال كل منهم كفًا على وجهه، على سبيل فتح الكلام، بأنهم قاموا بذلك لحساب حسين الناياتي الذي حاسبهم على أساس ألف جنيه نقدًا، يوزعونها بينهم بالطريقة التي تناسبهم، وعند مثول حسين أمام النيابة التي استدعته، اعترف بأنه أقدم على ذلك انتقاما، لما جرى له، وقد أثبت الكشف الطبي الذي حولته النيابة لإجرائه، أنه مخصي فعلاً منذ مدة قريبة، ووجهت التهمة لعظيمة، بعد أن قررت أن تبعد العازف

الأول للربابة، عن سكة الاتهام، واعترفت بأنه لا علاقة له بما قامت به من خصي النایاتي، سواء من قريب أو من بعيد، حرصًا على استمرار الفرقة، ووجود من يرعى مصالحها بإخلاص، وقد أدانت المحكمة جريمتها التي تسببت بإحداث أضرار جسيمة وبالغة بإنسان لا تعوض بثمن، وقررت الحكم عليها بالحبس والغرامة التي بلغت خمسًا وعشرين ألفًا من الجنيهات، لم تدفع عظيمة منها مليمًا واحدًا، مفضلة أن تقضي في السجن ما يقابلها من سنوات، بعد أن خلعت كل مصاغها وقدمته للعازف الأول، ليحتفظ به لها على سبيل الأمانة، لحين خروجها من السجن.

واجهت عظيمة سنوات السجن بالصبر والرضا فقد اعتبرت أن ذلك لم يكن إلا الضريبة التي دفعتها في سبيل إخلاصها لعشقها الكبير الذي كانت على استعداد لمواجهة الموت نفسه في سبيله أيضًا وقد عاشت داخل السجن على ذكرياتها الجميلة مع حسين النایاتي، ولم تنسها للحظة واحدة، فهي التي جعلت روحها تفيض بكل ذلك الحب الصدفة في حياتها، وقد كانت سلواها الوحيدة في أيام وليالي السجن الطويلة التي ينساها الزمان، هي أغنيات أم كلثوم القديمة

التي تؤجج نار قلبها الذي لم تنطفئ فيه جذوة العشـــق، فلـــم تكن تمل ترديدها كلما خلت إلى نفســـها فـــي الليـــل، هـــذه الأغنيات هي ما جعل عزيزة تعيد النظر في أمر عظيمـــة، بعد أن كانت تنفر وتتضايق من مرآها، وتشعر أنها عفريتـــه انشقت عنها الأرض لا تنتمي إلى عالم البشر، ضلت طريقها إلى السجن بينما يجب أن يكون مكانها أي جب قديم، وكـــان الصوت الإنساني المقهور الذي طالما ترنم بتلـــك الأغنيـــات الكلثومية البديعة هو السبب في اكتشاف عزيزة لهـــا، وفـــي تعرفها على نبلها ورهافة مشاعرها المفرطة التي لا يمكن أن تكون إلا لملائكة حقيقيين.

لذلك قررت عزيزة، أن تجلس عظيمة إلـــى جانـــب حنة في العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، لأن نبل عظيمة البالغ كان يتبدى في تعاطفها مع حنة المســـكينة، خصوصـًــا عندما مرضت حنة مرضـًا متواصلاً، لمدة أسبوعين، أقعدها في الفراش، فكانت عظيمة تخدمها خدمة البنت لأمها التـــي أنجبتها من رحمها، حتى أنها كانت تحملهـــا لبيـــت الأدب، لتقضي حاجتها، وتعود بها، بعد تنظيفها وغسلها، إلى مكانها في فراشها بعنبر الضعفاء، بل وكانت تقضي أوقاتًا طويلـــة

تناشدها أن تأكل، وتصبر عليها صبرًا جميلاً في ذلك، لأن حنة كانت ترفض أكل عيش السجن الأسود، بسبب أسنانها الصناعية التي باتت مخلخلة في فمها بعد أن نحفت وضعفت كثيرًا، فكانت عظيمة تبله بالماء وتفتته إلى فتيات صغيرة تلقمها لها وهي تغني لها أغنيات مرحة تدفعها للابتسام والانشراح.

إضافة إلى ذلك، فإن عظيمة مغنية ذات أداء جميل، وراكبات العربة سوف يحتجن إلى الغناء ليسري عنهم، خلال رحلتهم السماوية الطويلة، مما يرجح ضرورة ضم عظيمة إليها، وهذا ما فكرت به عزيزة تمامًا.

أبلغت عزيزة القرار السري الخطير لعظيمة في كلمتين، فقط لا غير، بينما كانتا ذات يوم تغسلان وجهيهما في الصباح بالحمام، فقد ألقت عظيمة على عزيزة تحية الصباح في بشاشة وهي تدعك وجهها بالصابون مما جعلها لا تلحظ الإيماءة الخفيفة التي ردت عليها بها عزيزة، لكنها سمعتها فقط وصوتها يختلط بسرسوب الماء المنساب من الصنبور، دون أن تفهم ما تقصده بقولها لها:

– خلاص.. استعدي.

البقرة حتحور

الوحيدة التي لم يستغرق تفكير عزيزة، لضمها إلى راكبات العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء الوقت اللازم لسلق بيضة، سلقًا خفيفًا، كانت الفلاحة أم الخير، فرضا عزيزة عنها مشابه للشعور المتمخض عن حب من النظرة الأولى، لأن عزيزة شدت إلى أم الخير وانفتح قلبها لها، مذ رأتها لأول مرة في السجن، مشمرة عن ساعديها، جالسة القرفصاء، تفت في طبق من الصاج الأزرق، بعض الخبز، وتصب فوقه قليلاً من مسحوق اللبن الذي مزجته بقليل من الماء لتقدمه لقطة السجن الأثيرة التي كانت قد وضعت لتوها، بعد ولادة عسيرة، استمرت ليلة كاملة، أربعة قطط مغمضة العينين، أفصحت اثنتان منها عن بعض سمات الأب المجهول، إذ كان لونهما رماديًا داكنًا، مخططًا بالأسود، خلافًا لأمهما التي كانت مشمشية اللون، لذلك أطلقت عليها السجينات اسم مشمشة.

استندت عزيزة بمرفقها على إفريز شباك عنبر العجزة المطل على الدهليز الطويل الذي تطل عليه بقية العنابر وكانت تقف فيه، آنذاك، ثم قالت وهي تبتسم لأم الخير:

- العوافي.

ثم تأملت مشمشة وهي تلعق بنهم ما في الطبق، وأردفت:

- الحمد لله على السلامة يا مشموشة، إن شاء الله يتربوا في عزك.

انفرجت شفتا أم الخير عن أسنان قوية، جميلة، قلما يمكن العثور عليها لدى فلاحة في مثل عمرها، جاوزت الخامسة والستين، وقالت كما لو كانت مشمشة امرأة حقيقية ولدت بعد عذاب:

- والله يا حبيبتي ما نمت طول الليل بسببها، لأني والوجع شغال فيها، كنت شاعرة أن مطواة نازلة تقطيع بمصاريني، وبقيت أقول يا رب تخلص وتولد بالسلامة، ويشاء العالم بعبيده أنها تنزل أول قط والفجر ينطق الله أكبر.

ثم إنها دعت عزيزة لتدخل العنبر وتشرب الشـــاي، عندها، وأغرتها بوضع قليل من اللبن المجفف فيــه والـــذي كان ابنها الأوسط قد جاءها بعلبة منه في آخر زيارة زارهـــا لها في السجن، منذ أيام مضت لأنه يعرف حرص أمه علـــى شرب الشاي مع اللبن لتكسر سمه كمـــا كانـــت تقـــول لـــه ولإخوته دائمًا، عندما كانت تراهم يشربون الشاي داكنًا دون وضع أية قطرة من الحليب عليه.

دخلت عزيزة، وجلست إلى جوار أم الخير لتشـــرب شايًا باللبن، ولتدخل أم الخير إلى قلبها الذي يعد أوسع بـــاب يقود إلى طريق العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، ولتستمع إلى قصتها في شغف شديد، دونما ملل، رغم سلوك أم الخير مسلك الفلاحات التقليدي في حكايتها، حيث كانت تعيد وتزيد وتحكي ببطء، وتبالغ في الوصف والتشبيه، وتدخل من حكاية إلى حكاية، لكن عزيزة، لم يضق خلقها المستمر في ضـــيقه كلما مرت بها الأيام في السجن، ولم تتأفف من أم الخير، أو تشعر بازدراء نحوها، رغم انطباعها الذي لم يتغير أبدًا عن الفلاحين – باعتبارها سليلة أسرة مدنية قديمـــة – إذ تـــراهم أجلافًا، خشنين، قذرين، لهم رائحة لا تطاق، مثـــل رائحـــة

"صابحة" بائعة الزبد والجبن التي كانت تأتي من الأرياف وتبيت عندهم حتى تغلي الزبد وتحوله إلى سمن، أيام الزمن القديم، حيث كانت أمها تخزن قنطار سمن كل سنة في القدر الخزفية الضخمة التي ضاعت ضمن ما ضاع من متاع موجود بالبيت في الحريق، لكن عزيزة تشعر بأن لأم الخير رائحة أخرى، غير رائحة الفلاحات، رائحة خاصة غامضة، غير رائحة الجلة، وشعر صابحة الفواح بالزناخة الذي تدهنه ببقايا الزبد الملوث لأصابعها بعد وزن كيزانه لينعم شعرها المنكوش ويلين ويتهذب منظره قليلاً، ولقد فكرت عزيزة ذات مرة في تلك الرائحة الغريبة التي تتميز بها أم الخير عن أية امرأة أخرى في السجن، واكتشفت أنها تشبه إلى حد كبير رائحة الأطفال الرضع أي رائحة الحليب الممزوج بالبراءة والرقة والضعف، وربما كان ذلك مبعث حبها لتلك الرائحة، وانسحارها بها، مثلما كانت تسحر في الماضي الجميل الذي عاشته، بتلك العطور السرية التي كان يهديها لها زوج أمها بين الحين والحين، لكن عزيزة لم تجرب رائحة الطفولة هذه، لأنها لم تكن أمًا أبدًا، ولم تكتشف جمال الأمومة في يوم من الأيام، إلا عندما جاءت إلى السجن،

وتأملت عطش الأمهات لصغارهن، وراقبت رضاع الحاضنات منهن في السجن لأولئك المساكين الذين حكمت عليهم الحياة أن يلقموا أثداء أمهاتهم حتى الفطام، خلف الأسوار العالية.

ولعل ذلك هو أحد الفضائل المحدودة جدًا للسجون التي تفرض التأمل، وإمكانية الاكتشاف لجوانب من الحياة، ليس من الممكن معرفتها، أبدًا، إلا من قبل أولئك الذين تذوقوا مرارة الإبعاد، وانتفاء الإرادة، والعزلة الإجبارية عن كل التفاصيل التي يمكن أن تخلقها الحياة في المحيط البشري غير المحدود بحدود السجن، وجدرانه الفاصلة.

تحمست عزيزة لأم الخير كثيرًا حتى أنها استقرت على أن يكون موقع جلوسها، إلى جانبها شخصيًا في مقدمة العربة، وقد جاء هذا القرار الذي يمكن وصفه بأنه عاطفي بعض الشيء، بعدما جرى بين هذه الفلاحة وبين البنت عايدة، وقد أبلغتها عزيزة به، عندما جلست في زنزانتها الانفرادية تحتسي ماءها الخمري، وتدخن سجائرها، بعد أن أحضرت كأسًا أخرى لأم الخير، لتشربا سويًا نخب الصعود السماوي، والجلوس المتميز في العربة الذهبية، لكن أم الخير

لم ترفع كأسها أبدًا، مثلما لم تسمع أذنيهـا قـرار عزيـزة الخطير، لأنها، آنذاك، كانت مشغولة فـي عنبـر العجـزة المجاور لعنبر عزيزة من ناحية اليمين، بهدهدة وتنويم ابنـة حليمة السجانة التي كانت أم الخير تضعها خلال هذه اللحظة بحجرها، وتلقمها ثديها الضخم حليبي اللون الخالي تمامًا من أي لبن، كما يجب أن يكون ثدي امرأة جـاوزت الخامسـة والستين من عمرها، لكنها كانت تواسي الطفلة الرضيعة التي لم تكمل عامها الأول بعد، وترضعها عوضًا عن حليب أمها الأصلية، وحليبها الذي جففته السنون، حنانًا دافقًا، وأغـاني ريفية قديمة، استقرت في قاع الذاكرة، كتذكار ودليل على ما بذلته لأبنائها العشرة الذين ربتهم وأبناءهم الأربعين، وطالما ساهمت إلى جانب أمهاتهم في خدمتهم، كان هؤلاء الأبنـاء العشرة هم حصيلة ما تبقى لها مـن خمـس عشـرة ولادة، أنجزتها بنشاط على مدى حياتها منذ زواجها بعد مرور ستة أشهر على بلوغها، وظهور الإشارة الحمراء الدالـة علـى استعداد جهازها النسوي لوظائف الحمل والإنجاب.

لم تسمع أم الخير قرار عزيـزة السـري الخـاص بصعودها إلى السماء، وكانت تفكر برضا وسعادة لا حـدود

لهما فيما خلفته في الحياة؛ في ذلك الابن الكبير الذي ما فتئ يضع القرش على القرش، ليشتري بين حين وآخر، أرضًا جديدة، يضمها لأرضه القديمة، والصغير الذي ثابر على التعليم حتى حطّ رجله في الجامعة، وذلك الذي دخل الجيش، والبنات اللواتي زوجتهن جميعًا زيجات موفقة مستورة، وما عادت واحدة إليها يومًا غاضبة من زوجها، إلا ونجحت في إعادتها إلى حظيرة الزوج مرة أخرى معززة مكرمة، راضية البال، أما ابنها الرابع ، فقد كان قلبها يخفق بشدة، ويتصاعد الدم إلى رأسها، حتى تشعر وكأن الدنيا تلف بها، كلما تصورت أنه كان من الممكن أن يكون بدلاً منها في مكان فظيع كهذا، وأن ينام مثلما تنام الآن على حاشية إسفنجية بالية طالما نام عليها قبل ذلك عشرات غيرها من أولئك اللواتي ساقتهن أقدارهن إلى هذا المكان، وكانت تستعيذ من الشيطان الرجيم، وتتشهد وهي تتصور، كيف كان سيأكل من ذلك الطعام الرديء، والنفايات الغذائية التي تقدم في السجن، بل وكيف تظل عيناه طوال الوقت، لا تطالع إلا تلك القضبان الحديدية السوداء التي تغم النفس، وتقبض الروح.

تصاعد صوتها متهدجًا بالغناء للرضيعة التي استكانت في حجرها، وحمدت الله لأنها استطاعت إنقاذ ولدها الذي هو نور عينها وعافيتها، من خمسة وعشرين سنة سجنًا، كانت ما قررته المحكمة عليها، وفقًا لقانون تطبيق أقصى العقوبة على تجار المخدرات، فقد سارعت عند مداهمة البوليس للبيت، وأعلنت أن كل ما عثر عليه من مخدرات مخبأ في قفة الأرز المركونة إلى جوار الفرن هو لها، وأن لا علاقة لابنها بها من قريب أو بعيد.

زغرد فرح في قلبها من جديد، عندما تذكرت نجاحها في إنقاذ ابنها الغالي، حتى أنها رفعت ابنة السجانة إلى حضنها وراحت تقبلها في حنان دافق، تصاعد أكثر إلى درجة دفعها في الهواء قليلاً، وإعادة التقاطها مما جعل الطفلة تسعد بتلك الحركات الأكروباتية الممتعة، ففتحت شفتيها عن آخرهما بما يفترض أن يكون ابتسامة، لكن أم الخير كفت عن مداعبة الصغيرة، وعن الغناء بصوتها الحاد الذي طالما أطلقته بالغناء والزغاريد في أفراح بلدتها الريفية، عندما زعقت لولا الكوافيرة محتجة على الزيطة الناتجة عن أم الخير، وبنت السجانة التي اعتادت أمها أن تتركها لتبيت مع

أم الخير في أيام كثيرة، لتوفر على نفسها مشـقة تجهيزهـا وحملها معها كل صباح إلى السجن، من منزلها الذي يبعد ما يزيد على الساعة في المواصلات العامة التي تكون في هـذا الوقت المبكر من الصباح، بالغة الاكتظاظ بالركـاب، علـى نحو غير إنساني، وكانت لولا في هذه الأثناء، مشغولة بفـتح الورق لاكتشاف حظها، بعد أن اعتـذرت أم عبـد العزيـز المكشوف عنها الحجاب كما يشاع في السجن، عـن قـراءة خطوط كفها متذرعة بالنوم.

ظلت عزيزة ساهرة، خلال تلك الليلة، تفكر في أمر الفلاحة أم الخير، وتتعجب من العافية والصحة الموفرة فـي جسدها، رغم العدد الكبير من العيال الذين أنجبتهم عامًا وراء آخر، فهي الوحيدة، بين سائر نزيلات عنبر العجزة التي لـم يطلها مرض ضغط الدم المرتفع، كما أن قلبها ظـل سـليمًا تمامًا، كما قال لها طبيب السجن، بعد أن كشف عليها، أمـا عيناها، فهما حادتا البصر جدًا، إلى حد مكنهـا أن تخـرج قطعة زجاج دقيقة للغاية، يصعب رؤيتها بالعين المجردة، من طرف إصبع عزيزة، بملقاط حواجب، عندما كسـر زجـاج شباك حجرة الكشف الطبي ذات يوم، ووضعت عزيزة دون

انتباه منها يدها على إفريزه العريض الذي كان حافلاً بالقطع الصغيرة غير المرئية المتناثرة عليه، بعد إزالة القطع الكبيرة.

ما كان يدهش عزيزة من أمر أم الخير، أكثر من أي شيء آخر، هو معنوياتها العالية معظم الأحيان، وشعورها الممتد بالسكينة والاطمئنان، مما جعلها السجينة الوحيدة تقريبًا التي رأتها عزيزة لا تدخن، خلال إقامتها الطويلة في السجن، ولا تغالي في شرب الشاي الذي لم تصادفها تشربه إلا مضافًا إليه الحليب.

وبينما كانت عزيزة ساهمة تفكر، وقع بصرها على ذلك الوجه الغريب الذي كانت قد حفرته ذات ليلة من ليالي الملل الطويلة في زنزانتها الانفرادية، على حائط من حوائطه الكالحة التي لم يمسها طلاء منذ سنوات بعيدة، مستخدمة في ذلك مسمارًا صدئًا كانت قد عثرت عليه ذات نهار مرميًا في جانب من فناء السجن، وهو الوجه الذي ما عرفت أبدًا، لماذا رسمته بملامح غامضة، ما رأت أحدًا يشبهها من قبل، لكنها في هذه اللحظة تحديدًا، وبينما هي تتأمله تذكرت واقعة قديمة جدًا، طفت على سطح الذاكرة، مثلما يحدث لها عادة، وربما

لكل أولئك المنفيين المبعدين عن عوالمهم العــاجزين وهــم خلف الأسوار العالية، عن مراكمة ذكريات أخرى، لغيــاب إرادتهم في التحقق والفعل، مثلهم في ذلك مثــل المحتضــر الساعي للتشبث بالحياة، عبر هذه الذكريات المتجسدة، بشكل قل وضوحه في مخيلة العائش لأيامه المعتادة في المجتمــع، غير منقطع الأمل في الحياة.

تذكرت عزيزة واحدة من وقــائع صــباها، حيــث اصطحبها زوج أمها المعشوق من الإسكندرية إلى القــاهرة في زيارة طافا خلالها، سويًا، بكل معالم المدينة، فذهبا إلــى مصر العتيقة، حيث حط عمرو، وبقيت الكنيســة المعلقــة، ومعبد اليهود كشاهد إثبات على الحصن المستســلم، والفــتح المثلج لمدينة كانت تدفع الجزية لمخضعيها منذ زمن طويل، وزارا حلوان المنتجــع، بحــديقتها اليابانيــة ذات التماثيــل الأربعين، ثم عرجا إلى حدائق المدينة الضــائعة الآن فــي الزحام، والإهمال، والرغبة الشريرة في طمس كل مــا هــو أخضر طبيعي جميل، فذهبا إلى حديقة الأنــدلس، وحديقــة الأسماك بجبلايتها السحرية المظلمة حيث قبلها العاشق قبلات مباغتة لا ينسى مذاقها العذب ثم حديقة الأزبكيــة، وحديقــة

الحيوانات التي رأت فيها لأول مرة في حياتها الحمار الوحشي، والطواويس البديعة التي تمنت أن يكون لديها واحد منها، لكن الأيام والسنين، أثبتت لها أنها لم تكن إلا واحدة منها بالفعل.

تذكرت عزيزة كذلك، زيارتها للأهرامات، وأبي الهول المهيب، والمتحف الفرعوني الذي ترك في نفسها أثرًا لا يمحى، وها هي تجلس محاولة الإمساك بالمشاهد البالية التي تخصه، والمتشابكة خيوطها، بخيوط أخرى كثيرة متراكمة في جراب الذاكرة العميق.

طاف برأسها تجوالها مع العاشق القديم، عندما سارا متشابكي الأيدي، كأي عاشقين، معترف بعشقهما، أدمنا العشق منذ زمن طويل، فنضج بما يكفي لتفوح رائحته وتشي به، وتذكرت ذلك التمثال القديم الذي لم تنسه أبدًا، فنهض بقوة من قرار الذاكرة حيث وضعته الأيام، وبدا أمام عينيها متجسدًا، مثلما رأته في الزمن البعيد، إذ كان لامرأة ضخمة، وافرة الجسد، خصبة البنيان، لها رأس على هيئة رأس بقرة ذات وجه طيب حنون، تحتضن بيديها طفلاً صغيرًا، وعندما سألت عزيزة آنذاك عاشقها المعشوق عن ذلك التمثال، قال

لها بينما هو يضمها إليه قليلاً: إنه لآلهة قديمة محفورة في عمق الضمير عبدت لسنين طويلة، وكرست للخصب والجمال، أطلقوا عليها اسم حتحور، وها هي تحنو على إله صغير مقدس يدعى حورس.

حكت عزيزة لأم الخير المفترضة أمامها، بينما هي تتأمل ما رسمته على الحائط مما وافتها به الذاكرة عن التمثال القديم، وكيف أنها وقفت وقتها مشدوهة، تتأمله، وتفكر في شيء غامض لا تعرفه، وهي تتحسس صدرها بيدها، باحثة في داخلها عن معنى كلمة الخصوبة التي كانت تسمعها آنذاك لأول مرة في حياتها.

لم تتصور عزيزة، أن تكون ذات يوم كتلك البقرة الإنسية الطيبة التي تحنو على الأطفال وتشملهم برعايتها، فقد كانت تظن دائمًا أنها خلقت لغير ذلك، وهذا ما أثبتته الأيام لها على أية حال، وكأن مصيرها وسيرة حياتها، قد تحددا في ذلك اليوم البعيد الذي قررت ألا تكون فيه كتلك المرأة البقرة- التمثال الذي وقفت تتأمله، لكن ها هي تكتشف أنها خطت على الحائط رسمًا يذكرها بذلك التمثال، ويستدعيه من الذاكرة، وها هي أم الخير التي جسدتها عزيزة جالسة

أمامها، تلك الليلة، بكل ما تملكه من أمومة دافقة فياضة، تغمر بعطفها الجميع، بما في ذلك عزيزة نفسها، إذ تنادي جميع نساء السجن اللواتي يتعاملن معها باعتبارهن بناتها، بما فيهن أولئك اللواتي يكبرنها في العمر، بل وصلت أمومتها إلى قطة السجن المدللة، لتدلل بذلك على أنها الأمومة الكاملة، الأمومة المطلقة التي ما عرفت عزيزة ما هو نسبي منها في يوم من الأيام، ولا جربته أبدًا، مذ قررت بحس لا شعوري ذات يوم في طفولتها البعيدة أنها لم تخلق للخصب أبدًا، لكنها خلقت للعشق الذي اكتفت به كدور واحد وحيد لها في الحياة، وهو الدور الذي أخلصت له حتى القتل والجنون.

كانت أم الخير، بشخصيتها الأمومية الطاغية، هي الباعث الوحيد، على اكتشاف عزيزة لكلمة الأمومة التي ما دخلت قاموس حياتها أبدًا، فهي لم تشعر حتى من ناحية أمها بما يسمى الأمومة، فكان شعورها تجاهها أشبه بشعور أخت صغيرة تجاه أخت تكبرها بعدة سنوات، بل إنه كان أحيانًا أشبه بشعور الصديقة الصغيرة، نحو صديقة أثيرة، أكثر خبرة منها في الحياة، فثمت ندبة كانت في العلاقة بينهما،

وثمت خيط خفي كان يضعهما على قدم المساواة؛ اكتشفت عزيزة بعد دخولها السجن أنه يتمثل في تعلقهما برجل واحد، عشقتاه سويًا، دون أي نزاع ، أو تناقض، يمكن أن ينتج عن ذلك فبقدر ما كان يعطيها، كانت أمها تأخذ، ابتداء من الهدايا، والملابس الفاخرة الجميلة، والأمسيات الرائعة في أرقى محلات المدينة، وأكثرها إثارة للبهجة، عندما كانت الإسكندرية بحق مدينة لكل الدنيا يؤمها الناس من كل مكان، وتعيش فيها صفوة أثرياء البلاد، وانتهاء بالجسد الذي ما بخل به على واحدة منهما أبدًا، لذلك فإن عزيزة ما شعرت بها كأم قط، لأنها ما أخذت أقل مما كانت تأخذه هي نفسها، وما أعطت أكثر مما كانت تعطيه هي أيضًا، بل إنها لم تضح ذات يوم بشيء، ولم تمتنع عن مطالبة نفسها بمتعة، تميزت بها عزيزة، الأكثر من ذلك أنها لم تشعرها أبدًا أنها الامتداد، أو منبع السعادة والطمأنينة في حياتها، أو أمل مفترض لعمياء مثلها، حرمت نعمة البصر، فوجدت عزاءها في ابنة لها، تسعى لأن تبصر من خلالها ما عجزت عيناها عن الإبصار به.

لكن هذه الجالسة أمامها جلوسًا وهميًا، لا يراه إلا خيالها المتعب الذي دمرته سنوات ممتدة من الوحدة والأسى، هي الإلهة الأم حقًا، إنها الأمومة المطلقة التي تعطي دون سؤال، وتفيض بعطائها على كل من تلتقيه فتضعه في موضع أولادها، وعبر دوائر الدخان المتصاعدة، تجسدت صورة أم الخير في عيني عزيزة، على هيئة تشبه هيئة ذلك التمثال القديم الضخم للمرأة البقرة الآلهة التي نست عزيزة اسمها تمامًا في هذه اللحظات، رغم محاولتها المستميتة للتذكر، واعتصارها نسيج ذاكرتها البالي المشبع بقطرات كثيرة من دمع وحزن، ولحظات سعادة متألقة كخمر عتيقة، لكن دون جدوى الفارق بين التمثال الحقيقي، والمرأة المتجسدة من لحم ودم، كان في ذلك الحليب المتفجر من حلمتي ثدييها، والذي سرعان ما راح يسربلها، حتى انساب من قدميها على الأرض انسيابا، شكل مجرى صغيرًا، رأته عزيزة يمتد حتى تجاوز باب الزنزانة، شاقًا طريقة على بلاط الدهليز الطويل الذي تطل عليه بقية الزنازين، انحنت عزيزة على الأرض لتلعقه وتشرب منه، فقد بدا في عينيها متلألئًا أكثر من أية خمر أسكرتها في حياتها المنصرمة،

واشتهته روحها على نحو لم تشته شيئًا مثله من قبل، فلما لامس لسانها بلاط الزنزانة القديم، وأحست بمذاق ندوبه الخشنة، بفعل كثرة الوطء ومرور الأيام، سقطت قطرات من دموعها ساخنة عليه، ولم ترفع رأسها إلا بعد أن استنفذت كل مخزون الألم واليأس المتراكم في داخلها.

منذ ذلك المساء الحزين الذي قلما عاشت عزيزة مثله، بعدما اعتادت ليالي السجن الطويلة، باتت تعتقد على نحو لا يقطعه شك في أن أم الخير، ما هي إلا إلهة مبجلة من آلهة الجدود القدماء، هبطت من سابع سماء إلى سجن النساء، لتنقذ تلك الأرواح الضائعة المعذبة عذابات الوحدة والنفي والإبعاد، وتواسيها بفيض حنانها، وعظيم عطفها، وقد دعمت تلك النظرية العزيزية العلاقة بين قطة السجن وأم الخير التي اعتبرتها عزيزة علاقة غير طبيعية، لا يمكن أن تنشأ إلا بين إلهة، وحيوان أعجم، فالقطة تنام جل أيامها واضعة بوزها بالقرب من وجه أم الخير، دون أن تنهرها، بل وكثيرًا ما سمعتها عزيزة تحدثها، وتواسيها بالكلام الرقيق في كل مرة يلتهم فيها ذكور القطط صغارها في غاراتهم الليلية على العنابر، أثناء بحثها عما يملأ ضروعها باللبن

لإرضاعهم، ورغم أن معظم السجينات كن لا يبخلن على هذه القطة بحنان من حرمن متعة التعبير عن مشاعرهن، تجاه من يحبونهن، فتبادلهن الحنان بالتمسح بأرجلهن، والمواء الخافت الرقيق، خصوصًا، عندما يرمين إليها بشيء من فضلات طعامهن الفقير أو يمسحون على ظهرها بلطف، إلا أن عزيزة كانت تلاحظ أن القطة تخص أم الخير بمعزة خاصة، من ذلك النوع السري الذي أدركت عزيزة على الفور، أنه لا يمكن أن يمنح إلا للآلهة، لأن تلك القطة المشمشية، ذات العينين الداكنتين والذيل الذي أصبح أزعر، إثر معركة عنيفة، امتدت حتى مطلع الفجر ذات ليلة مع قط عجوز شرس، كانت تفضل المبيت كل ليلة تحت أقدام أم الخير في فراشها ذاته، بل كانت ترقبها في نومها، وتحميها كملاك حارس من أي خطر قد يتهددها، فقد اصطادت في إحدى المرات فأرًا غريرًا، تسلل إلى الصندوق الكرتوني الخاص بأم الخير، والذي كانت تضع متعلقاتها فيه، وفي واقعة أخرى سحبت عنكبوتًا كبيرًا من ذلك النوع القارص السام، من فردة حذائها البلاستيكي المبتكر في مصانعنا المحلية، خلال الستينات، لمواجهة الحفاء التراثي الذي تعود

جذوره إلى حضارة ممتدة منذ سبعة آلاف سنة، وقد كانت أم الخير، وقتها، على وشك وضع قدمها، ذات الكعب المتشقق لكثرة ما انغرست في الطين، بداخله.

لم يكن اكتشاف عزيزة للعلاقة السرية، بين القطة وأم الخير، إلا جانبًا من جوانب اكتشافها لتلك الفلاحة الإلهة التي تمتلك طاقات خارقة، قلما رأت مثلها لدى إنسان آخر، وخصوصًا ذلك الصبر العجيب الذي لا تقوى عليه غير شجرة صبار عجوز حقيقية، والذي لاحظته في تعامل أم الخير مع تلك المرأة الصعيدية الصغيرة البائسة عايدة التي يعرف عنها جميع من بالسجن، أنها مصابة بداء غريب، يجعلها تنسى كل شيء فجأة وتتوه بين الحين والحين، لعدة ساعات أو لبضعة أيام، ويصل بها النسيان إلى حد عدم تذكر اسمها، والعجز عن التعرف على من حولها، بل إلى حد عدم معرفة الأشياء ولأي الأغراض تستخدم، مما يوقعها في مشكلات عديدة، ويجعلها مثارًا لسخرية بعض السجينات اللواتي يجدن في حالتها فرصة للتندر والضحك، خصوصًا عندما تأتي بأفعال غريبة لا منطقية، فلقد حدث مرة أنها نامت واضعة تحت رأسها حوضًا بلاستيكيًا صغيرًا بعد أن

قلبته، عوضًا عن الوسادة، وفي مرة أخرى صنعت شايًا لمحروسة السجانة على سبيل الضيافة، عندما جاءت لتجلس بجانبها على سريرها في العنبر، لكنها وضعت فيه ملعقتين من الفلفل الأسود، بدلاً من السكر، ولولا طيبة قلب محروسة، ومعرفتها بحالة عايدة، لكانت ضربتها كفًا جامدًا على خدها، كأي سجانة أخرى، كانت ستفسر الموقف على أنه سخرية واستهزاء بها من قبل السجينة.

لقد أدركت عزيزة مدى صبر أم الخير، ومثابرتها في الحنو على السجينات، منذ ذلك اليوم الذي سألتها فيه عن خبر عايدة، فقالت لها أم الخير، إنها شابة مسكينة، شافت في الدنيا مصائب وأهوالاً، لا يمكن أن يصدقها عقل بأي حال من الأحوال، جعلتها يتيمة، بالرغم من وجود ذوي القربى الحميمة ثم إنها تعيش بلا أمل، بعد أن فقدت الضرع والجمل، ولعل أفضل ما ينطبق عليها من الأمثال القول الصائب في بعض الأحوال: إن وصلك الطوفان، حط عيالك تحت رجليك، فلما استفسرت عزيزة عن أصل هذا المثل، وكيف ينطبق على عايدة الصعيدية التي ربما تعقد عليها النية، وكانت تقصد بذلك الصعود إلى السماء، تنهدت أم

الخير وسألتها أن تصلي على النبي، فلما صلت عليه – عليه الصلاة والسلام – وزادته صلاة بناء على طلب أم الخيـر، قالت هذه الفلاحة الحصيفة:

– كان يا ما كان في يوم من الأيام، عند غيط مـن الغيطان، أرنب يعيش في جحر مـع أولاده، أسـفل شـجرة جميز عالية على طرف من أطراف الغيط، وفي مـرة مـن المرات، طلب الأرنب من عيل لـه، أن يخـرج ويراقـب الطريق، والغيط، فإن شاف الطريق خاليًا، والغيط لا يشتغل فيه أي نفر من بني آدم، عليه أن يعود بسرعة ليخبره حتـى يأخذه وإخوته الأرانب، إلى الغيط، ليؤكلهم ويشبعهم، ويلعب معهم في سعادة وهناء، وهم جميعًا في أمان وسلام، وبـدون أي خوف من بني الإنسان، فلما خـرج الأرنـب الصـغير، وبحث بعينيه في الغيط، لم يجد جـنس مخلـوق، إلا ثعلبًـا عجوزًا، يدور في المكان عن صيد يأكله، فلما شافه الأرنـب الصغير، قال لنفسه، من الأحسن أن أسأله هـل شـاف أي إنسان في الغيط، أو بالقرب من ذلك المكان، حتـى يطمـئن قلبي وأعود لأبي متيقنًا من خلو الغيط فعلاً من أي إنسـان، فذهب الأرنب إلى الثعلب وحياه تحية الصباح، ثـم أعلمـه

بسبب خروجه، وسأله عن الإنسان، وكان الثعلب قد نوى افتراسه بمجرد أن رآه، لأنه كان في غاية الجوع، والرغبة في الالتهام، لكنه سرعان ما تراجع، إذ فكر أن هذا الأرنب لا بد أن يكون له جحر قريب من الغيط، يعيش فيه مع إخوته، ولعله من الأفضل أن يعرف مكانه، حتى يتسلل إليه كل ليلة فيخطف واحدًا من الأرانب ليتعشى به، ويوفر على نفسه جهد البحث عن فريسة بين الحين والحين، لذلك احتال على الأرنب الصغير وقال له إنه لم ير أي إنسان منذ مطلع الفجر حتى الآن، لكنه يخشى عليه وهو عائد إلى أبيه أن يراه إنسان فيؤذيه، وربما يقتله، مما يوقع أبيه في الحزن والنكد، لذلك سوف يسير معه حتى يصل إلى جحره ويطمئن عليه.

فسار الثعلب إلى جوار الأرنب الذي سر لذلك أيما سرور، والثعلب يسامره طوال الطريق ويحكي له حكاية البطة السوداء الغريرة التي كانت تعيش في الحظيرة مع عدد من الإوز والديوك والدجاجات، وكانت ترى ألوان الإوز البيضاء، وألوان الفراخ الحمراء، وألوان الديوك البهيجة المزركشة، مما جعلها تتضايق وتغتاظ لأنها سوداء، سوادًا

غطيسًا، حرمتها الدنيا من نعمة الألوان، وفي أحد الأيام، شاهدها كلب مهمته حراسة الحيوان عندما يخرج من الحظيرة إلى صحن الدار، وحراسة الإوز عندما يذهب للعوم والاستحمام، وسألها عن سبب كدرها وضيقها، فلما شكت له همها، نصحها أن تتسلل إلى حجرة الخزين في الدار، وتدس نفسها في قفة الطحين، حتى يغطيها الدقيق فتصبح بيضاء ناصعة كالحليب، فتعود عندئذ إلى الحظيرة وهي في غاية السرور، ويذهب عنها الغم والضيق.

فلما كان اليوم التالي، ذهبت البطة إلى حجرة الخزين، ودفنت نفسها في قفة الطحين، وراحت تعفر ريشها ورأسها بالدقيق حتى همدت قواها من الجهد الكبير الذي بذلته في تعفير نفسها، ثم عادت إلى الحظيرة، وكانت صاحبة الدار قد فتحت الباب للإوز، ليذهب إلى النهر القريب، فسارعت البطة للالتحاق بالإوز، لتستحم هي الأخرى، وتمتع نفسها بالماء البارد، وتغتسل لتبدو نظيفة جميلة، فلما وصلت إلى النهر، ورأت الإوز الأبيض سابحًا فيه، نظرت باعتزاز إلى نفسها، ومدت رقبتها كبرًا واستعلاء، إذ كانت تشعر أنها بيضاء جميلة، كالإوز بعد أن اختفى لونها الأسود المغطى

بالدقيق، وسرعان ما ألقت بنفسها في الماء الذي أخذ يزيل ما علق بها من الدقيق الأبيض، ويعيد ريشها الأسود الحقيقـي، فلما اكتشفت البطة ما جرى لها، خرجت إلى النهر، وعادت إلى الحظيرة كسيفة البال، لكن صاحبة الـدار، كانـت فـي انتظارها وهي في غاية الغضب، والسـكين فـي يـدها، إذ قررت أن تذبحها وتأكلها على العشاء، بعد أن اكتشفت أنهـا دخلت في قفة الطحين، وأخرجت من أمعائها ما يخرجه سائر الخلق أجمعين، فلوثت الطحين، وأفسدت ما كانت تخزنه ربة الدار لتصنع منه العجين.

لما وصل الأرنب الصـغير والثعلـب إلـى جحـر الأرانب الواقع أسفل الشجرة، تركه الأرنب مودعًا، ودخـل الجحر لكن الثعلب بقي مختبئًا في مكان مـا بـالقرب مـن الشجرة، يرقب الجحر عن كثـب ليتعـرف علـى مداخلـه ومخارجه، بينما كان الأرنب الصغير في هذه الأثناء، يقص على أبيه ما كان من أمره مع الثعلب، فلما سمع أبوه الحكاية، وفهم مغزاها ومؤداها، طب قلبه بين رجليه، وفهم أن الخطر بات وشيكًا، والكارثة لا بد محيقة، إذ أن الثعلب لا بـد وأن يفترس الأرانب، ويهجم على جحرهم من كل جانب، لـذلك

أخذ يفكر ويفكر، ثم إنه نظر إلى ولده في حزن وقال، اخرج من الجحر مرة أخرى، ولسوف تجد الثعلب في انتظارك، فقل له بمجرد أن تراه، إنك لم تجد أباك وإخوتك في الجحر، وإنهم ربما ذهبوا إلى الجحر الآخر في الطرف البعيد من الغيط، ثم اطلب منه أن يصحبك إلى هناك مثلما صحبته إلى هنا، وعندما تصلان، اتركه وعد مسرعًا، وسنكون في انتظارك.

فلما خرج الأرنب الصغير، وأدرك أبوه أنه هالك لا محالة، إذ رأى الثعلب يسارع بالمسير معه إلى الجحر البعيد الذي لن يجده أبدًا، مما يجعله يكتشف الخدعة، فيغضب ويفترسه وبمجرد أن غاب الثعلب والأرنب عن مرمى البصر، سارع الأرنب الكبير، بجمع أولاده، وهرب بهم من الجحر والغيط كله إلى بقعة بعيدة لا يصلها الثعلب، مضحيًا بأرنبه الصغير، وهو يقول لنفسه: إن وصلك الطوفان، حط ولدك تحت رجليك.

ثم قالت أم الخير لعزيزة: إن ما جرى للأرنب الصغير، هو ما جرى للمسكينة عايدة الصعيدية، فتأملي حكمة ربنا في خلقه، لأن ما يجري في دنيا الحيوان، يمكن

أن يجري في عالم الإنسان. ثم روت لعزيزة ما كـــان مـــن أمرها مع عايدة وهو أنها بينما كانت تجلس مستندة بظهرها على حائط العنبر القبلي تتشمس وتسلي نفسها بلعـــب الكبـــة بقطع طوب صغيرة، بعد أن زهقت من السـيجة، والقطـــة المشمشية تتمدد مستكينة إلى جوارها فوق أحـــدث خطـــوط موضة الشتاء المنشورة في صفحة المرأة بالعدد الأســـبوعي من جريدة الأهرام، وتتابع بعينيها الطوبة الصـــغيرة التـــي تقذفها في الهواء، لتلقط واحدة من بقية الطوب على الأرض، قبل أن تسقط الأخرى المقذوفة، وإذا بأم الخير تسمع صـــوتاً أشبه بعواء أليم ضارع لكلبة من الكـــلاب الأرمنتيـــة وقـــت المخاض، ومع أنها تعرف أن لا موضع الكلاب في الســـجن بسبب ظروفها القدرية التي لا تمكنها من القفـــز، واجتيـــاز السور العالي، أو الولوج من الباب العمـــومي تحـــت ســـمع وبصر الحراس مثلما تفعل القطط عادة ، إلا أنها نهضت من مطرحها على الأرض، ظانة أنه ربما كانت هناك، كلبة تلـــد فعلاً، مما زاد في دهشتها، لكنها لم تبتعد إلا خطوات قليلـــة عن موضعها، حتى رأت عايدة، تجلس أمام وعاء غســـيلها، تحملق في دهول، وهي تصدر ذلك العواء الكلبي، ثم تقضـــم

بأسنانها قطعة من صابون السجن، داكن اللون، وتمضغها بعنف يعادل آلام مخاض لدفع سبعة جراء على الأقل، من الرحم، إلى الحياة.

حكت أم الخير لعزيزة، أنها جرت بسرعة إلى عايدة، لتنتزع من فمها الصابون قبل أن تبتلعه، فضغطت على خديها النحيلين، بيديها القويتين، وهما اليدان اللتان طالما أمسكت بهما الفأس لتعزق الأرض وتقلبها، حتى تمكنت من إجبارها على لفظ كل حشو فمها من الصابون، وعندما تأكدت من أن فمها، لم يعد يحوي إلا تلك الأسنان القليلة المتباعدة، واللسان الصغير الجاف الذي يتهته، عادة، عند النطق والكلام، حررتها من قبضتها القوية، طالبة منها بحنان أن تصرخ، بكل ما تملك من قوة، وطاقة الحزن والألم المكتوم في النفس، عندئذ أطلقت عايدة صوتًا طويلاً ممتداً، ربما لو وجد من يرعاه ذات يوم – وهذا ما لن يحدث بالطبع – لكان لصاحبته شأن مع الأوبرا، إذ كان متماوجًا بالأسى والألم الذي وصل ذروته عندما سقطت مغشيًا عليها.

في مساء اليوم نفسه، بعد أن نقلت، لتبيت مؤقتًا في عنبر الضعفاء الواقع ضمن المكان المخصص من العنابر

كمستشفى للسجن، حكت عايدة التي ظلت تائهــة، لا تتــذكر شيئًا من الأشياء، طوال اليوم، والتي لم تأكل إلا قلــيلاً، دون شهية تذكر، حكت لأم الخير حكايتها، بعــد أن ظلــت إلــى جوارها طوال الوقت، تمدها بشراب الليمون المحلى بالسكر، ليروق دمها، وتدعك لها راحات يديها، وقدميها، ليسري الدم فيهما، بعد أن ازرقت وصارت باردة كقطع الثلج، وكانت أم الخير طوال الوقت، قبل ذلك، ترجوها أن تتكلم، وتحكي عن كل ذلك الذي يؤلمها، لأن اختزانه سوف يقودها لا محالة إلى الجنون، ثم إن عليها أن تثق فيها، وتركن إليها، بل وتضعها موضع أمها الحقيقة التي لا يمكن تعويض حنانهــا بحنــان آخر، عند ذلك الحد من كلام أم الخير، انفجرت عايدة فــي بكاء هستيري، فاق كل البكاء الذي قامت به ســيدة البكــاء الأولى أمينة رزق في كل أفلامها التي مثلت فيهــا للســينما المصرية، لأن أم الخير نكأت بكلماتهــا موضــع الجــرح، ومكمن الألم، حتى أن عايدة ارتمت على صدرها كما ترتمي بنت على صدر أم حقيقية لها – وإن جاء ذلك علــى نحــو مسرحي – وصرخت قائلة إن أمها ضاعت، بل إنها لم يكن لها أم ذات يوم من الأيام أبدًا، مما جعــل أم الخيــر تبكــي

بحرقة هي الأخرى، وتحتضنها بشدة، بعد أن ألقت المرأة البائسة بالكرة في مرمى ملعبها.

كانت السجينات يعرفن أن عايدة، جاءت إلى السجن محكومة بالأشغال الشاقة المؤبدة، بسبب قتلها لزوجها، أما تفاصيل ذلك، وأسبابه، فهذا ما لم يُعرف، إلا بعد أن ألمت أم الخير بالقصة تمامًا، وأصبح من العادي أن تقصها عايدة بنفسها، على أية واحدة من السجينات دون حرج، أو خوف، كي لا تتركها مكتومة بداخلها تفترس مشاعرها، وتأكل في روحها التي طالما تعذبت، ومازالت، عذابًا لا حد له، بات يشكل ملامحها التي هي شاهد حي على ترحيب أجدادنا القدماء، ترحيبًا حارًا بحملة قمبيز العسكرية قبل الميلاد بحوالي خمسة قرون، إذ كانت النظرات الحزينة المهزومة لا تنقطع من العينين الداكنتين اللتين يعلوهما حاجبين كثيفتين طويلتين، لعايدة، وكان شعرها الطويل الآري فاحم اللون، يتهدل على وجهها ذي البشرة السمراء المائلة للزرقة، والحافلة بخطوط وتجاعيد مبكرة، بالنسبة لامرأة لم تبلغ الثلاثين من العمر، إضافة للألم الراقد بداخلها، مما يجعلها على وشك الانهيار، وعلى حافة الجنون الحقيقي.

كانت عايدة في الثالثة والعشرين من عمرها، عندما قرر أهلها تزويجها من ابن عم لها، يكبرها بحوالي عشرين سنة على الأقل، وذلك بعد أن جاء عمها، وزوجته التي طالما تفاخرت بأنها من الأشراف، لاحتفاظ أهلها بوثيقة نسب تتصل بالبيت النبوي الشريف، وبعد أن شربا الشاي مع أمها وأبيها، قرأ الرجلان الفاتحة، ثم أطلقت أمها زغرودة مجلجلة في البيت، تخطت حوائطه، لتصل إلى مسامع الجيران، ولتكون بمثابة إعلان عن حدث سعيد، وبعد ذلك نادت على عايدة وقبلتها أمام الجميع في غرفة المسافرين المفروشة بطاقم كراس أسيوطي، والمزينة بصور فوتوغرافية كبيرة تسع، معلقة في إطاراتها على الحوائط، لأبيها وإخوته، وبعض الأقارب الذين ماتوا منذ سنوات بعيدة، وبعد أن هنأها الجميع، قال لها أبوها: مبروك يا عايدة، عمك خطبك لابنه منسي، زغردت الأم مرة أخرى، زغرودة، أطلقت مثلها زوجة العم التي سوف تكون حماتها المقبلة، وبذلت جهدًا تنفسيًا كبيرًا لتكون أطول من زغرودة الأم.

لم تكن عايدة تكره منسي، مثلما لم تكن تحبه، لأنها في الواقع لم تكن تعرفه عن قرب، فوقت أن كانت ما تزال

طفلة صغيرة، مسموح لها باللعب مع الأولاد الذكور، كـــان هو شابًا، يأتي لزيارتهم في أحوال قليلة لأسباب تتعلق بأمور عائلية يكلفه بها أبوه، ليوصلها إلى عمه، وعندما كانت تذهب مع أمها وأخيها إلى دارهم في المناسبات، لم يكــن يجلــس معهم إلا نادرًا لأن أخاها كان صغيرًا أيضًا، بالنسبة له، وفي السنوات الأخيرة قبل الخطبة، أصبحت لا تراه تقريبًا، إذ كان يعمل مدرسًا في مدينة أخرى بعيدة عن بلدتهم، مما يجعلــه يغيب لفترات طويلة.

قبل الزواج، كانت قد حصلت على شـــهادة دبلـــوم التجارة، وهي الشهادة التي تعتبر الحل الحكـــومي المـــاكر لمواجهة الأعداد المتزايدة من الأجيال الراغبة فـــي التأهيـــل تأهيلاً يمكنها من الحصول على عمل مناسب، وقـــد ســـارع عمها بخطبتها فور حصولها على الدبلوم، لتـــدخل مرحلـــة الإعداد للزواج الذي باتت أمها بسببه في حالة من الســـعادة والفرح تشبه حال دجاجة باضت لتوهـــا فـــي العـــش، لأن العريس، إضافة إلى أنه سوف يرث في المســـتقبل نصـــيب الأسد من أرض أبيه باعتباره الذكر الوحيـــد بـــين بنتـــين، انتعشت أحواله المالية انتعاشًا كبيرًا، بسبب إقباله على إعطاء

الدروس الخصوصية للتلاميذ، مما جعله يساهم في تجهيز منزل الزوجية المرتقب، بكثير من الأشياء التي لا يلتزم بها العريس عادة، فبالإضافة إلى ما وجب عليه من شراء السجاد، والنجف، وخشب المطبخ، وفقًا للعرف المتبع، قام بتركيب مروحة بسقف صالة الشقة المزمعة الإقامة فيها، وغطى جدرانها بورق حائط منقوش، متنافر مع الصالون المذهب الذي اختارته أمها، وقد اعتبر ورق الجدران هذا من قبل جميع أفراد العائلة، والأصدقاء، تحفة فنية، ثمنت العريس عاليًا، وبعد أن استكمل شراء الأدوات الكهربائية اللازمة للبيت من أجور الدروس الخصوصية التي كان يحصلها آخر كل شهر من أهالي تلاميذه، مقابل حصول أبنائهم على جرعات تعليمية من خلال تلك الدروس التي باتت بديلاً للدروس المدرسية التي لا يؤديها المدرسون.

راح العريس، يبتاع كل شيء يجعل الحياة سعيدة رائعة من وجهة نظره، ابتداء من ولاعة الغاز الأوتوماتيكية، وماكينة حلاقة الذقن الكهربائية، وانتهاء بالفيديو الذي كان أول من اشتراه في البلدة، وقد عرض فيلم إسماعيل يس في الجيش ذات يوم مشهود على أمه وأبيه وأختاه، وعدد من

الأقارب والجيران الذين امتلأ بهم بيت أبيه الواسع القـــديم، واستهلكوا خلال ذلك علبة شاي ليبتون كبيرة وكيلو سكر.

قبل الزواج، كانت عايدة، تدرك أن زوجها المقبـــل مدلل للغاية، لا يرفض له طلب عند أبيه وأمـــه، لكنهـــا لـــم تتصور أبدًا، أن له ذلك الطبع الحاد الخشـــن الـــذي لمســـته بمجرد أن تزوجته وبدأت معاشرتها له، وقد أدركـــت بعـــد ذلك، لماذا ظل أخوها غير مرحب بالزيجة لفتـــرة طويلـــة، محاولاً ثني أبيه عن الاستمرار فيها، بحجة أن تمنح شـــقيقته الفرصة، لترتبط بمن هو أفضل من ابن العم الـــذي جـــرى قبوله كزوج لها على وجه السرعة، لكن الأب اعتقد أن رأي الابن بمثابة مساس بكرامته الشخصية، وانتقاص مـــن شـــأن أخيه وابنه، وأقسم بالطلاق المثلث، أنه سوف يطـــرده مـــن البيت طردًا نهائيًا، لا عودة فيه إن هو فاتحه في الأمر مـــرة أخرى.

لم تكن علاقة عايدة بشقيقها الوحيد، من ذلك النـــوع المعتاد في العلاقات بين الإخوة والأخوات في بلدة صـــعيدية بعيدة كبلدتهم، فأخوها رقيق الطباع، هـــادئ الشخصـــية، لا تحكم سلوكه التباينات الحادة التي تحكم العلاقة بـــين الولـــد

والبنت، رغم أنهما تربيا في بيئة تعتبر الذكور أفضل من الإناث، وتتيح لهم كل الحقوق، ولا تسمح إلا بالقليل منها للجنس الذي طالما اعتبر أدنى قيمة، ولم يخلق إلا لوظائف الحمل والإنجاب، ربما كان ذلك بسبب تقاربهما السني، إذ كان يصغرها بعشرة شهور فقط، وقد انقطع بعد خروجه إلى الدنيا كل أمل في الحصول على مزيد من الأطفال، إذ قامت الأم بعد ذلك باستئصال بيت الولد كاملاً، فكان أبوهما يهدد دائمًا بالزواج من أخرى، للحصول على مزيد من العيال، وشعورهما الدائم من الصغر، بالخطر الذي كانت تلقمه لهما أمهما من جراء ذلك، فإن الحميمية التي ربطت بين عايدة وشقيقها، بلغت حدًا لم تشعر معه بالحزن لفراق أبيها أو أمها ليلة زفافها، وانتقالها إلى بيت الزوجية الجديد، ولا لأنها ستنتقل إلى مكان آخر غير بيتها الذي نشأت وتربت فيه، لكن شعورها بالافتقاد كان موجهًا أساسًا تجاه هذا الشقيق الوحيد الذي هو توءم روحها، ورفيق أيامها منذ كانت طفلة صغيرة، ولعل ذلك الشعور بالحنين إلى أخيها الوحيد هو الذي ساهم في تصاعد مشاعر الكراهية تجاه زوجها الذي نفرت منه، ولم تنسجم معه منذ اللحظة الأولى لزواجها، عندما جلست

إلى جانبه ليتعشيا سويًا، بعد أن ذهب أهلها، ففوجئت بشراهته الشديدة للأكل، إذ أجهز على بطة وزوجين من الحمام المحشو بالفريك البلدي، كانت أمها قد أعدتهم لهما، تاركًا لها الفتات، أما مداعباته، وغزله معها، فقد جعلاها تشعر وكأنها غازية من غوازي الموالد اللواتي طالما سمعت عن سلوكهن وأفعال الرجال من طالبي المتعة السريعة، مدفوعة الثمن، معهن، فكرهته عندئذ، وكرهت ملامسته لها، بعد أن باتت تحس أنها دنست دنس سجادة صلاة طاهرة، وطأها خنزير نجس.

خلال شهرين من الزواج، وقبل أن تحمل بابنها الوحيد، كانت الخلافات بينهما، قد تحولت إلى طقس من طقوس حياتهما اليومية المشتركة، فقد بدأت يده تمتد إليها بالضرب، لأسباب مختلفة، تافهة في العادة، كأن تكون قد وضعت علبة المربى في الثلاجة، وهو ما نهاها عنه كثيرًا، لأنه لا يحب المربى صاقعًا، أو تكون قد نامت وفص لبان مرّ في فمها مما يجعله يغتاظ بسبب المذاق المر لريقها، عندما يقبلها، والحقيقة أن عايدة لم تكن تفعل ذلك من باب مضايقته، ولا من باب معاندته، لكنها كانت تفعل ذلك بحكم

داء النسيان الخفيف الذي بدأت تعاني منه آنذاك، وهو النسيان الذي سوف يبلغ ذروته في السجن، فيجعلها تتوه عن الدنيا.

لطالما اشتكت عايدة من زوجها لأمها، باعتبارها أقرب النساء إليها، ولطالما أرتها الكدمات والخبطات الزرقاء على لحم جسدها، لتشعرها بمدى العنف الذي يقوم به زوجها تجاهها، لكن أمها كانت دائمًا ترفض التدخل بينهما، وتحرص على ألا تصل مثل هذه الشكاوى إلى مسامع الأب، بل وكانت تقول لابنتها إنها الملومة، لأنها لا تسايسه ولا تلاطفه، ولا تسعى لفهم طبعه كولد وحيد مدلل، وإنها لو كانت ذكية، حذقة، لجعلته مثل خاتم سليمان في يدها، لكنها حمارة، لا تقدر النعمة التي بين يديها، ولا تعرف قيمة الهدية التي أهداها الله لها، لأن زوجها رجل ملء هدومه، طول بعرض، من عائلة مؤصلة، وله وظيفة ممتازة، وطين سيرته، وإن كل بنات البلد يحسدنها لأنها تزوجت بواحد مثله، ثم إنها تتبطر على الخير، رغم أنها سوداء، لا صدر لها ولا عجز، ولولا ذلك الشعر الأسود الناعم المووروث عنها، والعينان الواسعتان، لما نظر رجل في وجهها طول

عمرها، وأن زوجها لو لم يكن أصيلاً راغبًا في لم لحمه ودمه بالزواج منها، لاستطاع الحصول على واحدة بيضاء شقراء تفوقها جمالاً وحلاوة لأنه مقتدر ويده تطول كل ما يريده ويتمناه.

لم تكن عايدة، تقتنع أبدًا بكلام أمها التي طالما عاملتها بقسوة وبعنف، لم تجد لهما مبررًا واحدًا، منذ طفولتها الأولى، وكانت تتعجب دائمًا، لأن أمها لا تدافع عنها عندما تكون خالتها في زيارتهم، وتتندر ساخرة من لونها الأسمر، وجسدها النحيل، وتقول باستهزاء إنها لا تصدق أن بطن أختها يمكن أن يحمل وينجب مثل هذه الابنة التي عثر عليها، ولابد في كومة من أكوام الفحم في دكان الفحام، وكانت عايدة البائسة ترى أن أمها تقسو عليها أكثر، عندما تصر على حرمانها من البوح بمشكلاتها حتى لأخيها الصديق، محذرة إياها من ذلك، لئلا يغضب أخوها ويثور، فيذهب إلى زوجها ليعاتبه ويناقشه في ذلك، مما قد ينتج عنه خلاف بينهما، قد يصل إلى حد القطيعة ذات يوم من الأيام الأمر الذي جعلها حريصة على إخفاء كل مشكلاتها مع زوجها عن أخيها، بل وكانت تسعى أن تكون أمامه سعيدة

للغاية في حياتها الزوجية التي كانت بالنسبة إليها جحيمًا لا يطاق.

وصلت المشكلات بين عايدة وزوجها إلى ذروتها، بعد مرور عام كامل على زواجهما، دون أن تحمل وتنجب له طفلاً يصبح باكورة إنتاجها لعدد من الأطفال، يكون أبًا لهم كما تمنى دائمًا، وكانت المشكلة من وجهة نظر الزوج أنه لن يستطيع الزواج من امرأة أخرى بسرعة، بسبب النفقات الباهظة التي تكلفها تأثيث منزل الزوجية، وبلوغ منتهى حلمه ومطلبه في حياة ناعمة ميسورة، لذلك فقد أخذ يعير زوجته بين الحين والحين، بعقم مفترض، لم يكن قد أثبت بعد فقد قال لها طبيبان، من أولئك الأطباء الذين يفتحون عيادات خاصة بعد سنوات قليلة من تخرجهم إنها سليمة تمامًا، بينما قالت لها طبيبة مخضرمة في مهنتها، إن تبويضها يمكن أن يكون ضعيفًا بعض الشيء، وأشارت عليها أن تجري بعض التحاليل وأن يقوم الزوج، هو الآخر، بفحص طبي للتأكد من حالته، لكنه عندما عادت إلى البيت من زيارة تلك الطبيبة التي كانت قد قصدتها مع أخته الكبرى، وكررت عليه ما قالته لها، عندما اختليا سويًا،

لطمها على وجهها لطمة قوية، أدارت رأسها، واتهمها بأنها قد وصلت في تطاولها، وعدم احترامها له، إلى حد الانتقاص من رجولته، مؤكدًا لها أنه لو كان تزوج من زمن بعيد امرأة غيرها، امرأة حقيقية، تحبل وتلد، لصار لديه الآن دستة من العيال، وقد حاول إثبات رجولته في هذه الليلة عدة مرات، رغم قرفها الشديد منه، ورغبتها التي تجسدت واضحة لأول مرة، خلال ذلك في أن يموت، ويجيئه طاعون يشيله من مطرحه وهو قاعد.

فرحت عايدة فرحًا شديدًا، عندما أبلغتها أمها بعد ذلك بسنتين، أن زوجها قد فاتحها برغبته في التزوج من امرأة أخرى، فقد رأت في ذلك حلاً سعيدًا لمشكلتها، وانزياح لهم ما تصورت أنه من الممكن أن ينزاح عنها، بهذه السهولة في يوم من الأيام، وقد فوجئت أمها بذلك فشتمتها متهمة إياها بأنها بليدة، وباردة، لا حس أو شعور لديها، لأن أية امرأة أخرى في مكانها، كانت ستبكي وتندب حظها وخيبة أملها؛ وعندما عادت إلى بيتها في ذلك اليوم، بعد زيارتها لأمها، وعلمها بما ينوي فعله، لم تخف شعورها بالارتياح، والرضا، وقد بدا هذا واضحًا في استقبالها البشوش اللطيف له، عندما

عاد من دروسه الخصوصية آخر الليل، فوضعت له العشاء، وعرضت عليه أن يأخذ حمامًا ساخنًا ليريح جسده وأعصابه، وظلت على هذه الحال عدة أيـــام، آملـــة أن يفاتحهـــا فـــي موضوع الزواج، لتقول له: سر على بركة الله؛ وإنها موافقة تمامًا، شريطة أن يطلقها، وتعود مرة أخرى إلى بيت أبيهـــا، لتعيش في دعة وسلام، لكنه جاءها ذات ليلـــة مبكـــرًا عـــن الوقت الذي اعتاد أن يأتي فيه إلى البيت، وطلب منها إعـــداد كوب من الشاي له، ثم بدأ يتحدث معها حديثًا لطيفًا لم تعتده منه من قبل، فأثنى على تسريحة شعرها التـــي مـــا كانـــت مختلفة بأي حال من الأحوال عنها في كل أيامها السابقة، ثم قال لها إنه فكر كثيرًا، وصلى صلاة استخارة توصل بعـــدها إلى أنه كان سيخطو خطوة، ربما ندم عليها بعد ذلك طـــوال عمره، فقد كان ينوي الزواج من واحدة غيرها، لكنـــه ثـــاب إلى رشده وأقلع عن هذه الفكرة السيئة، ثم قال لها "إنـــك يـــا عايدة من لحمي ودمي، وسترك واجب علـــي مهمـــا كـــان الأمر". وأخذ يشيد بأخلاقها التي لا يضمن وجود مثلها لـــدى أخرى، وقدرتها على التحمل، والحياة معـــه علـــى الحلـــوة والمرة، واقترح أن تذهب إلى طبيـــب مشـــهور بالقـــاهرة،

تخصص في العقم، مؤكدًا أنه مستعد لتحمل نفقات أية عملية يقترحها هذا الطبيب أو غيره، مهما كانت كبيرة، لأنه لم يعد مقتنعًا بأطباء البلد محدودي الخبرة، ولا بكل تلك الوسائل الشعبية التي اتبعتها بناء على مشورة أمها وأخته الكبرى، ثم ألقى بقنبلة الليلة وهو يرشف بصوت عال الرشفة الأخيرة من كوب الشاي، فأعلن أنه سوف يذبح عجل جاموس، إن هي حملت بمشيئة الله، أمام مقام السيدة أم الغلام، شفيعة الأطفال ومن يحبونهم، على أن يوزع لحم العجل على الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل في الحي الذي يوجد به مقامها بالقاهرة.

لم يتسن للزوج الآمل في العيال أن يفعل ذلك أبدًا، مثلما لم تتمكن عايدة من استعادة سكينتها المفقودة، مرة أخرى، بسبب تقاعس الزوج عن الزواج، وهكذا اشتعل العنف القديم الممتد بينهما، بعد هذه الهدنة المؤقتة التي كانت مرهونة باحتمال الزواج الجديد، فقد عادت عايدة محبطة إحباطًا كبيرًا مرة أخرى وعاد الزوج إلى إهانته لها، وضربها بشكل بات يتخذ أشكالاً سادية جديدة، فكان يضربها بحزام بنطاله الجلدي أحيانًا وبعصا من الخيزران، كان

يسحبها من حقيبته المدرسية، بسرعة، لينزل بها على أي موضع في جسدها، وهي العصا التي كانت مخصصة لمراهقي المدرسة الثانوية الذين لا يكفون عن الشجار والشغب أثناء الحصص، وفي أحد الأيام، وبينما هو يضربها ضربًا شديدًا قاسيًا، عند المساء، إذ اكتشف أنها غسلت عشرين جنيهًا، وبطاقة عضويته في نقابة المعلمين كان قد نسيها في جيب أحد بناطيله، بعد أن سهى عليها تفتيشه قبل أن تغسله، وأنبها على ذلك فردت عليه بجفاء ولا مبالاة، إذ قالت له ببساطة، ودون أي خوف أو شعور بالذنب، إنها نسيت تفتيش الجيوب، فقام بشتمها، ثم تطور الأمر كما كان يحدث عادة إلى ضرب أسال دمها، لكن هذه المرة اختلفت عن كل المرات السابقة، إذ رن جرس الباب، فجأة، بينما كان يضربها وهي تجري لتختبئ في الحمام، بعد أن أخذ الدم يسيل من أنفها ووجهها، فكف عن ضربها ليفتح الباب للقادم الذي لم يكن إلا أخيها حاملاً معه كيسين من الموز والبرتقال، وأمها التي كانت لا تزال عند الدرجة الأخيرة من السلم تحمل بيدها صينية بقلاوة ملفوفة بعناية في ورق ملون،

يحمل اسم محل الحلويات الذي جرى شراؤها منـــه كهديـــة زيارة بسيطة للزوجين.

لاحظ الأخ، بمجرد أن ولج من الباب، قطرات الـــدم المتناثرة في ارضية الشقة، فسأل عن أخته التي جاءت مـــن الداخل على صوت الجرس، لتستجير بالقادم من الضـــرب، فلما رآها مشوشة الشعر، دامعة العينـــين، داميـــة الأنـــف، مورمة الشفتين، تعلو عينها اليسرى كدمة، لم يتمالك نفســـه من الغضب، فجرى ناحية الزوج، منقضًا عليه آخـــذًا فـــي ضربه، لكن الزوج الذي كان ما يزال مستشـــيطًا، ومـــنفعلاً انفعالا عصبيًا شديدًا، دخل المطبخ بسرعة، وعـــاد حـــاملاً سكيناً كبيرة، طالما استخدمتها عايدة في ذبح الفراخ، وانقض بها على الأخ الذي كانت طاقة عنف هائلة قد اندلعت بداخله، فبدا كالثور الهائج في حلبة السباق، ومـــا كـــان منـــه إلا أن باغت الزوج، ساحبًا منه السكين التي أوشك أن يسددها إلـــى صدره، وأخذ ينهال عليه بطعنات عديدة منها، ســـقط علـــى إثرها الزوج كعجل الجاموس الذي كان ينتـــوي ذبحـــه لأم الغلام.

حاولت عايدة أن تصرخ، لكن فمها الذي فتحته عن آخره، لم يخرج منه غير زفيرها الحار غير المرئي، وسارعت محاولة انتزاع السكين المنغرسة في ظهر زوجها الداخل في احتضاره، لكن أمها التي كانت قد دخلت الشقة، وأغلقت الباب خلفها، سارعت لتحول بينها وبينه، وتمنعها من الاقتراب منه، وكأنها أعدت خطة مسبقة لقتله، إلا أنها – في الحقيقة – كامرأة صعيدية، كانت قد استوعبت على مدى حياتها كل دروس القتل الذي شهدته كثيرًا في بلدة معزولة، يعد الموت عمومًا، والقتل خصوصًا لأجل الثأر، تفصيلة عادية من تفاصيل حياتها اليومية، وقالت لابنتها مشيرة إليها بالابتعاد، بصوت هادئ واثق من حكمة صاحبته:

– ابعدي.. الأحسن أن يموت.

كان ابنها ذو الجسد الناحل الشبيه بجسد أخته، قد سقط منهارًا على أقرب كرسي في المكان، بينما عرق غزير يتصبب من وجهه المصفر صفار وجوه الموشكين على الموت، لكن الأم الجهنمية هزته بعنف طالبة منه أن يمسح عرقه ويفيق لنفسه، فلا وقت للانهيار، وأخذت تفكر في الأمر، وتعد لكل شيء كما لو كان برأسها عقل آلي دقيق،

صنع في اليابان، ثم نادت منبهة ابنتها التي كانت ما تــزال مذهولة، فاغرة الفم من عنف الصدمة، وشدة الرعب، وقالت لها بصوت حديدي جامد:

اسمعي المصيبة حصلت، والحمد لله أنه مات، لأنــه لو كان عاش، لأصبح الموضوع حكاية لا يعرف نهايتها إلا الله، فافهمي يا بنتي، كل كلمة أقولها لك، واعملي بمشورتي من الأول إلى الآخــر، وإلا فــالبوليس ســيعرف الحكايــة، وتصير المصيبة مصيبتين.

كانت خطة الأم بسيطة، ولا تحتاج إلى مهارة كبيرة في ترتيب الأحداث، لكنها كانت محكمة إلى حد كبير، فبعــد أن مسحت بصمات ابنها المطبوعة على مقــبض الســكين، أمرت عايدة أن تدس يمناها في شــعرها المــدهون بزيــت الخروع، وتمسك بالسكين، كما لو كانت هــي التــي قامــت بالقتل، بعد أن أقنعتها أن أخاها لا ذنب له فيما جــرى، وأن الذنب ذنبها، لأنها لم تسايس أمورها، وتتفاهم مع زوجهــا، كما كانت تنصحها، وترجوها، لتسير ســفينة حياتهــا معــه بأمان، خصوصًا وأنها عاقر عقيم، وهو رجل طيب صـــابر على ما ابتلاه الله به من نصيب، وعلى حرمانــه مــن ابــن

يحفظ اسمه على وجه الدنيا كيلا ينقطع ذكره بين الناس، وأن عليها أن تحل المشكلة بنفسها، لئلا تودي أخاها فـي داهيـة وأن تواجه المشكلة حتى النهاية فتعترف بقتله، لأن اعترافها بالقتل أمام البوليس والنيابة، سوف يحسم الأمر، ويوقف نهر الدم الذي يمكن أن يتدفق ويسيل، إلى مدى لا يمكن الـتكهن بنهايته، لو عرف أن القاتل هو أخوها، لأن مسلسل الانتقام، ومسح الدم بالدم بين أسرتهم وأسرة عمها لن ينتهي، فلا بـد أن الأب سوف ينتقم لابنه الوحيد، فيقتل أخاها غير مكتـف بقصاص الحكومة وحكم القضاء الذي لا يعترف به أحد فـي بلدهم، مما سيجعل الأمر في النهاية يؤول إلـى أن يصـفي أبناء العائلة بعضهم بعضًا ويفنى الرجال، بسببها، وهي التي لن يقتص منها أحد، ولن تحكم الحكومة عليها إلا بسـنوات سجن قليلة، لأنها لم تقصد القتل، ولم تضمره لزوجها، مـن قبل، وأن عليها أن تصر على أنها قتلتـه بالصـدفة، أثنـاء قيامها بالدفاع عن نفسها.

لم تقل الأم لابنتها بقية ما خططته، وهـو التخطـيط الذي اكتشفته عايدة بعد ذلك، ولم تنقطع عن التفكيـر فيـه، حتى وقت عضها والتهامها لصابونة السجن السـوداء، فقـد

وعدتها أمها، بينما كان البوليس يحملها في سيارته إلى قسم الشرطة للتحقيق معها، بعد أن انتقل إلى البيت وعاين الحادث الذي هز المدينة الصغيرة، لأنه جاء من بيت لم يكن أحد ليتوقع أبدًا حدوث مثل هذا النوع من الحوادث فيه، وعدتها بأن توكل أكبر محام في القاهرة للدفاع عنها، وبرعايتها تمامًا حتى صدور الحكم، وبعدم التخلي عنها أبدًا طوال حبسها، لكن ما حدث في الواقع، كان شيئًا مختلفًا تمامًا، لم تتوقع عايدة حدوثه بل إنها لم تصدقه أبدًا رغم مرور وقت طويل عليه، إذ أن أمها وأباها أعلنا بمجرد الحكم عليها بالسجن المؤبد التخلي عنها، والتبرؤ منها حتى يوم الدين كمجرمة قاتلة، لم ترع حرمة لقرابة أو دم، بل والأكثر من ذلك أنهما اعتبراها ميتة بالنسبة لهما، دون أن يتقبلا العزاء بها، بالإضافة إلى ما كان أنكى من ذلك وتم لإرضاء أسرة الزوج المقتول، وهو إجبار شقيقها، ذلك الشاب الصغير الرقيق، على الإقدام تحت ضغط الأب والأم، على الزواج من شقيقة القتيل الكبرى، رغم أنها أرملة تكبره بتسع سنوات، ومصابة منذ طفولتها بشلل الأطفال، ورغم أن عايدة حاولت الاتصال بهم بشتى الأشكال، فأرسلت لهم عشرات

الخطابات، ثم شيعت لهم أخبارها مع سجينة من بلدتها التقتها في السجن، وحصلت على إفراج بعد انتهاء نصف المدة المقررة لها، بسبب سلوكها الحميد، إلا أن الأيام والشهور، كانت تتتابع، دون أدنى كلمة من هؤلاء الأهل القاسية قلوبهم قسوة الصخر، مما جعلها تنهار تمامًا، وتندم على اللحظة التي وافقت فيها أمها على رأيها وانصاعت لتنفيذ خطة الاعتراف الجهنمية التي رسمتها، ورغم أنها ترددت وقتها وخافت، إلا أن نظرات الأم الصخرية المخترقة لروجها وكيانها، أخافتها أكثر، بالإضافة إلى خشيتها على أخيها الحبيب الذي ما قتل زوجها إلا لفرط تعاطفه معها، وحرصه على كرامتها الضائعة.

بعد أن فقدت عايدة الأمل في استعادة أي خيط يربطها بأسرتها وبعالمها القديم، وقعت فريسة الحزن والأسى وباتت تشتهي الموت، مثلما تشتهي وتتمنى رؤية أخيها الحبيب الذي طالما أرسلت له الرسائل تستعطفه وترجوه أن يرد عليها، وكان أكثر ما يعذبها أن قلبه الحنون الرحيم بها دائمًا، رضخ لتأثير أمه وأبيه، وطاوعه في التخلي عنها ونسيانها والبخل عليها حتى بكلمات قليلة يرسلها إليها في

خطاب، وهي بهذا المكان الرهيب، بل وكانت لا تتمنى شيئًا في الحياة، قدر تمنيها لرؤيته مرة واحدة لتواجهه وتضع عينيها في عينيه الجميلتين، وتعاتبه على قسوته معها، وهي التي ما قبلت أن تمثل دور القاتلة إلا لأجله، ولأجل الحفاظ عليه سالمًا من غير سوء.

لكنها ذات يوم، وهو اليوم الذي أكلت فيه الصابون التقت بالصدفة في مطبخ السجن بسباك، تعرف عليها منذ الوهلة الأولى، فقد كان يقطن بالشارع نفسه الذي سكنت فيه في بلدتها البعيدة، لما كانت متزوجة، وعرفت أنه محكوم عليه بالسجن أيضًا، ونزيل في سجن الرجال المجاور بتهمة سرقة كابلات التليفونات، فأخذت تسأله عن أحوال أهلها بشغف، فقال لها إن أمها بخير وكذلك أباها وعمها وزوجته، لكنه عندما سألته عن شقيقها الذي كان أمره يهمها، أكثر من هؤلاء جميعًا، تلكأ قليلاً ثم قال لها إنه مات، فقد حاولت زوجته أن توقظه من نومه ذات صباح ففوجئت به لا يرد عليها، فلما أعادت المحاولة مرة أخرى، اكتشفت وفاته، وقد شخص طبيب الصحة الوفاة على أنها بسبب سكتة قلبية مفاجئة، داهمته أثناء نومه، لكن البلد كلها تقول إن زوجته

سمته، بسم نادر لا يترك أية آثار على الجسـد، أو فـي أي عضو من أعضائه، عند ذلك تركتـه عايـدة، وخرجـت لا تحملها قدماها إلى فناء السجن وظلت واقفة، فاغرة الفم، كما كانت لحظة أن قتل شقيقها زوجها، لكنها سرعان ما سـارت إلى عنبرها، وجمعت ملابسها القليلـة، وفـرش سـريرها الأبيض، وذهبت لتغسلهم، رغم عدم اتسـاخهم، فقـد كـان الغسيل، ودعك الثياب، والانكباب عليها بهمة ونشـاط، هـو الوسيلة المثلى التي اكتشفتها عايدة لتفريغ همها، والفضفضة عن مشاعرها المكبوتة، كلما ضاقت بها الدنيا، فحارت معها تصرفا، لكنها، رغم أنها غسلت بما يكفي، وأعادت دعك ما ليس بحاجة إلى الدعك، عدة مرات، شعرت أن الغسيل فـي هذه المرة لا يفرج عن همها، ولا يشـفي غليلهـا، بـل ولا يمتص كل طاقة الألم التي بداخلها، لذلك لم تتمالك نفسـها، فراحت تعوي كما الكلبة من فرط الألم الـذي بـات يمـزق روحها، بل ويتجسد في آلام فظيعة ببطنها، كما لو كانت تلد بالفعل، رغم أنها ما جربت يومًا آلام الولادة والمخاض، ثـم بدأت في التهام الصابون، لأنها وجدته أفضل مـن التـراب الذي تجلس عليه، وكانت على وشك أن تسفه أيضًا، لولا أم

الخير التي جاءت إليها لتضغط على شدقيها بقوة، ومنذ تلك اللحظة، لم تدر أو تع شيئًا، حتى فتحت عيناها مرة أخرى، لتجد نفسها على سرير في مستشفى السجن.

كانت عزيزة طوال استماعها لحكاية عايدة، تحملق في الأرض دون أن ترد إلا بكلمات قليلة لتؤكد لأم الخير أنها مازالت تسمعها وتتابع حكايتها، خصوصًا عندما تتوقف أو تحكي في بطء لتشد عزيزة إلى حكايتها عن عايدة التي جعلت الأخيرة تفكر أثناء متابعة تفاصيلها في كمية الألم والحزن اللذين عانت منهما هذه المرأة الصغيرة، بسبب تنكر أهلها لها، وكان ما يدهشها في الحكاية أكثر من أي شيء آخر، قسوة الأم العجيبة وجحودها، وتخليها عن ابنتها في مثل هذه الظروف الصعبة، كما أدهشتها كثيرًا تقاليد الصعيد الجامدة، والإصرار على الأخذ بالثأر، ومواجهة الدم بالدم، لأنها تعكس جهلاً بأمور الدنيا، وقصورًا في فهم القصاص، فلو كانوا يدركون ويفهمون الحياة مثلما أدركتها وفهمتها ، لعرفوا أن ثمة قانون خفي للعدالة، قانون يتجلى فيه القصاص بألف صورة وصورة، ولربما اقتص المجني عليه من الجاني بنفسه، إذ يعيش بداخله ليؤرق ضميره ويعذب روحه.

ثم إن هناك قصاص الزمن الذي يقتص من كل شيء في الحياة، عبر التحول الدائم والتغير لكل ما يبدو وكأنه لـن يتغير أبدًا، كمشاعر الأمومة التي تحولت لقسوة بالغة من قبل أم عايدة.

بعد أن انتهت أم الخير من حكايتها عن عايدة، بعـد أن قصتها بدقة، ودونما أدنى تحوير في خطواتها الرئيسـية، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، ورفعت يديها بالـدعاء، طالبة الخير والصحة والعافية لأولادها العشرة، وأن يوقـف لهم أولاد الحلال لتسلك أمورهم في الـدنيا، عندئـذ كانـت عزيزة، بعد أن فكرت وفكرت، قد استقر قرارها على ضـم عايدة أيضًا إلى عربتها الذهبية الصاعدة إلى السماء، لكنها لم تقل ذلك مباشرة لأم الخير، إذ فضلت أن تتدلل عليها قلـيلاً قبل ذلك، فطالبتها بصنع مهلبية باللبن المجفف والنشا بيـدها الحلوة الماهرة، ثم قامت فناولتها قليلاً من السكر وضعته في طبق كمساهمة منها في المهلبية ، وهمست لها:

قولي لعايدة بينك وبينها في السر، إنها طالعة معنا إن شاء الله.

ولم تفكر أم الخير للحظة واحدة فيما قالته عزيـــزة، لأنها كانت لا تأخذ بكلامها مأخذ الجد لقناعتها بـــأن عقلهـــا خفيف.

في العربة الذهبية ذلك أفضل جداً

بدا البلاط القديم لعنبر عزيزة الإسكندرانية، نظيفًا لامعًا، رغم لونه الأبيض الكالح الذي عفا عليه الزمن، لكثرة الاستخدام، بعد أن أخلصت البنت جمالات في دعكه بالخيشة، والماء المضاف إليه قليل من سائل الكلور المسموح به دون غيره من سوائل التطهير والتنظيف، ليستخدم كالفنيك الذي تفضله عزيزة لرائحته القوية النفاذة، لكنه لسوء الحظ كان ممنوعًا، لأنه يعبأ في زجاجات داكنة، وليس في عبوات بلاستيكية، شفافة، لا يخشى من استخدامها في حوادث عنف قد تنشب بين نزيلات السجن.

نظرت عزيزة برضا إلى البلاط المغسول الرطيب رطوبة محببة في ذلك الوقت الحار من السنة، وإلى الحاشية الرقيقة المركونة إلى جوار الحائط على الأرض، بعد أن تخلت راضية عن سريرها الفردي الحديد، لواحدة سياسية، من اللواتي تراهن بين مدة وأخرى، دون أن تجد سببًا مقبولاً، لإيداعهن السجن، ووضع الحكومة رأسها برءوسهن،

وقد بدت هذه السياسية لطيفة جدًا في علاقتهـا بعزيـزة، إذ حيتها ذات مرة أثناء عبورها بالدهليز، وهـي واقفـة مـع عظيمة الطويلة، فتشجعت عزيزة، واقتربت منهـا لتعـرف حكايتها، بعد أن ابتسمت السياسية ابتسامة واسـعة مرحبـة، وقد خمنت أنها ربما كانت شيوعية، أو من الإخوان، لأنهمـا النوعين الوحيدين من السياسيات اللـواتي التقـت عزيـزة ببعضهن، طوال فترة وجودها في السجن.

فكرت بسرعة أن السياسية لا بد أن تكون شـيوعية، لأنها غير محجبة، وبدا عليها المرح والبساطة بعض الشيء، فلامت عزيزة نفسها، لأنها لم تعد كما كانت في السابق تفهم الأمور وهي طائرة، لأن عقلها صاح، وتفكيرها نشيط، فلما تحدثت معها، قالت البنت الكلام الذي كانت عزيزة قد سمعته من الشيوعيات اللواتي التقتهن في السجن مـرات ومـرات، دون أن تفهم منه شيئًا، أو تدرك سببًا لكـل وجـع الـدماغ والقلب اللذين تجلبهما نساء على شاكلة هذه الفتاة لأنفسهن، إذ أن معظم اللواتي التقتهن عزيزة كن متعلمـات محترمـات، يشغلن وظائف لا بأس بها، ويعشن في ظـروف ميسـورة، أحسن من ناس كثيرين، فقد رأت دائمًا الزيارات المفتخـرة

الداخلة لهن كل يوم والثاني، والسجائر الواصلة بالخرطوشة لمعظمهن.

لذلك تنهدت عزيزة وتصعبت بعد أن استمعت إلـى حكاية البنت التي لم يكن فيها أي جديد بالنسبة لها، إذ طالما سمعت مثلها من كثيرات قبلها، وظل رأيها فيها دائمًا، أنهـا حكايات لا تهش ولا تنش، ولا رجاء فيها، لأن النـاس فـي دنيا، وهؤلاء السياسيات في دنيا ثانية بحق وحقيق، لأنهن لا يعرفن شيئًا عن حياة الناس الفقراء الذين يتحدثن عنهم دائمًا، ثم إنها أطلت برأسها إلى زنزانة السياسية فلـم تجـد بهـا سريرًا، ورأت مرتبتها الإسفنجية موضـوعة علـى الأرض فلما سألتها السياسية عن قصتها، حكت عزيزة جانبًـا منهـا باختصار، فابتسمت تلك الفتاة مرة أخرى، وطيبـت خـاطر عزيزة مقدمة لها، على سبيل الهدية، علبة سجائر مارلبورو كاملة، مما جعل عزيزة تمتن جدًا لذلك الكرم الشديد، وتحار في الكيفية التي ترده بها، وبينما هي راجعة إلـى غرفتهـا قررت أن تعطيها سريرها الحديد، لأن عزيزة لا فرق عندها في النوم على سرير يرتفع عن الأرض، أو علـى فـراش موضوع على البلاط مباشرة، فالجو وقتها كان صيفيًا حارًا،

ثم إنها فكرت كذلك في أن تصحبها إلى السماء عند ساعة الصفر التي ستصعد فيها العربة الذهبية ذات الأفراس المجنحة، وقد حققت عزيزة بالفعل فكرتها الأولى، إذ طلبت من البنت جمالات، وعظيمة الندابة، أن تحملا السرير وتضعاه في عنبر السياسية، أما فكرتها الثانية، فقد أجهضتها الحكومة، إذ أفرجت عن البنت بعد انقضاء شهر واحد على حبسها، مما جعل عزيزة، تندم ندمًا شديدًا في البداية، لأنها لم تخبرها بأمر بالصعود السماوي قبل أن تحصل على أمر الإفراج عنها، فالبنت السياسية، كانت ولابد سوف تتحايل على الأمر، حتى لا تغادر السجن وتنضم إلى راكبات العربة الصاعدة إلى العالم السماوي الجميل الذي لا مثيل له على الأرض أبدًا.

لكن عزيزة، بعد قليل من التفكير، حمدت الله على خروج البنت من السجن، لأنها لو انضمت للعربة بالفعل فإنها لن تكف بالتأكيد عن الكلام في السياسة، وتحريض كل من فيها ضد الأوضاع المزرية التي عشنها في السجن، مما يجعل الحكومة تقلل عقلها، فتقبض عليها، حتى لو كانت العربة قد ارتفعت فعلاً في عنان السماء لأن لدى الحكومة

طائرات كثيرة يمكن أن ترسل إحداها للقبض على هذه البنت، مما يعرقل أو يفشل عملية الصعود.

تأملت عزيزة الحجرة الواسعة جيدًا وبعد أن تأكدت من ترتيب الأشياء القليلة الموجودة بها، وهي ثيابها القديمة، ومشطها ودبابيس للشعر، وبعض الأطباق والأكواب البلاستيكية، وأيقنت أن كل شيء فيها صار نظيفًا مرتبًا، على ما يرام، نظرت برضا إلى جمالات التي جعلت ذلك كله على ما يرام وقالت لها:

– إن شاء الله تسلمي يا جمالات.. والله روحي ردت.

ابتسمت جمالات ابتسامتها الطيبة التي تجعل وجهها المستدير، ملائمًا للطبع على مغلف من مغلفات حلوى الأطفال، وردت على عزيزة قائلة :

– يعني أنت راض ومبسوط يا قمر؟

جالت عزيزة ببصرها في أرجاء الغرفة مرة أخرى، بنوع من الترفع المفتعل الذي تظهره عادة في حضور من هم أدنى منها، منذ زمانها القديم، ثم صمتت قليلاً، وقالت:

– طيب.. اغسلي الصفيحة وحياتك، وحطيها في مكانها، وتعالى كلي لقمة تسند بطنك.

خرجت جمالات لتغسل صفيحة الفضلات التي كانت قد تركتها بالحمام الجماعي الموجود في نهاية الدهليز المطلة عليه العنابر، فأخذت عزيزة تعد لها رغيفًا وقطعة من الجبن الأبيض الذي كانت عظيمة الندابة، قد أعطتها بعضًا منه، إضافة إلى سيجارة كليوباترا من النوع المحلي، غير المخصص للتصدير، لغنى توليفته بنشارة الخشب، ربما بسبب الحرص على صحة المدخنين، بالإضافة إلى ثمرة جوافة من أصل أربعة، أعطتهم لها صفية هيروين التي وزعت قفص جوافة على صديقاتها، ومحباتها، كان ولداها قد جاءاها به في الزيارة، فلم تحتفظ به، خشية أن تفسد الجوافة، إن هي ظلت لديها عدة أيام، خلال ذلك راحت عزيزة تفكر في أحوال البنت جمالات.

عادت جمالات ووضعت الصفيحة النظيفة في ركن الغرفة البعيد عن الفرش والملابس، ثم جاءت لتجلس القرفصاء، على الأرض الممسوحة، قبالة عزيزة، وأخذت

تغمس الخبز بالجبن، بعد أن وضعته على سطح الرغيف، ثم قالت وهي تمضغ:

- عاوزة رأيك في موضوع يا خالة عزيزة.

- خير !؟.

ردت عزيزة بتساؤل، وقد جحظت عيناها اللتان ركزتا بصرهما على وجه جمالات الملائكي السمات، قليلاً، لأنها ظنت أن جمالات سوف تفاتحها في موضوع العربة الذهبية المجنحة، ورغبتها في الانضمام إليها عند صعودها إلى السماء.

دفعت جمالات ما تبقى من الخبز في فمها مرة واحدة، بعد أن نفد الجبن، وأردفت بينما هي تدفع بلسانها حصوة صغيرة، عثرت عليها في لقمتها الأخيرة، لتلفظها من فمها:

- تعرفي.. لما أخرج من هنا إن شاء الله، بعد نهاية مدة الحبس، فكرت أغير شغلي لأن السرقة أصبحت مشاكلها صعبة، وكلها جري ورمح ونط هنا وهناك، وفي آخر اليوم،

لا حاجة تجيب همها، أنا فكرت أشتغل شغل البنات الأصلي، وكفاني وجع نافوخ.

اتسعت عينا جمالات الواسعتان أكثر، وهما تنظران إلى عزيزة ببراءة ، بينما كانت تفضي إليها بهذا التصريح الخطير الذي لم تقله لأحد غيرها من قبل، أبدا، لأنها تثق بها وتشعر معها بالراحة والأمان، رغم كل ما يشاع عن جنونها في السجن، لذلك فضلت خدمتها على خدمة زعيمات المخدرات اللواتي يغدقن بلا حساب على كل من يتعاملن معهن ويقمن بخدمتهن، واللاتي يشترين كل شيء في السجن بفلوسهن الكثيرة، بما في ذلك السجانات أنفسهن، لكن جمالات رغم شعورها بجنون عزيزة، بعض الشيء، لأنها تنظر إليها نظرات مخيفة أحيانًا، وتبتسم دونما مناسبة في أحيان أخرى، أثناء أحاديثهما، إلا أنها تعتبرها إنسانة طيبة حنون، وما بيدها لغيرها دائمًا، فما قصدتها جمالات يومًا في طلب شيء إلا وقدمته لها إذا كان بمستطاعها، لذلك لم تأخذ جمالات أبدًا، بكل التحذيرات التي طالما سمعتها من بعضهن، بخصوص عزيزة، وقولهن إنها قد تضربها أو تعتدي عليها، إذا ما غضبت أو ثارت، ثم إن جمالات لم تجد

من هي أفضل من عزيزة في السجن لتخدمها وتؤاخيها، كما يجب أن تكون المؤاخاة بين السجينة والسجينة، إذ تصـــيران كالأختين المخلوقتين من رحم واحد، تتراحمان وتتعاطفـــان، وتربط بينهما محنة العزل، وعقوبة الحبس داخل الجـــدران، وها هي تبوح لها بسرها، وتستشيرها فيما هي ناوية علـــى فعله، إن قدر لها أن تعيش وتخرج بعيدًا عن هذا المكان، لأن عزيزة كبيرة، وفاهمة الدنيا أكثر منها، ولها نظرة في الناس حكيمة، طالما أثبتت الأيام صحتها.

أطرقت عزيزة برأسها في الأرض، مفكـــرة، ولمـــا طال إطراقها وسكوتها على جمالات، واصلت الفتاة كلامهـــا لتوضح وجهة نظرها فقالت:

– الدعارة سهلة ومأمونة، وأحكامهـــا خفيفـــة، لـــو حصل أن البوليس عمل كبسة، ولو ركزت فيها ســـنة وراء الثانية، عملت لي قرشين منها، وبعدها، أبعد عن الهم كلـــه، وأفتح لي دكاناً وأتاجر في أي شيء، يطلع لي لقمـــة عـــيش والسلام.

لم ترد عزيزة كذلك، لأنها كانت مشـــغولة بمتابعـــة نملة فارسية كبيرة، راحت تجرجر فتيتة خبز صغيرة سقطت

من جمالات على الأرض، بينما كانت تأكــل، منــذ قليــل، تعقبتها عزيزة ببصرها حتى أوشكت على الدخول في مكمنها بخرم أسفل إفريز باب الزنزانة القديم الذي تقشر طلاؤه حتى بان لون خشبه داكنًا مسودًا، لكثرة الاستعمال، عندئذ قالــت لها:

– تعالي لفوق أريح لك.

ردت النملة بأن اختفت في الخرم تمامًا، أما جمالات التي لم تفهم ما تقصده عزيزة بكلامها، فقد تشاغلت بإبعــاد خصلات شعرها البنية الناعمة التي تساقطت على وجنتيهــا وقالت:

– تعرفي.. إحتمال أن يجيبوا لنا لحمًا بكرة، نفســي ألاقي فيه هبرة سمينة، أسلقها، وأعمل بمرقتها فتــة بالخــل والثوم، ونقعد، نتغدى أنا وأنت هنا.

رفعت عزيزة رأسها عــن الأرض، وطلبــت مــن جمالات أن تقوم، فتعمل لهما كوبين من الشاي، فلما وقفــت، ظلت عزيزة تتابع جسدها الممتلئ قليلاً، وســاقيها البضــتين البيضاوين، بينما أخذت تفكر فيما قالته لها، فهذا الكلام جديد

عليها، لم تقله من قبل أبدًا، رغم الشهور الطويلة التي مرت على علاقتهما وتآخيهما في هذا السجن، ورغم معرفتها الدقيقة بالبنت وقصتها التي أدت إلى حبسها في السجن.

كانت عزيزة تعرف أن جمالات تنتمي لأسرة من الغجر السراقين المحترفين للنشل والسرقة، أبًا عن جد، وأن رجال العائلة، يمارسون نشاطهم في السعودية والخليج، خلال موسم الحج بشكل خاص، حيث يكون الازدحام البشري، وتنوعه حقلاً ممتازًا لعملهم، أما جمالات وأختها اليتيمتا الأم فقد عاشتا حيث احترفت جمالات نشاطها اللصوصي في مدينة طنطا على وجه التحديد، خصوصًا أيام مولد السيد البدوي، حيث يكون زحام الناس على أشده، وانصرافهم إلى مباهج المولد في ذروته، مما يتيح الفرصة للسرقة بسهولة ويسر.

لكن جمالات، جرى توقيفها لسبب آخر غير السرقة، والمسألة أن أختها التي تصغرها بحوالي ثلاث سنوات، والتي تفوقها جمالاً، كذلك، تعاني من تخلف عقلي ونقص في الذكاء، بسبب تعطل بعض وظائف المخ أثناء ولادتها المتعسرة التي توفيت أمها على إثرها، وقد تعرضت هذه

الأخت التي تمتلك شعرًا أكثر نعومة من شعر أختها، وعينين عسليتين جذابتين، لملاحقة شاب لها، حاول توريطهـا فـي علاقة معه، بعد أن لاحظ أنهما تسكنان بمفردهما فـي شـقة مفروشة، وهو الشيء غير المستحب اجتماعيـا بسـبب مـا كرسته السينما المصرية عن سكان هذه الشقق، مـن أفكـار تسمهم بعدم الاستقامة الأخلاقية عادة، وبسبب ارتباطها بعالم النفط الذي انتعشت بسببه عمليات تأجيرها، وما ترتب علـى ذلك من أفعال لا يرضى بها شرع ولا ديـن، والمشـكلة أن الأخت العبيطة، موفورة الجسد، كانت تهتم باللبان والحـلاوة الفولية، أكثر من اهتمامها بذلك الشاب الذي لم تكـن تشـعر بوجوده وملاحقته لها، مثلما لم يكتشف هو تخلفها أبدًا، لكـن جمالات خافت أن يتهور هذا الشخص يومًا، ويفعل مع أختها ما لا تحمد عقباه فتصير المشكلة التـي تواجههـا جمـالات مشكلتين، إن ترتب على ذلك، مع الأخـت، مخلـوق ثالـث صغير، تضطر لإعالته كما تعول الأخت – الصليب الـذي تحمله على ظهرها دومًا، وينغص حياتها ليلاً ونهارًا، فهـي تصحبها دائمًا عند الخروج، وإن تركتها، كان عليها إحكـام إغلاق النوافذ جيدًا، ولف مفتاح باب الشقة من الخارج عـدة

لفات، خشية أن تفتحه العبيطة، أو يتمكن أحد من فتحه من الخارج، ورغم كل ذلك تظل جمالات، وهي بعيدة عنها، واقعة تحت هاجس تعرضها للخطر في غيابها، كأن تعبث بأداة حادة، أو تشعل النار في البيت دون إرادة منها.

حاولت جمالات – في الحقيقة – أن تجعل أختها تساهم في إعالة نفسها، فجربت أن تعلمها مبادئ السرقة، وأساليب نشل خفيفة، لكن هذه الأخت كادت أن تحدث مشكلة لجمالات، إذ طلبت من رجل عجوز يسير في الطريق، صراحة أن يعطيها ما بجيبه من نقود، بعد أن سددت إلى صدره كوز ذرة كان بيدها تأكل منه، ولولا أن العجوز، اعتبرها مداعبة لطيفة من شابة صغيرة لا تخلو من شقاوة، لكانت المسألة قد كبرت إلى حد لا يعرف مداه إلا الله.

كانت جمالات، قد نصحت الشاب الذي يعمل كصبي حلاق نسائي في محل أسفل العمارة التي تسكن بها مع أختها، بألا يتعرض لهذه الأخت وإلا فإنها سوف تضربه علقة تجعله فرجة، لكل من يتفرج ولا يشتري، وطالبته بالابتعاد عنها، وتركهما لشأنهما، لكنها فوجئت ذات يوم بالشاب يدق باب البيت، فلما فتحت له لتنهره وتقول له إنه

يجب ألا تصل به الأمور السخيفة التي يقوم بها معهما إلى حد الملاحقة حتى باب الشقة، دفعها بشدة، بدلاً من التراجع والاعتذار، محاولاً الولوج إلى الداخل، فما كان منها إلا أن جرت، فحملت المكواة الساخنة التي كانت تكوي بها حينئذ بلوزة حريرية، حمراء، سرقتها من محل شهير بالمدينة، وقذفته بها بعد أن خلعت سلكها الموصل للكهرباء، فأصيب الشاب على الفور بارتجاج في المخ، حسب تشخيص أطباء المستشفى العمومي، لأن المكواة سقطت على رأسه مباشرة.

فكرت عزيزة في أن لولا الكوافيرة، يمكن أن تكون هي التي حاولت إغواء جمالات، لأن لولا قوادة محترفة، ترددت على السجن عدة مرات بسبب إدارتها لشبكات دعارة متعددة، وكان من بين ضحاياها طالبات جامعيات، وموظفات، ونساء لهن وضعهن الاجتماعي، لكن عزيزة تراجعت عن فكرتها هذه، لأن جمالات تكره لولا كراهية لا حد لها، وهي دائمة السخرية منها بسبب اكتشافها لشذوذها، فقد كانت لولا تلتصق بجمالات، دونما مبرر معقول، كلما رأتها واقفة في فناء السجن، وتحرص على ملامستها بطريقة غير طبيعية، وظلت جمالات في بداية الأمر، تفسر ذلك على

أنه نوع من الحب والحنان، وتسعد به كثيرًا، لأنه ما من أحد يحنو عليها، أو يحوطها برعايته، لكنها في أحد الأيام، كانت تستحم في حمام السجن، والماء يتساقط من الصنبور ضعيفًا، لأن محبس الماسورة العامة الموصلة للمياه كان مكسورًا منذ حوالي شهر، والماء يتسرب منه، فلا يصل بالقدر الكافي إلى صنبور الحمام، فطلبت من لولا أن تحضر لها وعاء ممتلئًا بالماء ولما أدخلتها لتضع الماء اقترحت عليها أن تدلك لها ظهرها بالليف والصابون، وقد اكتشفت جمالات أثناء ذلك أن لولا ترغب في أداء دور أبعد من عملية تنظيف المواضع التي لا تصل إليها يد جمالات، وكانت أنفاسها تتلاحق وهي تتغزل في تفاصيل جسدها الذي كان جميلاً بالفعل، رغم ميله للامتلاء قليلاً، ورغم أن جمالات سارعت بطردها، لأنها لم تكن بحاجة إلى المزيد من الدلائل، للتأكيد على فجورها ووقاحتها، إلا أنها لم تكتف بذلك، بل شهرت بها أمام كل من هب ودب في السجن، وخصوصًا أولئك اللواتي يحببن الثرثرة في الأمور التي من هذا النوع، كحيزبونات عنبر العجزة، وأم رجب باعتبارها عين الإدارة على السجينات. صحيح أن التشهير أفاد لولا في جانب منه، لأن سنية مطار،

وهي أشهر تاجرة مخدرات في السجن، محكومة بالمؤبد بسبب جلبها المخدرات من خارج البلاد بالطائرة، تلقفت الخبر بسعادة بالغة وضمت لولا إلى قائمة عشيقاتها، إلا أن السخرية المرة التي كانت جمالات لا تفتأ تمنح جرعات منها للولا، كلما التقتها، ساهمت في تسميم عيشتها، وجعلتها في حالة ضيق دون أن تقوى على الرد، لا بسبب أدبها وعفة لسانها الذي لم يعرف العفة في يوم من الأيام، مثله مثل بقية جسدها، ولكن لأنها كانت، ورغم الإهانات، ورغم الجفاء، واقعة فعلاً في غرام الفتاة الصغيرة التي باتت تؤرق لياليها.

لم تعرف عزيزة أبدًا، من التي تقف وراء فكرة تغيير جمالات لنشاطها، وكيف تسنى لها إقناعها بذلك، لأن عزيزة لم تتعرف بعد على هدى، أحدث نزيلات عنبر الجرب التي وصلت السجن منذ أسبوع واحد فقط، ورغم كونها أصغر امرأة – زوجة في السجن كله، إذ أن عمرها تجاوز السادسة عشر عامًا، وهي أم لطفلين، إلا أنها استطاعت إقناع جمالات بتغيير نشاطها، إلى ما هو أنجح وأكثر عملية، من وجهة نظرها، بحكم تجربتها القصيرة العميقة في الحياة.

جاءت هدى إلى سكة الرذيلة عبر دروب ملتوية، لم تكن تتصورها أبدًا كانت البداية قبل سنوات، عندما دخلت، لأول مرة، مع أمها قسم الشرطة، لا كمتهمة مدانة من قبل الحكومة، ولكن للإبلاغ عن قتل دجاجة، كانت الأم تملكها بالإضافة إلى أربعة عشر دجاجة أخرى، أشرفت على تربيتها منذ لحظة خروجها من البيض وحتى صارت دجاجات بياضة، وقد وجهت أم هدى اتهامها ضد جارة تعيش في عشة مجاورة لعشتهما في أحد أطراف المدينة التي تكاثرت في غضون سنوات معدودة وتمدد جسدها، لتصبح كما لو كانت عدة مدن ريفية كبيرة؛ قبل ذلك كانت الأم قد ذهبت إلى المستشفى الحكومي، ليس بسبب عينها التي فقدتها في المشاجرة مع الجارة الجبارة التي أصابتها بضربة مباشرة في العين، مستخدمة في ذلك طوبة كبيرة، كانت كافية لأن تفقأها، بل لإقناع الطبيب المناوب الذي لم يقتنع بالطبع بتحرير شهادة وفاة للدجاجة القتيلة، تثبت أنها قتلت خنقًا، حتى تتمكن من تقديمها للبوليس، ليتخذ الإجراءات اللازمة ضد الجارة.

لما فشل الطبيب في إفهام أم هــدى أنـــه لا يحــرر شهادات طبية للدجاج، لكنه يمكنه تحرير شهادة يثبت فيهــا حالة الضرر الجسيم الذي ألم بعينها المفقوءة؛ تركتـــه علـــى أساس أنه من الحكومة التي لا تفهم أبدًا جــوهر المشـــكلة، وحقيقة الأمور وتوجهت إلى قسم الشرطة الذي التقت علـــى بابه بشاويش مخضرم لم يهــتم بعـــين الأم الضـــائعة، ولا بالدجاجة المغدورة التي كانت ترقد بلا حراك ملفوفة بطرف الطرحة السوداء الطويلة للمرأة قدر اهتمامه بالجسد الأبيض البض للبنت الصغيرة التي كانت تقف، آنذاك، ملتصقة فـــي خوف بأمها، ترقب ما يدور أمامها بحذر، فقدم لهما مشروبًا صاقعًا على حسابه، وهذا ما لا يحدث في أقســام الشــرطة، عادة، وطمأن الأم أنه لا بد منتقم مـــن عـــدوتها المجرمـــة، وسألها عن البنت وأحوالها، ولم تمر ربع ساعة أخـــرى، إلا وكان قد عرض على الأم الزواج من تلك الصغيرة الواقفـــة إلى جوارها.

نسيت الأم العين المفقـــودة، والدجاجـــة المغـــدورة، والجارة القاسية، بفعل المفاجأة الخطيرة، فهي لم تحلم في يوم من الأيام، أن تجمعها صلة، بأي شكل من الأشكال، بشخص

له علاقة بالحكومة، بل ويحتل بها موقعًا مرموقًا إلى هذا الحد، لذلك لم تضع وقتًا طويلاً في التفكير، ووافقت على تزويجه ابنتها فورًا، بينما كانت تتأمل بإعجاب الأشرطة الملونة المثبتة على ذراعه مما يدل على أنه شاويش فعلاً وليس جنديًا عاديًا بلا أشرطة في الشرطة، واعتبرت أن الأقدار قد قذفت به في طريقها، لتنتشلها من حياتها التي هي في أسفل السافلين، وتخرجها إلى وجه الدنيا، وقد كان الرجل سخيًا، جادًا في عرضه، إذ وعدها بثلاثين جنيهًا كمقدم صداق، وممثلهم لتجهيز هدوم ولوازم العروس الصغيرة، كما أعلن عن نيته في تقديم سوار ذهبي لها من محلات الجمل المتخصصة ببيع الحلي النحاسية المطلية بالذهب، والمضمونة ضمانًا قانونيًا بدمغة مصلحة سك العملة، وهو النوع الذي يروق لفقراء الفلاحين كثيرًا، ولا يقوون عادة على شراء غيره.

خلال شهرين، استطاع الشاويش أن يصبح زوجًا للفتاة التي لم تبلغ، من عمرها، إلا ثلاثة عشر عامًا، فقد تمكن من تجاوز عقبة السن القانونية للزواج الذي قررته الدولة، بعد أن اشترى بجنيهين شهادة تسنين، من طبيب

خاص تخصص في أنشطة طبية غير مشروعة، كالإجهاض، وترقيع البكارة المفتقدة لدى بنات مقبلات على الزواج، وتحرير شهادات لتسنين صبايا دون السن القانونية للزواج، مما سمح للمأذون الشرعي بتحرير العقود من جانب الحكومة أن يحرر عقد الزواج للشاويش، رغم تيقنه من صغر عمر الفتاة، لأنه كان يمتلك ورقة قانونية، ضمها إلى أوراق التعاقد على الزيجة، لا تجعله في موضع المساءلة والشبهات القضائية.

بعد مرور عام واحد فقط، كانت هدى قد أنجبت من شاويشها المعتبر، ولدًا جميلاً، جاء مطابقًا لصورتها تقريبًا، وعندما مر عام آخر، كانت إلى جانبه أخت رضيعة، دائمة البكاء والقلق، بسبب اعتيادها على المخدر، مثل أمها التي أصبحت مدمنة بالفعل، لأن رجلها منذ بداية زواجهما، لم يعد إليها ليلة بجيب خاو من قطع الأفيون، والحشيش المصادر عادة في حملات تشن على أوكار بيع المخدرات، أو الذي ينفحه به موزعو المخدرات في الحي، ليأمنوا شره، ويشتروا سكوته عنهم، وعندما قل مجيء الزوج للبيت، وهجر أسرته الصغيرة، بسبب امرأة أخرى، ظهرت له أثناء عمله المثير

الذي تدفع الأيام بعشرات من النوعيات المتباينة من البشـر إليه بهم، كان على هدى مواجهة حياتها بنفسها، والبحث عن مصدر رزق لها ولأولادها، وقبل ذلك البحث عـن مصـدر بديل لمواجهة متطلبات جهازها العصبي الذي اعتاد المخـدر يوميًا، وبالطبع قادتها الأيام إلى ألف باء الأشياء، فاحترفـت أقدم وأسهل مهنة احترفتها المرأة في التاريخ.

لم تكن جمالات نزيلة عنبر الجرب مثل هدى، لكنها أصبحت تقضي جل وقتها هناك بسبب صداقتها لها، رغم أن معظم النزيلات في السجن، كن يتجنبن التعامـل مـع تلكـم اللواتي يعشن في ذلك العنبر، خوفاً من العدوى التي يمكن أن تصيبهن من أولئك اللواتي انضممن إلى نادي الجرب بسبب ضيق ذات اليد، وفقرهن الذي يصل إلى عدم قدرتهن علـى شراء قطع رخيصة من الصابون، تفي بمتطلبات الاسـتحمام والنظافة وغسل الثياب، إلى جانـب تلـك القطـع القليلـة المصروفة لهن من إدارة السجن، لأن الحصة الحقيقية التـي يجب أن يحصلن عليها، تضيع في جيوب المتعهدين وصغار موظفي السجن، مما جعل الأجساد الفتية لمعظـم نـزيلات العنبر، مرتعًا ملائمًا تقطن فيه على نحو مـزمن حشـرات

الجرب الميكروسكوبية الدقيقة، وقد كـان الميـل الصـاخب للحياة عند هدى وخفة دمها، وقدرتها الدائمة علـى إطـلاق النكات، هو ما يجذب جمالات إليها بالإضافة إلـى حفـلات الرقص والغناء التي تشاركان فيها مع بقية بنات العنبر، وقد كانت هدى تحاول جاهدة تقليد صوت فريد الأطـرش الـذي تحبه كثيرًا، دون جدوى، لكنها كانت على أية حـال نجمـة حفلات عنبر الجرب بلا منازع، وزعيمته المتسـيدة، رغـم صغر سنها، فكان يتوجب على جميـع مـن فيـه الامتثـال لأوامرها، خصوصًا فيما يتعلق بتحديد مواقـع النـوم فيـه، وتوزيع مهمات النظافة التي كانت تتم في أضـيق الحـدود بسبب انعدام المواد المنظمة تقريبًا، ثم جمع الورق والخـرق القديمة أثناء النهار من فناء السـجن لإشـعالها لـيلاً فـي محاولات فاشلة تتم عادة لطرد البعوض الوحشي الذي كـان يشارك حشرات الجرب في التهام دماء السجينات، ولم يكـن الدخان المتصاعد، من حرق هذه النفايـات، كافيًـا لإبعـاد الناموس، بقدر ما كان مسببًا لأمراض صدرية.

أشعلت عزيزة لنفسها سيجارة، وفكرت بحزن: كـم رجل سيمتص رحيق هذا الجسد الرخص الجالس أمامها، إذا

ما تحولت جمالات إلى واحدة من أولئك اللواتي يبعن أجسادهن، لكل من يدفع من الرجال؟ فكرت عزيزة في الرجال العجائز، والرجال الطوال، والرجال القصار، وأولئك ذوي الكروش الضخمة، وأصحاب الأسنان الداكنة المتسخة بسبب تعاطي المخدرات الذين سوف يعتصرون جسد جمالات حتى آخر قطرة نضارة فيه، ويدمرون روحها شيئًا فشيئًا، لتصبح في النهاية مسخًا بشريًا بلي من كثرة الاستخدام، وتساءلت، لماذا قدر لصبية صغيرة جميلة مثلها، أن تتحمل كل هذه البشاعة، وأن تمضي حياتها التي لم تبدأ بعد، على هذا النحو الذي لا يمكن أن ينتهي إلا إلى طريق مسدود، ثم فكرت في أنه لماذا لا يكون لجمالات رجل طيب جميل مثلها، تمنحه قلبها وجسدها، ويمنحها كل ما يمكن أن يمنحه رجل لامرأة، وامتد تفكيرها إلى حد تصورت معه أن جمالات لو سارت في الطريق الذي باتت تفكر أن تسير فيه، وتحولت في النهاية إلى داعرة محترفة، تبيع الهوى لكل قادر على شرائه، فإنها ستتحول ولابد في يوم من الأيام، إلى لولا أخرى، قوادة محنكة لا تكتفي بالمتاجرة بجسدها بل وتسعى لبيع أجساد الأخريات أيضًا.

عند هذا الحد من التفكير، تحول حزن عزيزة، إلى غضب جامح شديد، فرفعت رأسها، وثبتت عينيها على قضبان الشباك الحديدية، وصدر صوتها بالاحتجاج الموجه إلى قوة علوية غامضة، اعتبرتها مسئولة عن كل ما جرى، وما سوف يجرى في المستقبل لهذه الفتاة الجميلة الطيبة، ذات النفس الصافية البريئة براءة نفوس الأطفال، وبينما هي تحدق في القطعة السماوية المكسوة بغيوم رمادية داكنة. قالت في حزن وضيق:

– سامع؟! شايف؟! الحكاية زادت عن حدها خالص، ولا يمكن السكوت عليها، بأي حال من الأحوال.

ثم استطردت قائلة بعد أن رفعت صوتها بتحد:

– طيب، وتربة أمي الغالية البنت طالعة معانا إن شاء الله، ورجلها على رجلي، المسألة محتاجة في الأول، أن تستحم حمامًا ساخنا بصابونة فينيك، لضمان عدم العدوى، وتصبح جاهزة إن شاء الله، وفي منتهى الجمال، وفل الفل.

عندئذ، تنبهت جمالات التي كانت مشغولة بهرش ما بين أصابع يديها إلى أن عزيزة تتكلم، فاستدارت، حيث كانت

تقف في ركن الحجرة، لتصب الشاي في الكوبين الموضوعين على الصينية، وكانت قد تأخرت في صبه، حتى يصير لونه أحمر رائقًا كلون الياقوت، ثم قالت في دهشة وهي تدلل عزيزة، وتناديها باسم التحبب الذي أطلقته عليها، واعتادت أن تناديها به في لحظات صفائها بحروفه الثلاث:

- الله .. أنت كلمتني يا قمر؟.

الرحمة فوق العدل

رفعت محروسة السجانة وجهها المغموس في طبق عسل النحل، فراحت صفية هيروين تدلكه بيديها، وتحول دون تساقط القطر منه، وهي تثني بحماس على ما سوف يكون عليه وجه محروسة من نعومة وإشراق، عندما تغسله بالماء الحاف، دون صابون، بعد ذلك، إذ كانت قد نتفته وحفته بفتلة خيط، مزيلة عنه كل الزغب الخفيف النابت حول الذقن والوجنتين وأسفل الأنف، والحائل دون ضياء الوجه وتلألؤه.

انبسطت أسارير محروسة، لما تخيلت ما سوف يكون عليه وجهها بعد ذلك، مما جعلها تغني بصوتها الأجش الخشن مقطعًا من أغنية بهيجة للأفراح، شاعت أيام شبابها منذ ثلاثين عامًا، ثم قالت وهي تتنهد في حسرة:

– عارفة يا بنت يا صفية؟! أنا لما كنت في عزي، كانت بشرتي جميلة صافية يلقط العصفور الحب من عليها، وهو مغمض عينيه.

- يا سلام!

ردت صفية، ثم أضافت قائلة: الهم والحزن، يدهموا أي واحدة في الدنيا، حتى لو كانت بدر البدور، وأنـــت يـــا محروسة الأيام شالت وحطت بك ياما، ربنا يكون في عونك.

تصعبت محروسة، وزاد احتقان وجهها المحـــتقن بسبب نتف الشعر، أكثر من قبل، ثم زفرت بحرارة وعاودت الغناء، بأغنية دارجة حزينة لا تخلو من الفجاجة فقالت:

- كتاب حياتي يا عين... لا لا لا .

قطعت اللحن الموسـيقى الـذي عزفتـه بلسـانها، وتحمست للكلام وهي تقول:

- أنت عارفة..؟! لو واحدة غيري، جرى لهـا مـا جرى لي، وشافت ما شفته في الدنيا، كان المحتمل أن تقتـل روحها، أو تعمل في نفسها أي مصيبة، تجعلها تموت كافرة، ووالله الحق يبقى بيدها، لكن أنا.. ألف حمـد وشـكر لـك يا رب، قلبي أبيض من الطرحة البيضاء المحطوطـة علـى رأسك يا صفية، وعمري ما تمنيت إلا كـل خيـر للنـاس، ويا الله... ربنا يجازي كل إنسان على قد أفعاله.

– صدقت... ربنا يعطيك على قد نيتك.

أمنت صفية على كلامها، وذكرتها بحادثة البنت سميحة القتالة التي اكتشفت محروسة بالصدفة أنها تخبئ ضمن أشيائها كسرة من زجاجة فينيك فارغة، سرقتها من مستشفى السجن لتستخدمها كسلاح هجومي أثناء معاركها الدائمة مع السجينات الأخريات، مثنية على طيبة قلبها، لأن هذه الحادثة لو جرت مع سجانة أخرى، لجعلت البنت سميحة تروح في ستين داهية، ولعاقبتها إدارة السجن أشد العقاب، فمن الممكن أن تحصل مصيبة إذا ما استخدمت سميحة تلك الأداة الجارحة، وتتحمل الإدارة مسئولية كبيرة، وقتئذ، لكن محروسة اكتفت بأن لطمتها بكفين على وجهها الذي تقطع رؤيته الخميرة من البيت، لقبحه ودمامته، وحلفت بتربة أمها الغالية، أن تؤدب سميحة بطريقتها الخاصة الجهنمية، إن هي عاودت ارتكاب أية أفعال مخالفة لقواعد السلوك، وتعليمات الإدارة، أما هذه الطريقة الخاصة، فلم تكن إلا بقرص سميحة بنوايتي بلح جافتين من اللباليب، أي من تلك المنطقة الطرية الناعمة المنتهي بها كل فخذ من الفخذين، وذلك بعد تكتيفها، وكانت هذه الطريقة التي تسبب آلامًا رهيبة لا تطاق،

وتتخلف عنها زرقة داكنة في الجلد الرقيق الحساس لمنطقة من مناطقه الأنسية، هي الأسلوب الرادع ذاته الذي طالما أدبت محروسة بناتها به، عند ارتكاب إحداهن كبيرة من الكبائر، لا يكفي معها الشتم والضرب العادي، واللطم كوسيلة للعقاب والجزاء.

لم يكن قلب محروسة أبيض، كطرحة السجن البيضاء التي على رأس صفية، لكنه كان أسود، كليلة شتوية باردة ملبدة بالغيوم دون نجمة مضيئة واحدة، تخفف من ظلامها المدلهم، فلم يأت فجر مشرق واحد إلى قلب محروسة، ليمحو كل ذلك الحقد الأسود الذي رسبته الأيام بداخله، ضد الناس والحياة والزمن، وزوجها قبل كل شيء، لأنه قتلها وهي في عز الحياة على ظهر الدنيا، وتركها وحيدة تواجه الأيام بكومة من اللحم الطري معلقة في رقبتها، بعد أن استباح وسرق منها كل شيء، ابتداء من ذهبها ومصاغها الذي لم يكن إلا خاتمًا ذهبيًا عيار ١٨، بفص من العقيق الصناعي التافه، وعفش بيتها الذي اقتنته قطعة قطعة بعرقها ودمها، حيث كانت تعمل خادمة في البيوت منذ طلوع الشمس، حتى ما بعد مغيبها، لتوفير الحياة له ولأولادهما،

وانتهاء بقلبها الذي حطمه ولم يكن رحيمًا به في أي يوم من الأيام، حتى أنه صارحها، ذات مرة، أنه يكرها لأنها قبيحة ودميمة، بل هي أقبح امرأة خلقها الله على وجه الأرض، وقعت عيناه عليها.

لم تكن محروسة المعذبة جاهلة بتلك الحقيقة التي واجهها بها زوجها الهارب، فهي تعرف كونها دميمة فعلاً بذلك الوجه العريض، والأنف الأفطس، والعينين الضفدعتين الجاحظتين، جحوظًا كئيبًا، يزيد في كآبته بشرتها ذات اللون الداكن الكابي المائل للزرقة، والفم الواسع المعتلي لذقنها المكورة الضخمة، لكن أن تعي هي هذه الحقيقة شيء، وأن يقولها لها أقرب إنسان مفترض إلى قلبها، وروحها وهو زوجها وأبو عيالها شيء آخر، فقد شعرت وقتها بألم نادر، يخترق الروح، ويكسر النفس، ولا سبيل لدفعه أو التخلص منه، لأنه قضاء وقدر، وقسمة قسمتها الطبيعة لها، علمًا بأنها ما توانت لحظة عن تحسين شروط خلقتها التي تعرف أنها لن تكون جميلة أبدًا، لتبدو مقبولة الشكل على الأقل، بوجه عادي لا يختلف كثيرًا عن وجوه سائر البشر والناس، فهي لم تكف عن تلوين شعرها باهت اللون بالحناء، بل هي تتفنن في

ذلك، فمرة، تعجن مسحوق الحناء بماء مغلي مع قشور الباذنجان الأسود الرومي وقشور البصل البلدي الحمراء الذهبية، ومرة أخرى تستخدم معه البابونج، والشاي الأسود المقطوع قلبه من الغليان، كما أنها كانت حريصة على أن تكون ناعمة، ملساء الجسد، وعلى استخدام ما ملكت يداها من مساحيق تجميل تشتريها أحيانًا، وتجود عليها ببعض منها أحيانًا أخرى السيدات اللواتي تعمل لديهن في تنظيف بيوتهن، وكانت المشكلة التجميلية التي طالما أرقتها، هي طلاء الأظافر المعادي تمامًا لطبيعة عملها التي تضطرها لوضع يديها في الماء وبلها معظم الوقت، مما يؤدي لتلف هذا الطلاء، وتقشر أجزاء منه.

ما كان يزيد في ألم محروسة من زوجها، هو أنه لم يقدر أبدًا مجهوداتها الخارقة لتكون على نحو أجمل، مثلما لم يشكرها مرة من المرات على مساهمتها في جلب الفلوس، رغم أنه لم يكف عن مضاجعتها في كل ليلة من الليالي، مهما كانت حالتها الجسدية المتعبة، تلك المضاجعة التي تمخضت عنها نصف دستة من العيال، هم أربعة إناث وذكرين، ولم تذق منه ريقًا حلوًا في أية لحظة، علمًا بأنه

كان مصابًا بداء الرئة، ومع ذلك فهي لم تأنف من مخالطتــه أبدًا ولم تتوان عن خدمته لحظة واحدة، لأنها كانت تؤمن بأن المرض والصحة لا يأتيان، إلا من عند الله، ووفقًا لمشــيئته، لأنه المبتلي، وهو الرزاق الذي يوزع الرزق لمــن يشــاء، ويقدر، ثم إنها لم تكف عن طاعة ذلك الــزوج الجحــود، لا لشيء إلا لأن طاعته واجبة، ومن طاعة الله، مثلما لم تتوقف عن رعايته، وتوفير نصف كيلو من الحليب خصيصًــا لــه يوميًا، ومده بأفضل ما تطاله يدها من طعام يقدم لهــا فــي البيوت التي تدور للعمل فيها، حارمة نفسها في أحيان كثيرة، من أطايب الأكلات التي لا يمكن أن تصنعها أبــدًا لارتفــاع تكلفتها، وحتى بعد أن توقف عن الشغل كصــبي منجــد لأن الغبار المتصاعد من قطن الحاشيات والمراتب القديمة، بــات يؤذي صدره، ويزيد حالته سوءًا، ولما أصبح ضعيفًا مهدودًا من شدة المرض، قابعًا في البيت، كركام من اللحم الحي، لا شغلة له ولا مشغلة، فإن محروسة لم تتوقف عــن الإنفــاق عليه، ومده بالمصروف، ليجلس على المقهى، كــأي رجــل آخر لم يقعده المرض عن الجري لرزقه، وكسب الفلــوس، حتى لا تتعب نفسيته، ويشعر بأنه عاجز مكســور الجنــاح،

بسبب المرض الذي هده وحرمه من أن يكون رجلاً يجري على بيته وعياله.

لكن الزوج، كان يقابل الجميل بالنكران، والمعروف بالقسوة والجفاء والجحود، إذ أنه لم يكف عن توبيخها وبعثرة كرامتها في الأرض لأتفه الأسباب، ولأقل الأخطاء والهفوات التي تكون عادة خارجة عن إرادتها بسبب ضيق وقتها أو تعبها الجسدي، فمرة قطع اللبن وتخثر، بعد أن نسيت غليه قبل النوم، لأنها كانت متعبة جدًا، وفي عرض لحظة ترمي فيها جسمها في أي مطرح وتنام، فما كان منه عندما اكتشف فساد اللبن، إلا أن شتمها وسبها بأفظع الألفاظ التي طالت جدودها بعد أبويها، لكنها لم تتأثر من ذلك قدر تأثرها، لنعته لها بأنها رمة رميت عليه، لا تساوي ربع أبيض في سوق النساء. بعد ذلك أخذ في ضربها وضرب العيال، عند صدور أقل هفوة منهم، وتطور الأمر، إلى حد اتهامها في عفتها، بسبب تأخرها في البيوت التي يعلم الله وحده، أنها ما كانت تتأخر فيها إلا لإتقانها عملها، وحرصها على أن يخرج بأفضل وجه، لتحوز رضا مخدوماتها من النساء، فلا يطردنها من العمل، بل ويمنحنها مزيدًا من النقود والطعام،

ورغم صبرها على كل ذلك، وحرصها أن تمضي بها سفينة الحياة بالستر والأمان، فالاستناد إلى ظل رجل أفضل من الركون إلى ظل حيطة، إلا أنه صعد من معاناتها كثيرًا، عندما بدأ في تطوير عدائه لها، وأخذ في سرقتها، ففي ذات أمسية من الأمسيات، اكتشفت بعد عودتها من ساعات عمل شاقة ومنهكة، إذ كانت قد قامت بتنظيف شقة تاجر كبير مكونة من ستة حجرات ومطبخ واسع، مليء بالأجهزة والأدوات، وثلاث حمامات، نظفت السيراميك فيها ولمعته قطعة قطعة، اكتشفت أنه أخذ التلفزيون وباعه، بثمن بخس، ولما كان التلفزيون هو متعتها الوحيدة في الحياة الذي تلتم أمامه مع عيالها في أوقات سعادة نادرة، أثناء تناول العشاء، للفرجة على التمثيليات والأفلام، حتى يغالبها النعاس، فتنام على الكنبة أمامه، وتحلم أنها بيضاء، شقراء، كفتيات الإعلانات، ترتدي أجمل الثياب، ويتهافت عليها الرجال ، فقد حزنت حزناً شديدًا وصل إلى حد سدت معه نفسها عن الأكل، لأنها اشترت التلفزيون الذي طالما حلمت بوجوده في بيتها، من سيدة طيبة عاد زوجها من بلاد الرسول بتلفزيون كبير، فباعت القديم لمحروسة التي اعتبرته لقطة وفرصة لا

تعوض بالنسبة لها، لأنها اشترته منها بسعر رخيص وبتقسيط الفلوس.

بعد التلفزيون المسلوب، وقعت الطامة الكبرى لمحروسة، فقد اختفت الغسالة في يوم أسود لم تطلع شمسه بالنسبة لها، ويمكن تصور حجم فجيعتها، إذا ما قلنا إنها كانت تعتبر الغسالة أعظم إنجاز للبشر، جرى على وجه الأرض، منذ بداية الخليقة، لأنها الجهاز الذي انتشلها من عبودية الغسيل لستة أولاد، بالإضافة إليها وزوجها، وقد تجلى تقديرها للغسالة وتكريمها الدائم لها في حرصها على تجفيفها بعد كل مرة تغسل فيها، وتغطيتها بمفرش جميل، لم يكن إلا أحد أغطية الرأس الملونة التي تحصل عليها ضمن ما تجود به عليها مخدوماتها أحياناً من مخلفاتهن من الملابس والأشياء القديمة.

لكنها في ذلك اليوم العصيب، لم تسكت، مثلما سكتت يوم باع زوجها التلفزيون، فقد تشاجرت معه، وواجهته بحقيقة علمها أنه يلعب الواحد والثلاثين على القهوة مع بلطجية الحي، ويقامر دائمًا، ثم إنها بكت بكاء مرًا ناعية الغسالة العزيزة، مثلما ينعى أي فلاح فقير جاموسته جلابة

الخير، وندبت حظها العاثر، كما نادت على أمها الراقدة في مقابر الصدقة منذ سنوات طويلة، لتأتي إليها وتشوف حالها المنيل بالنيلة الزرقاء، والمهبب بالهباب الأسود، لأن الغسالة كانت من الحوادث السعيدة التي آمنت محروسة بأنها لن تتكرر في حياتها مرة أخرى، بعد أن اشترتها من بائع روبابيكيا متجول ذات يوم، بثلاثين جنيهًا، ادخرتها بصعوبة من دخلها، وذلك بعد مساومة طويلة معه، وأخذ وعطاء في الكلام، عن قيمة الغسالة ونوعها وما تستحقه من سعر، لأنها خمنت، أن الغسالة لا بد أن تكون مسروقة من مكان ما بسبب حالتها الجيدة التي تبدو معها وكأنها جديدة.

بعد سنوات طويلة من العذاب، تركها الزوج المريض المقامر المعذب، واختفى، حدث ذلك بعد أن جردها من قطعة الذهب الوحيدة التي اعتبرتها كنزا من كنوز الملك سليمان، طالما حافظت عليه كمدخر لعوادي الزمان، وذلك بينما كانت نائمة في عز الليل كجثة مؤقتة تنتظر يوم عمل شاق ومرهق عند طلوع الصبح، إذ سحب من بنصرها الخاتم ذا العقيق الزائف الذي كانت قد وجدته بصدفة نادرة في الجيب الداخلي لمعطف قديم منحتها إياه سيدة يونانية

عملت عندها لفترة من الوقت واضطرت للمغادرة السريعة، وقت إجلاء الأجانب عن البلاد في العام ١٩٥٦.

أثناء غيابه، وبعد أن يئست محروسة من عودة زوجها الهارب، اضطرت للتقلب في أعمال كثيرة، بعد أن أصبحت خدمة المنازل لا تدر عليها دخلاً معقولاً، لأن الناس باتوا يستغنون عن الخدم، بسبب انتشار الأجهزة الكهربائية، والميل العملي في اختيار الأثاث، بحيث أصبح بسيطًا، يلبي الحاجات الضرورية، إضافة إلى الارتفاع الدائم في الأسعار الذي هوى بالطبقة الوسطى، إلى أسفل سافلين وهي الطبقة التي تعمل لديها محروسة وأمثالها عادة.

في البداية، أخذت تطبخ الكشري وتبيعه على الرصيف، وما إن انتعشت أحوالها، وجرى القرش في يدها قليلاً، حتى طاردها موظفو البلدية، بالإتاوات والفرض التي فرضوها عليها، حتى يتركونها في حالها، تزاول تجارتها دون طردها من الرصيف الذي هو ملك للحكومة، تمنحه لمن تشاء وتطرد منه من تشاء، وقد كفت محروسة عن بيع الكشري، بعد أن اكتشفت أن الجدوى الاقتصادية لذلك منتفية، لأنها باتت تدفع فرضًا ورشاوى، أكثر من عائد البيع الذي لا

يتبقى منه في نهاية الأمر، أي فائض ربـح، بعـد أن تـدفع للعلاف ثمن المكرونة، والعدس بجبة، والأرز الذين تشتريهم منه بالأجل.

بعد ذلك دخلت المجال الصـناعي، ربمـا لتواكـب سياسة الانفتاح الاقتصادي التي كانـت قـد بـدأت تظهـر مشاريعها الصناعية، دون أن تقدم بعد ذلك، صناعات تختلف في أهميتها كثيرًا عما كانت تقوم به محروسة آنذاك، إذ أنها كانت تجمع ما تيسر في الطرقات، من ورق متخلـف عمـا يبيعه التجار من سلع ومواد، وتصنع منه طراطير، ومراوح ورقية، تشبكها في عصى من جريد الأقفاص القديمة الملقـاة على مزابل السوق، ثم إنها كانت تلصق الطراطير والمراوح بنشاء الأرز المطبوخ، وتلونها بعد ذلك بألوان زاهية محببـة للأطفال، تصنعها عادة من بقايا الخضروات، والمواد التالفة الملقاة كنفايات، ثم تروح تبيع ذلك فـي الأسـواق، وأيـام الموالد، بقروش قليلة تدفع بها غائلة الأيام.

خلال هذه الفترة العصيبة من حياتها، أغراها جـار لها، بالعمل معه في مسرحه الجوال للأراجوز، كممثلة تؤدي بصوتها الأجش، من خلف السـتار، دور الحمـاة المثيـرة

للشغب والخلافات بين ابنتها وزوجها المغلوب على أمــره، وتنشد معه بعض الأغنيــات القصــيرة المثيــرة للضــحك والسخرية، وقد سعدت محروسة بهذا النوع من العمل الــذي اعتبرته عملاً بسيطًا لا يهد حيلها، أو ينهك صــحتها التــي باتت تسوء بسبب تغلغل الروماتزم المستمر فــي مفاصــلها، رغم ما تضمنه من خدمة صاحبه خدمات يســيرة، إذ كــان عليها أن تطهو له طعامه وتغسل هدومه بين الحين والحين.

ثم إنها أحبت شغل الأراجوز إلى حد الشغف به لأنها شعرت معه، بحب الناس لها، وخصوصًا الأطفال منهم الذين كانوا يضحكون ويصفقون كثيرًا لها، عندما كانت تشــخص وتغني، مما أشعرها بأنها خفيفة الدم، مقبولة من الآخــرين، وهو الشعور الذي طالما عانت من عدم حدوثه لها قبل ذلك، والشيء الذي جذبها إلى العمل مع الأراجوز، أكثر مــن أي شيء آخر، كان الدخل المعقول الذي تحصل عليه كل يــوم من هذا الشغل الذي لم يخل كذلك من مفاجآت ســارة، مثــل المفاجأة التي حدثت ذات يوم، إذ دعا صاحب مقهــى كبيــر بالخيامية الأراجوز، للمشاركة في حفل ختان ابن لذلك الرجل الميسور، تم إنجابه، بعد سبع إناث من ثلاث زوجــات لــم

توفق إلا الأخيرة منهن في تحقيق حلمه بخروج صبي من صلبه، يخلفه في الدنيا ويحافظ على اسمه من بعده فيها.

وقد استطاعت محروسة، أن تثبت جدارتها في العمل، بل أن تمده بأفكار جديدة من عندياتها، إذ أنها باتت تقوم بإلقاء الفوازير اللذيذة على المتفرجين بين كل وصلة تمثيلية وأخرى، بهدف إطالة وقت العرض مما يجذب مزيدًا من الجمهور، فتسأل عن ذلك الذي يعدي البحر دون أن يغرق، وهي تقصد بالبحر – ويفهم الناس قصدها بالطبع – نهر النيل الذي اعتاد الناس وصفه بالبحر من باب التقدير والاعتزاز، فيجيبها واحد نبيه من الحاضرين، بأن ذلك الذي لا يبتل هو العجل في بطن أمه التي هي الجاموسة، لأنها تستطيع العوم في النيل بسلاسة ويسر حتى لو كانت حاملاً في عجل صغير، عندئذ تطالب محروسة بالتصفيق لذلك اللبيب، بينما يعزف له الأراجوز لحنًا من ألحان حسب الله الذائع الصيت، وذلك على سبيل التحية، وبعد ذلك تلقي بالفزورة الثانية من فوازيرها الأربع التي لا تعرف سواها، فتسأل عن شيء يدور في طبق بنور، وعندما تصل إلى الثالثة التي تعتبر من أصعب فوازيرها، والتي نصها طاسة

من جوه طاسة في البحر غطاسة، داخلها لؤلـؤ، وخارجهـا نحاسة، عندما تصل إلى ذلك يحار الحضور في الإجابة، لكن محروسة تمهلهم وقتًا للتفكير، تكون أثناءه قـد دارت علـى المشاهدين لتجمع فلوس الفرجة منهم، وعنـدما تعـود إلـى مكانها بجوار الأراجوز مرة أخرى، تقول لهم حل الفزورة، وهو الرمانة، ثم تلقي بآخر واحدة، وهي: شيء برق بـرق، واختبأ بين الورق وتعاود مشاركة الأراجوز فـي الوصـلة التمثيلية التالية لذلك. لكن محروسة، سرعان ما تخلت عـن عملها الممتع هذا، لأنها فوجئت بأن الرجل – الأراجـوز، لا يريد مضاجعتها فقط، بل ويريدها أن تفعل ذلك مـع رجـال آخرين، مصرًا أن تنصاع لطلبه وتحترف الرذيلـة ليقتسـم معها دخلها منها، لأنه سيحميها، ويورد لها الرجال.

بعد تركها فرقة الأراجوز الجوال، عاشت محروسة مع عيالها أيامًا لونها أسود من قرن الخروب، حيث سـارت في الطرقات تستجدي، لتسد جوع ستة أفواه صغيرة، مفتوحة لها، تطالبها بالطعام، وشالت الطوب عندما وجدت عملاً، مع عمال التراحيل، حتى انقسم ظهرها وأصيبت بالتهاب حاد في فقراتها القطنية، لم يحل دون اغتصابها ذات ليلة، بينما هـي

عائدة من الشغل في عمارة بمنطقة نائية تقع ضمن حي جديد منشأ على أطراف مصر الجديدة، إذ تناوبها ثلاثة جنود من الجيش، لا تزيد أعمار كل منهم عن عمر ابنتها البكرية، بعد أن كمموها، وقيدوها بأحزمتهم العسكرية، وعندما تركوها، كانت في حالة بائسة، حتى أنها عرفت بصعوبة، كيف تسلك الطريق عائدة إلى بيتها مرة أخرى، وفي أيام تالية لذلك، نبشت محروسة وفتشت بشغف في صناديق الزبالة عن أي شيء صالح للأكل، وحصلت من صفائح فضلات باعة الطيور المذبوحة، على نباشات الفراخ، والمصارين المتخلفة عن الذبح، لتسلقها، وتقدمها إدامًا لعيالها إلى جانب الخبز، لكن يشاء العليم القدير أن ينظر إلى المسكينة بعين الرحمة والعطف، إذ طب عليها ذات يوم سعيد قريب لزوجها، كان يعمل شاويشًا في السجون، ولما علم بحالتها، وبهروب قريبه، وشاف بأم عينه بؤسها وحاجة عيالها، خرج واشترى علبة حلاوة طحينية للعيال، وأرغفة من الفينو الأبيض وعلبة شاي، وجلس بينهم يأكل معهم، ثم إنه طمأن محروسة بعد أن دس في يدها ثلاثة جنيهات، كانت ثلاثة أرباع ما تبقى من فلوس في جيبه، واعدًا إياها بالبحث عن عمل، يدر عليها

دخلاً منتظمًا، يكفيها شر الحاجة ومدّ اليد للناس، ولـم يمـر شهر واحد على ذلك الوعد، إلا وكانت محروسـة ترتـدي معطف السجانات ذي اللون الأزرق المائل للرمادي، إذ قبلت كسجانة في سجن النسـاء، لضـخامة حجمهـا، ولسـحنتها الصارمة، ذات النظرات الرادعة، وهذا منتهى الطلب بالنسبة لمصلحة السجون في تعيين سجانيها.

خلال عملها، تكشف لمحروسة عالم جديـد مـدهش بعلاقاته، لم تصادفه في حياتها قبل ذلك، رغم ما صادفته من غرائب وآلام، وكانت المآسي العديدة المتنوعة، والمتجـددة دومًا، بتجدد النزيلات، تكشف لها عن حقيقة، باتت تترسـخ لديها بمرور الوقت، كانت بمثابة العزاء لها، وهي أنها ليست الوحيدة المظلومة في الدنيا كما تظن، وليست الوحيدة المبتلاة بالمصائب دون سائر البشر كما تتصور، فثمت كثيرات مـن النساء غيرها، جار عليهن الزمان وضن بالرحمة والسعادة، وبحكم طبيعة المهنة التي تستلزم أن تكون حازمـة، ناهيـة، آمرة، اكتسبت محروسة بمرور الوقت، ثقة بالنفس، وصلابة في الشخصية، لكن ذلك لم يمح سواد قلبها أبدًا، ولـم يبعـد مرارة السنين عن روحهـا، وشـعورها المسـتمر بالخيبـة

والفشل، والقنوط من وجود عدالة في الـــدنيا، ممـــا جعلهـــا تلتمس الرحمة والغفران في تعاملها مع المسجونات، ويـــرق قلبها لحالتهن، فقد كانت ترى أن الرحمة يجب أن تكون فوق العدل دومًا، ولا ملاذ للبشر إلا في الرحمة التي لو ســـادت وأخذ الناس بها في معاملاتهم، لأصبحت الدنيا أقـــل تعاســـة وشقاء، لذلك فهي لا تفتري على المسجونات في عملها، ولا تظلمهن أو تبتزهن، ولا تفرض عليهن أية إتاوات كما تفعـــل بعض السجانات الأخريات، كما أنهـــا لا تطـــالبهن بتقـــديم خدمات لها دون مقابل، فحتى عندما صـــنعت لهـــا صـــفية هيروين شالاً من الكيروشية، قدمت لها مقابله فرخة كاملـــة سلقتها بنفسها في البيت وأحضرتها لها معها، غير أن ذلك لا ينفي كونها تقبل برضا بعض الهدايا من السجينات، شـــريطة أن تقدم لها عن طيب خاطر، دون انتظار أية معاملة خاصة بهن من جانبها، وعلى هذا الأساس، قبلت عسل النحل الـــذي كانت تغمس وجهها في الطبق المملوء به منذ قليل، كهبة من سجينة يمتلك أهلها مناحل عديدة في قريتهم بالريف، وعمومًا فإن حصولها على أي شيء من السجينات، كانت تضعه أولاً في ميزان العدل والقسطاس، وتقبله من باب الود والرحمـــة،

والتعاطف الذي يجب أن يكون متبادلاً في دنيا السجن الموحشة، قبل أن تمتد يدها لتأخذه.

ما يربط محروسة السجانة، بصفية التي يطلق عليها جميع من في السجن صفية هيروين لاتجارها في ذلك النوع من المخدرات، يختلف عن كل ما يربطها بالسجينات الأخريات، وقد لعب الزمن قبل كل شيء، دورًا في هذه العلاقة، لأن صفية من أقدم نزيلات سجن النساء، بالأحرى، هي سجينة مخضرمة، خبيرة بذلك السجن، لأنها قضت فيه معظم سنوات عمرها إذا صح التعبير، منذ أن دخلته لأول مرة في السادسة عشرة من عمرها، فأمضت فيه سنة بتهمة السرقة، وفي التاسعة عشرة، انضمت لعصابة سرقة بالإكراه، فحكم عليها بست سنوات مع الشغل، فلما خرجت، تزوجت من قريب لها عاطل عن العمل، لكنه لديه شقة مكونة من حجرتين وصالة، ورثها عن أمه، وجدتها ملاذًا ومثوى لها، ثم إنها باعت ساعة ذهبية، كانت قد احتفظت بها لنفسها، ولم تعترف بسرقتها وقت القبض عليها، اشترت بثمنها قماشًا رخيصًا، من تجار النسيج بشارع الأزهر، وأخفافًا منزلية بلاستيكية، زهيدة الثمن، وعقودًا وأساور

وأقراطًا صناعية، أبتدأت بها مجتمعة، تجارة بسيطة، محدودة، كانت تدور بها على الشقق والبيوت لتبيعها للنساء، وشيئًا فشيئًا، انتعشت تجارتها، بفضل شطارتها وحلاوة لسانها، ومرونتها في التعامل مع الزبونات اللواتي وثقن بها، خصوصًا أنها أضافت لنشاطها نشاطات أخرى، فكانت تعمل لبعضهن حلاوة بالسكر والليمون، لنتف الشعر من الجسد، وتشتغل مفارش وأغطية رأس من خيطان الصوف بإبرة الكيروشيه، بالإضافة إلى تحضيرها لبعض أنواع من الدهون للجلد، وزيوت للشعر، بعد جلب موادها الخام ووصفاتها من العطارين وتركيبها، ثم توسع نشاطها فراحت تتولى تزيين العرائس المقبلات على الزفاف، فصارت مطلوبة من النساء لخدماتها المتنوعة التي كانت تقوم بها على الوجه الأكمل، وباتت لها زبوناتها العديدات اللواتي لم يعرفن قط بماضيها اللصوصي، فانتعشت أحوالها كثيرًا، وعاشت عيشة راضية، وما حلمت بها يومًا طوال حياتها قبل ذلك.

بعد مرور خمس سنوات على زواجها، أنجبت صفية ولدين توأمين جنت بهما، رغم نحالتهما الشديدة، والانبعاج البين في رأسيهما إلى الخلف، واعتبرتهما أعظم ما وصل

إليه النوع البشري على مستوى الخلق، حينئذ، شعرت لأول مرة بالانتماء، وأن لها أسرة وأهل، وهي اليتيمة التي عاشت طفولة تعسة مع زوج أمها بعد أن مات أبوها، مما اضطرها إلى الهروب من البيت، عندما بلغت الرابعة عشر من عمرها، وسافرت إلى القاهرة، بعد أن تركت بلدتها الريفية بالدلتا، لتهيم على وجهها أيامًا في الشوارع تتسول لقمتها، حتى التقطها صاحب مسمط، لاحظ مكوثها كثيرًا بالقرب من دكانه في السوق، فأخذها لتعمل عنده في تنظيف كروش البقر والغنم، وكذلك سيقانها من الأوساخ، بعد غمسها في الماء المغلي، ثم تنظيف أكواب وأطباق الألمونيوم التي كان يقدم فيها الثريد والحساء لزبائنه، عندما تفرغ من مهمتها الأولى، وقد حصلت صفية مقابل ذلك العمل على شرف المبيت بمطبخ المحل في نهاية الليل، وتناول بعض الطعام.

والحقيقة أن صفية لم تتعرض، لما تتعرض له أية فتاة صغيرة، هاربة، أو ضائعة في مدينة جهنمية كالقاهرة في العادة، إذا كانت في الرابعة عشرة من عمرها أو قريبة من ذلك، ولم يكن هذا بسبب معجزة سماوية، أو قلة ذئاب المدينة المستعدين لافتراس أية أنثى تعبر الطريق، إذا ما

سنحت لهم الفرصة، ولكن بسبب حصانة طبيعية لا راد لها، وهي أن صفية كانت تمتلك عينًا واحدة، فالأخرى ضــاعت في زمن مبكر على إثر علقة ساخنة تلقتها مــن زوج أمهــا لكسرها قارورة النرجيلة الزجاجية، بينما كانت تحملهــا لــه ليدخن بعد الغداء، فولت هاربة منه لتلوذ بأمها التـــي كانـــت وقتها جالسة تشتغل له طاقية مــن الصــوف، ذات خطــوط متعرجة تمثل بعض ما تبقى في الذاكرة الشعبية من أســاليب الفن المصري القديم، حيث كانت ترسم مياه النيل على النحو نفسه، لكن الطفلة المسكينة، وهي تسارع بالاختباء في حجر أمها، خوفًا من زوجها الهائج، انكفأت بوجهها على الإبــرة الحديدية، فانغرست في عينها وفقأتها، لتصبح بعد ذلك بعين واحدة تنظر، وأخرى زجاجية قدمها لها زوج أمها الذي كان طيبًا إلى حد استيقاظ الضمير، فاعتبر نفسه مسئولاً عما ألــم بالبنت الصغيرة التي كان يكرهها بالفعل، ويسيء معاملتهــا، لكنه لم ينتو أبدًا إلحاق ضرر جسدي بهــا يصــل لدرجــة حرمانها من نور عينها ليست العين الزجاجية هــي ســبب الحصانة الطبيعية ضد الاغتصاب، فقط، ولكن نحــول قــد صفية الشديد، وضآلة حجمها لعبا دورًا لا بــأس بــه فــي

التضليل، وعدم الإفصاح عن مكامن الأنوثة فيهـا، فعنـدما كانت في الرابعة عشرة، كانت تبدو في الثامنة فقـط، فهـي قصيرة، ممسوحة الصدر تقريبًا، ذات رأس صغير، ورقبة لا تبعد كثيرًا عن أكتافها، ولعل ذلك هو الذي جعـل محصـل التذاكر في القطار الذي أقلها من الدلتا إلى القاهرة، لا يجـد ضرورة في تحصيل بطاقة ركوب منها، خصوصًا أنها كانت تجلس هادئة إلى جوار فلاح عجوز، تتطلع بعينها الوحيـدة إلى البلاد والقرى، وزراعات القطن والخضار التـي كـان يعبرها القطار عبورًا سريعًا، وحتى المحاولة الأولية البسيطة التي يمكن وصفها وصـفًا سـطحيًا، بالاغتصـاب، والتـي تعرضت لها صفية، جاءت من صبي صغير لم يبلـغ بعـد، يصغرها بسنوات، وكانت يوم أن ذهبت في ظهيـرة عيـد الفطر إلى السينما، بعد أن اشترى لها صاحب المسمط جلبابًا من الكستور القطيفة، طبع عليه أرانب وإوز وديوك بـألوان زاهية متباينة، وحذاء قماش بنعل زحافي مطاطي ورباط في مقدمته، اختاره الرجل بني اللون ليتحمل الأوساخ، من النوع الذي عممته مصانع باتا الإيطالية في جميع أنحـاء الـبلاد، وهي المصانع التي أممت، وتحولت إلى قطاع عام، ثم إنـه

نفحها عشرة قروش كاملة، كعيدية لن تأخذ خلافها على مدى أيام العيد الثلاثة، فامتنت له امتنانًا شديدًا، وحبت على يده اليمنى السمينة، كمثيلتها اليسرى، وقبلتها عدة قبلات، ثم إنها ابتاعت شقة بطعمية، وأخرى بفول مضاف إليه قليل من سلطة الطحينة، مما كان بمثابة تنويع على لحن واحد، وبينما هي تأكل سائرة، وتتفرج على المحلات والدكاكين، وقعت في غرام قرط بلاستيكي أحمر اللون، فاشترته بقرشين، ثم دخلت السينما التي كانت تعرض وقتها فيلمًا لشادية، وتحية كاريوكا، وبينما كانت الأخيرة ترقص هازة بطنها وصدرها ومؤخرتها في حركات بارعة سريعة، تتطلب ممن يؤديها أن يزيل أولاً مصرانه الأعور، أحست صفية يدًا تمتد إلى صدرها، وتداعب ثدييها مداعبة وصلت إلى أطراف حلمتيهما الصغيرتين مما جعلها تشعر بلذة ألجمتها وجعلتها تبدو وهي تتابع الفيلم، بعينها الوحيدة، وكأنها أليس في بلاد العجائب فما كان من اليد الطويلة الواصلة إليها من المقعد المجاور، إلا أن واصلت تسللها، وزحفت إلى مناطق أخرى من الجسد الصغير، مانحة إياه المزيد من اللذة والإثارة، والشعور البكر بالانتشاء.

الموقف انتهى بعد قليل، إذ أضيئت الأنوار فجأة، إيذانًا باستراحة قصيرة، باعثها الحقيقي، رغبة إدارة السينما في تنشيط بيع المشروبات الغازية واللب الأسمر والفول السوداني من الباعة الذين يعملون لديها، وعندما تنبهت صفية، لم تجد أي كائن يجلس على المقعد المجاور لها، إذ أن الولد اختفى بسرعة، ربما بسبب خجله الناتج عن مباغتة الضوء له، وربما لأنه تأمل ملامحها سريعًا ولاحظ العين الزجاجية، ولما يئست من عودته، اشترت لنفسها زجاجة بيبسي كولا، لأنها شعرت بظمأ شديد.

بمرور الوقت تحولت صفية إلى فتاة قاهرية، وبدأت عينها تتفتح على مباهج الدنيا في مدينة عامرة بالحياة، هي بمثابة عدة مدن مجتمعة، فكانت تختلس الوقت من المسمط، عندما يرسلها صاحبه لشراء شيء ما، أو لأداء مهمة تخصه أو تخص المحل مع التجار الآخرين في السوق، وتجوب الشوارع متلكئة، تتأمل معروضات المحلات الكبرى، ونساء الطبقات العليا المترفات اللواتي يقضين معظم أوقاتهن الصباحية في التبضع والشراء، قتلاً للملل، ونهمًا للاستهلاك، وخلال هذه الأيام، كان منتهى حلم صفية الحصول على حذاء

أحمر بكعب عال، وقد تحقق حلمها بعد ذلك بشهرين، لـــيس بالصدفة وحدها، ولكن بقوة ملاحظتها وخفة يدها، إذ بينمـــا هي تمر على محل لتصليح الأحذية، لاحظت فردتي حـــذاء أحمر صغيرتين، ترقدان فوق بعضهما إلى جانب كومة مـــن الأحذية المخصصة للتصليح، ولقد بدا ذلك الحذاء جميلاً في عينيها إلى حد جعلها تحلم في ليلة اليوم نفسه، بأن زوج أمها يقبلها، ويمسح على رأسها، ويدخل قدميها فيه. فـــي اليـــوم التالي لذلك، وبعد معاناة حقيقية، إذ أن صورة الحذاء الأحمر ظلت قائمة في عينيها لم ترسل، تفتق ذهن صفية عن شـــر خفيف يراد به خيرًا لها، إذ أنها قامت بفصل نعل فردة حذاء صاحب المسمط عن وجهه بسكين حادة، بعد أن خلعه وأخذ يصلي صلاة العصر، وما أن انتهى من ركعتي السنة بعدها، طالبًا من ربه الصلاح والتوفيق، وبادر بوضـــع قدمـــه فـــي الحذاء، حتى اكتشف أن أصابعه المتدثرة بالجورب النبيـــذي الداكن، قد صارت على الأرض، فثار وزام لاعناً صـــناعة الأحذية، وأصحابها الغشاشين، مقسمًا أنه لن يشتري طيلـــة حياته حذاءً آخر من المحل الذي ابتاع منه هذا الحذاء، لكـــن صفية أخذت تهدئ من ثائرته، وطارت بالحذاء إلـــى محـــل

الجزماتي، واعدة إياه بأنها لن تعود إلا ومعها فردة الحذاء سليمة كما كانت من قبل، ولا داعي لأن يحرق دمه ويتلف أعصابه.

عندما عادت بعد ذلك بساعة، كان معها ثلاث فردات من الأحذية، بينهما الزوج الأحمر الذي اشتهته إلى حد الحلم، بعد أن ظلت تقنع الجزماتي بضرورة تصليح حذاء سيدها بسرعة، بعد أن أوهمته أنها تعمل خادمة لدى موظف كبير وزوجته التي تقسو عليها كثيرًا، وأنه سوف يضربها إن هي لم تعد به بسرعة، وقد أشفق الرجل عليها بسبب عينها الضائعة، وأسلوبها المسترحم الضعيف في الكلام معه، والحكاية التي حكتها له عما فعله بها زوج أمها، ثم إنه طلب منها شراء طعام ليتغدى به، فذهبت واشترت له باذنجانًا مقليًا، وبطاطس محمرة، وبعد أن انتهى من الأكل جاءته بكوب شاي من المقهى القريب، فشربه وهو يقوم بإصلاح الحذاء، وما إن انتهى من إعادة فردة حذاء صاحب المسمط إلى ما كانت عليه حتى واتت صفية الفرصة الذهبية للحصول على الحذاء الأحمر، إذ صعد الرجل إلى محل الأدب الكائن في السقيفة بأعلى المحل، ليقضي حاجته،

فسارعت بأخذ فردة الحذاء التي انتهى من إصلاحها، بالإضافة إلى الحذاء الأحمر، وطارت من الدكان إلى المسمط بخفة عصفور صغير.

كان الحذاء الأحمر الذي اكتشفت أن كعبه مازال مكسورًا، لم يصلح بعد بمثابة فاتحة مبينة في حياتها العملية، إذ جعلها تتأمل حالتها،وتفكر لأول مرة في كونها محرومة من نعم، ومتع عديدة في الحياة، وأنها لا تملك الحصول على أي شيء تريده بسبب فقرها، وقلة الفلوس في يدها، وقد قادها هذا الخيط من التفكير، إلى حقيقة هامة تكشفت لها لأول مرة كذلك، وهي أن صاحب المسمط الذي اعتبرته حتى هذه اللحظة مندوب العناية الإلهية التي انتشلتها من البؤس، وذل السؤال، يستغلها أسوأ استغلال، فهي تعمل من السادسة، صباح كل يوم، وحتى ما بعد الليل في تواصل، دون انقطاع إلا لساعات قليلة بعد الغداء، ولا تتلقى مقابل ذلك إلا ما يلزم لإسكات جوعها يوميًا، قطعة صغيرة من الكوارع، أو لحم الرأس، مع طبق من الأرز المضاف إليه قليل من الحساء، مما يضطرها في بعض الأحيان، إلى أكل ما يتبقى في أطباق الزبائن الذين قلما يتركون طعامًا يتخلف

عنهم في أطباقهم ثم إنها تتناول إضافة إلى ذلــك، كوبًــا أو كوبين من الشاي يوميًا، وما يجود به عليهــا بــين الحــين والحين من أصناف أخرى من الطعام، كبعض ثمار الفاكهة، عندما يشيعها بها إلى زوجته في البيت، وكانت رغبتها فــي تزيين شعرها، ولمه بطوق من الخرز الملون، ووضع أحمر شفاه، بما يتناسب مع الحذاء، كما تفعل النساء اللواتي تراهن في شوارع المدينة، سببًا في إثارة مزيد من الحنق والغــيظ بداخلها تجاه صاحب المسمط الذي لا تنال منه ما ترغب فيه، واكتشفت استغلاله لها، مثلما اكتشفت ما هو أهم بالنسبة لهــا حينئذ، وهو أن السرقة في هذه المدينة ممكنة وسهلة إلى حد كبير، بل هي ضرورية أيضًا، إذا ما رغب الإنسان أن يعيش حياة كالتي يعيشها كثير من أولئــك الــذين يســيرون فــي شوارعها.

منذ ذلك الحادث فصاعدًا، تضاءل حجم المسمط في العين غير الزجاجية لصفية، وأصبح بقاءها فيه مسألة وقت، حيث فتحت المدينة ذات المباهج الألف ذراعيها لها بالكامل، شريطة أن تشحذ ذكاءها وخفة يدها، وتصبح واحــدة مــن

شطارها الذين يحيون ما يقومون به من نهب وسرقة كلما استطاعوا ذلك.

بسبب وجودها في المسمط، ظلت عاجزة عن سرقة الأشياء الكبيرة، واضطرت لسرقة الأشياء الصغيرة، سهلة الإخفاء، ولم يمض وقت طويل على حادثة الحذاء الأحمر المحدودة الأهمية، إلا وكان قد تجمع لديها عدد لا بأس به من الأقراط الرخيصة، وأمشاط الشعر، والدبابيس، والجوارب الرجالية والنسائية، لأنها تخصصت آنذاك في سرقة باعة الأرصفة الذين يعرضون بضاعتهم ذات رأس المال المحدود على فرش بالرصيف، ثم اكتشفت بعد فترة إمكانية سرقة عشاق السينما، خصوصًا أولئك الخارجين من حفلة الساعة التاسعة الذين مازالوا واقعين تحت تأثير غرام الأفلام، وقبلاتهم المسروقة بحماس في الظلام، إذ يتخيل كل منهم أنه بديل للبطل، أو البطلة الجميلة في الفيلم، فمن أولئك يمكن سرقة إيشارب من الشيفون الرقيق، يتدلى باستعراض من طرف حقيبة يد لسيدة أو فتاة أنيقة، أو سلسلة مفاتيح تطل من جيب بنطال شاب غندور، وقد ساعد الحجم الضئيل

لصفية على نجاحها، والتوفيق في مهماتها دون أن يشعر بها أحد.

وفي يوم أسود لن تنساه أبدًا، وقعت في قبضة البوليس دون أن تدري، مما جعلها وحتى هذه اللحظة من حياتها، لا تندم على شيء قدر ندمها على غفلتها، وعدم تنبهها للخطأ الذي ارتكبته، فبعد أن بلغت بحوالي ثلاثة شهور، كانت تسير ذات يوم في شوارع المدينة، بجسدها المتعب، وعظامها التي تشعر أنها على وشك التفتت بسبب حالة الطمث التي هي فيها، لاحظت سيدة لها مؤخرة ضخمة كمعظم النساء المصريات، وإلى جوارها طفلة، ربما لم تتجاوز السادسة من عمرها، تضع حول رقبتها سلسلة ذهبية، يتدلى منها على صدرها، مصحف صغير بفص أزرق عند منتصفه، تدوران للفرجة على الواجهات الزجاجية لمحلات ملابس الأطفال، وإذ هما واقفتان أمام أحد هذه المحلات والأم مشغولة بتفحص المعروضات، لتنتقي شيئًا لطفلتها، امتدت يد صفية إلى مشبك السلسلة المستقرة على رقبة الطفلة من الخلف، وحاولت فتحها، لكن الصغيرة، تنبهت

فورًا وصرخت مما جعل الأم تلتفت وتمسك بيد صفية بعنف طالبة النجدة من عابري الطريق.

لسوء الحظ، كانت السيدة ابنة لضابط مرمـوق فـي الشرطة، مما استلزم أن تذوق صفية علقة متميزة، موصـى عليها، تولى أمرها متخصصون في الإيـذاء والإيـلام دون ترك آثار يعتد بها الطب الشرعي، وعندما انتهوا من مهمتهم التي استغرقت ما يقارب ساعة من الوقت، كانت صفية تشعر بأن عينها اليمنى لا بد وأن تكون قد أصابها ما أصاب عينها اليسرى منذ زمن بعيد. في اليوم التالي لذلك، جـرى تقـديم صفية للنيابة التي حولتها بدورها للقضاء، لتحصل على حكم بالسجن لمدة سنة لأول مرة في حياتها، ولتصبح تلك السـنة، فاتحة لعلاقة طويلة ممتدة بين صفية والسجن الـذي سـوف يقسم معها الشطر الأكبر من عمرها.

ويبدو أن الزمن كان يقف لصفية بالمرصاد، مؤكـدًا أنه طرف في مصائر البشر، مهمـا كانـت قـوة إرادتهـم ورغبتهم في العيش، على نحو هادئ لا يكدره شيء، يقلـق سعادتهم، أو أن هناك بعض الناس يرسم تـاريخهم لحظـة ميلادهم لأن صفية لم تستقم حياتها وتمضي بسـلام، حتـى

النهاية، مع ولديها والزوج الحائط الذي كان يفضل تربية الأولاد والأعمال المنزلية على أية أعمال أخرى خارج البيت، مما جعله يرعى الولدين بكفاءة وشغف، أتاحا لصفية التفرغ لمهمتها الأساسية في توفير النقود، وإعالة الأسرة التي استطاعت الوفاء بكل متطلباتها، إلى الحد الذي جعل حلم دخول الولدين الجامعة، ضرورة غير قابلة للنقاش، وهو الحلم الذي راود ملايين الفقراء والمغمورين، بعد إعلان عبد الناصر مجانية التعلم، لقد كان ذلك بالنسبة لصفية وزوجها هو الإمكانية الوحيدة، والأمل الحلم في أن يتحولا إلى أناس لهم وجودهم المحترم في المجتمع، لذلك عملت على توفير كل ما يمكن أن يوفره الناس المحترمون، برأيها، لأولادهم، فكانت حريصة على أن تكون ملابسهم لائقة، وبيتها نظيفًا، لا يخلو قدر الإمكان، من سلع حديثة تعبر عن الترقي والتمدن، حتى لا يشعر ولداها بكونهما أقل من الآخرين عصرية وحداثة، فكانت تشتري كل الأشياء مهما كان سعرها أو ضرورتها العملية، مثل ولاعة الغاز، والمبيدات الحشرية، وعلب سوائل يعطر رشاشها الجو، وأنواع متباينة من غسولات الشعر، ومجففه الكهربائي، إضافة إلى الأجهزة

الكهربائية الكبرى كالغسالة والثلاجة والبوتاجاز والتليفزيون والفيديو، وببساطة مأساوية تطلبتها الاحتياجات العصرية المفترضة، والمتجددة دومًا، لتلك الأسرة السعيدة، دخلت صفية في عالم تفيدة أكبر تاجرة مخدرات في منطقة الدرب الأحمر.

كانت صفية تعتبر كادرًا نادرًا، بالنسبة لتفيدة في شبكة تجارتها الواسعة المنظمة تنظيمًا دقيقًا يجعلها في مأمن دائم من هجمات البوليس الذي كان ملمًا بنشاطها إلى حد كبير، لكنه لا يستطيع اتخاذ أية إجراءات ضدها، بسبب عدم ثبوت الأدلة، نظرًا لمهارتها في تنظيم عملها، ولأن كثيرًا من عيونه عليها، هم عيون لها أيضًا، وقد استفادت تفيدة من علاقات صفية الواسعة، ومعارفها العديدين، بسبب ترددها على البيوت، وعدم الاشتباه فيها في هذا المجال، فكانت تقوم بمهمات التوزيع الصعبة، مقابل حصولها على مبلغ يفوق رأس مالها في تجارة الأقمشة والبضائع الصغيرة الأخرى التي كانت تتاجر بها، فانتعشت أحوالها المالية انتعاشًا بلغ حد شرائها دكانًا لزوجها وولديها، ليصبح أحد مراكز نشر زبالة السينما الأمريكية الممثلة في أفلام العنف والرعب والكاراتيه،

إضافة إلى أفلام السينما المصرية التي لا رجاء فيها غير أن مفتاح الصدفة، فتح عيــون البــوليس، علــى ذات العــين الزجاجية، بينما كانت تقوم بتوزيع حصة بودرة هيروين على تاجر مخدرات تابع لتفيدة في صاحية من ضواحي المدينــة فقد هاجم البوليس في هذه الأثناء العمارة التي يقطــن بهــا التاجر، للقبض على أحد أفراد الجماعات الإسلامية، وأخــذ في تمشيط الشقق بحثًا عن قنابل ومتفجرات وأسلحة ناريــة من تلك الأنواع التي تستخدمها هذه الجماعات في مواجهــة السلطة، وجرى البحث بحماس، ودقة، فلم يترك موضع، إلا وفتش في العمارة التي تعد نموذجًا أمثل لانحطاط فن البنـــاء في مصر، والدليل المبين على انعدام ضمير بعض العــاملين في البلدية، ورؤساء الأحياء، وهيمنة تجار الأسمنت والحديد المسلح وحثالة المعماريين على قطاع التشــييد والبنــاء، إذ كانت أشبه بصندوق أحذية قائم، له فتحات ومنافذ، وقد طلي بألوان تفتقد إلى كل حس وذوق جمالي، مما جعــل واجهــة البناية، أشبه بقطعة من الحلوى الرديئة ولسوء حظ صــفية، ارتاب بعض رجال البوليس في الحقيبة الشامواه الأنيقة التي تتأبطها على نحو لا يتفق وامرأة ذات عين زجاجية، وجســد

لا تقل الحقيبة عن حجمه كثيرًا، فأمروها بفتحها، ليجدوا بانتظارهم أكياسًا مليئة بالمسحوق المخدر ترقد متراصة، أسفل قطع القماش الملونة، والجوارب الرجالية، وربطات العنق الحريرية المجلوبة من المنطقة الحرة ببورسعيد.

وهكذا، عادت صفية إلى السجن، دون أن يداخلها أي شعور مأساوي من جراء ذلك، كما حدث لها من قبل، بل كانت راضية عن نفسها تمامًا، لأنها أدت رسالتها في الحياة على أكمل وجه فالولدان التحقا فعلاً بالجامعة، والأول متفوق في دراسة الزراعة إلى حد كبير، رغم أنه لن يعمل في مجالها بعد التخرج، لأن الزمن لم يعد زمن زراعة بل زمن سياحة وسمسرة ووساطة، وما يسمى برجال الأعمال، وصفية من ناحيتها أمنت للولدين دخلاً معقولاً، إلى الحد الذي جعل الولد الآخر، يخطب زميلة جامعية له كان يحبها وأصر على الارتباط بها.

ولم تكن صفية مهتمة بدخولها السجن، هذه المرة أيضًا، لأنها حولت معظم مكاسبها من تجارة المخدرات، إلى مشغولات ذهبية أخفتها في التربة التي اشترتها قبل القبض عليها بفترة، وبنت فيها مدفنين، وسورتها بسور عال، ذي

باب حديدي ضخم مشغول، لم تترك مفتاحه للتربي أبدًا، وذلك تحسبًا لحدوث ما حدث لها، فتقوم الحكومة بمصادرة ممتلكاتها الثابتة والمنقولة، وتأتي على كل أخضر ويابس صنعته بعرق جبينها المسفوح بكل وسيلة غير قانونية أو مشروعة.

تلقت صفية حكمًا بالسجن المؤبد حمدت الله عليه كثيرًا بعد ذلك لأنه لم يمر إلا وقت قصير على سجنها وتنفيذ الحكم، إلا وكان الإعدام نصيب المتاجر في المخدرات أو الذي يقوم بجلبها من خارج البلاد لكن حياة السجن القاسية ومرور الأيام جعلاها تبتئس وتسرع الخطى للانضمام إلى نادي الشيخوخة إذ باتت أوقات السجن تمر عليها وكأنها دهر من الزمان، بل وتعذبها إلى الحد الذي أصبح معه هاجسها الحقيقي في الحياة هو الخوف من أن تموت وحيدة مبعدة عن والديها ولا تتاح لها الفرصة، للعيش معهما مرة أخرى، وكانت تمضي لياليها تتذكرهم، ودموع كثيرة تنداح من عينها حتى عندما يغلبها النوم وتنام، تظل في أحلامها التي هي أجمل لحظات حياتها في السجن، تتحدث إليهما، كما لو كانت ما تزال تعيش بينهما بالفعل، فتشير على الثاني ألا يسرف

كثيرًا في تدليل خطيبته حتى لا تتمرع وتركبه وتدلي رجليها، وتساعد الأول المصاب بعمى الألوان في اختيار ملابسه، خصوصًا أنه لا يفرق ما بين الأزرق والأخضر، أما الزوج، فهي تذكره بالخير، لأنه كان الرجل الوحيد الذي حضنها وآواها دون سائر رجال الدنيا، بعد أن ألقت به الصدفة في وجهها، إذ أنها شيعت خطابًا لأمها ذات مرة في بلدتها البعيدة، زمن أن راجت الفلوس في يدها، عندما عملت بالتجارة، بعد خروجها من السجن، فردت عليها أمها تعلمها بوفاة زوجها، ودلتها على عنوان قريب لها بالقاهرة، فذهبت إليه لتقيم عنده، فلما وجدها معطاءة، لا تكلفه شيئًا، بل ولا تبخل عليه، بعطاء مما يعطيها الله، اقترح على نفسه، اقتراحًا عمليًا لن يضيره أبدًا، وجد معه أنه من الأفيد له التزوج بها، فلن تجود أيامه الصعبة عليه بزوجة أفضل منها.

كلما امتد الزمن بصفية في السجن، كلما زاد سخطها، وغضبها على الحكومة التي هي سبب مشكلتها وتعاستها والفرقة بينها وبين عيليها، فهي لا تفهم، ولن تفهم أبدًا، لماذا كل هذه القسوة من قبلها على واحدة مثلها؟ فهي تفهم أن تتدخل الحكومة في مسائل النشل، والسرقة، والقتل،

لكن المخدرات.. لماذا؟! فالناس يشترون المخـدرات عـن طيب خاطر، وعندما يتعاطونها، يروق مـزاجهم، وتصـفو نفوسهم، وكانت صفية ترى أن كلام كل الذين يظهرون فـي التليفزيون عن المخدرات ما هو إلا مبالغـات سـخيفة، لأن الأكل نفسه لو لم يعتدل فيه الإنسان، لضره ضررًا شديدًا، بل وكانت متأكدة أن كل ما يكتب في الصحف أيضًا ما هـو إلا كذب، لأن أولئك الذين يتحدثون عن المخدرات، هم أنفسـهم الذين يتحدثون عن كل شيء في البلد بالكذب، ولا يقولـون الحقيقة أبدًا، وربما لا يستطيع أحد لومها على ذلك، إذ اختلط الحابل بالنابل، وبات الدفاع عن الشر، وتجميله، من الأمور الشائعة في حياتها، ولذلك كان شعور صفية بـالظلم الواقـع عليها من ناحية الحكومة – كما تعتقد – يتجلى في مهاجمـة كلية الحقوق، وشتمها قدر الإمكان، والدعاء عليها بعد سماع كل أذان، وخصوصًا الفجر والعشاء، اعتقادا من صـفية أن الدعاء بعدهما مستجاب أكثر ، وكانـت المقولـة الدعائيـة المفضلة لديها هي "إلهي يهد كلية الحقوق"، لأنها الكلية التي تخرج منها القاضي الظالم، برأيها الذي حكم عليهـا الحكـم الجائر الشنيع والذي قرر فيه إبعادها عن ولديها لمدة خمسة

وعشرين سنة، ولذلك فهي ما فتئت ترسل الشكاوى لكل الجهات المعنية، بما في ذلك رئاسة الجمهورية، ومجلس الوزراء، على أساس أن الحكم الصادر بحقها لا يليق ولا يجب، وقد كانت تلك الشكاوى من الخيوط التي ربطت صفية بمحروسة أيضًا، لأن محروسة كانت تتصل بعائلة صفية، وتشرف على كتابة الشكاوى، ومتابعتها، أما الخيوط الأخرى، فكان على رأسها ذلك التقارب في عمريهما، وهم العيال الذي تحمله كلتاهما، بداخلها، لكن كرم صفية الدافق، كان من العوامل الأساسية المرجحة، لتدعيم العلاقة بين المرأتين، فصفية لا تبخل على محروسة بأي شيء يأتيها من ولديها عند زيارتهما لها في السجن، ابتداء من الطعام، والملابس، والأحذية، وحتى الدواء الذي تعطيه صفية لمحروسة، خصوصًا أدوية الروماتيزم، ونزلات البرد التي تختفي من الصيدليات أثناء الحاجة لها في فصل الشتاء، لأسباب يمكن معرفتها لدى الإدارة العليا في شركات القطاع العام، والأكثر من ذلك أن محروسة كانت تعتبر صفية بنك التسليف الخاص بها، فهي طالما استدانت منها نقودًا، كانت لا تأخذها منها في السجن، لأن العملة الوحيدة المتداولة فيه،

هي السجائر التي يمكن مبادلة أي شيء بها، حيث أن نسبة المدخنات تصل إلى تسع وتسعين بالمائة، على الأقل، من مجموع السجينات اللواتي يتوقف عدد العلب التي يدخنها حسب الوضع المالي لكل واحدة منهن، ودرجة إدمانها للتدخين، وبالطبع يرتفع كم السجائر المدخنة لدى أولئك اللواتي كن يتعاطين المخدرات، وبنات الدعارة، أكثر من غيرهن من السجينات، لكن محروسة كانت تأخذ قروضها الحسنة التي بلا فوائد أبدًا، من ابني صفية عندما ما يزوران أمهما في السجن أو حين تذهب هي إليهما في البيت، وقد وصلت العلاقة بين أختي الصفاء، إلى الحد الذي جعل زوج صفية يوظف في محل الفيديو الذي يخصه، ابنة محروسة مقابل مبلغ شهري معقول، بعد حصولها على دبلوم التجارة، بل ويتدخل في فض الخلافات التي تحدث بين البنت وأمها، بسبب رغبة الابنة في الزواج بعريس تقدم لها، يعمل كهربائيًا للسيارات، لكن الأم رفضته بشدة، لأنها حلفت وأقسمت ألا تتزوج أية واحدة من بناتها وهي على وجه الدنيا، لأن الرجال كائنات شريرة خلقت من ضلع الشيطان، ورغم أن بقية بناتها، كن مقتنعات تقريبًا بهذه الحقيقة، ربما

بسبب أنهن جئن الخالق الناطق، نسخاً مكررة من أمهن، إلا أن الصغرى، كان لها شعر ناعم فاتح اللون، خفف من وطأة الأمر، أنها أطالته حتى بلغ منتصف ظهرها، مما فتح بـــاب الرجال المغلق في وجهها، وأغـــرى كهربـــائي الســـيارات الأصلع منذ كان عمره أربع وعشرون سنة، وقـــد ســـاهمت مساحيق تجميل الوجه بكل ألوانهـــا الحمـــراء، والزرقـــاء، والخضراء التي تضعها هذه الابنة في حسم أمر رغبته بها، فتقدم طالبًا القرب منها.

ولأجل خاطر زوج العزيزة صفية، وافقت محروسة بعد لأي على إتمام الزواج، بعد كتابة مؤخر صداق كبيـــر، وعلى أمل أن يفشل الزواج سريعًا فتعود ابنتها الضالة إلـــى حظيرة المؤمنات بنظرية الضلع الشيطاني، وتنضم إلى كتيبة بناتها المعادية للرجال، مرة أخرى.

لسنوات طويلة كانت عزيزة ترقب عن كثب، مـــدى العلاقة التي تنمو بين محروسة وصفية، وتتابع بدقـــة حبـــل الوداد الممتد بينهما، وقد أنفقت ليالي طويلة تحتسي خمرهـــا النيلي، ملتهمة أنفاس سجائرها التي لا ينقطع دخانها المختلط بدخان صدرها المشتعل بالرغبة في تحقق العدالة، والرحمـــة

على الأرض، إذ تفكر في حالتهما، فمن خلال معرفتها العميقة بسجن النساء، قلما عثرت على علاقة صادقة، حميمة، محملة بالود والإخلاص، كتلك العلاقة التي نشأت ونمت بين محروسة وصفية، وقد كانت تلك العلاقة وحدها، هي السبب الأساسي الذي دفعها للتفكير في ضمهما لراكبات العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، رغم أنها لا تحب شخصية صفية أبدًا، ولم تحترمها في أي يوم من الأيام، لأنها برأيها أفاقة، ومجرمة بالطبيعة، ولا يمكن أن ترعوي، ويصلح حالها، مهما امتد بها العمر، وعاشت من الأيام، لكنها ستحملها إلى السماء لأجل خاطر محروسة الملائكية الروح الشيطانية الوجه الطاهرة النفس والجسد التي عمدت بدموع آلامها وعذاباتها الكثيرة، كقديسة حقة لا يمكن تبجيلها حقًا إلا في السماء، وعزيزة لا تريد حرمانها وإبعادها عن الصدر الحنون الوحيد المحب لها في هذه الدنيا، وهو صدر صفية التي لا تمانع عزيزة في إعطائها فرصة أخيرة، فربما – لو صعدت إلى السماء – تطهرت من شرورها، ومحت الحياة الملائكية التي سوف تحياها هناك مع جماعة نساء العربة الذهبية، ما لطخته أيامها الدنيوية في نفسها، فهي على أية

حال، وكما أثبتت تجربتها مع محروسة، لا تخلو من خير، وقلبها ليس بكامله بلون السواد، فهناك مناطق طيبة، مضيئة فيه قد تمتد، وتغمره كله بنورها لو سنحت لها الفرصة، وتبسمت الظروف غير أن الأيام، ضنت على عزيزة، بأمنية صغيرة كهذه الأمنية، فبعد مرور حوالي أسبوعين على يوم قناع العسل الأبيض، وجدت صفية في فراشها عند الصباح راقدة رقدة الموت الأخيرة، بينما كانت تحملق بعينها الزجاجية حملقة شعرت معها كل اللواتي لاحظنها، من السجينات الملتفات حول الجسد الساجي، وكأنها صادرة عن عين حقيقية، تتطلع بحزن وأسى، للقطعة السماوية الزرقاء التي تسمح برؤيتها فتحة شباك السجن المسيج الموضوع بالقرب منه سريرها، أما يداها الماهرتان اللتان طالما سرقتا بخفة ومهارة، فقد كانتا تقبضان بشدة على صورة ولديها الموضوعة على صدرها، وهما يبتسمان بسعادة من لا يخاف المستقبل.

كانت ذات مرة زنوبيا

تحظى الدكتورة بهيجة عبد الحق باحترام نادر – مفتقد عادة – من جميع الأطراف في سجن النساء، بما فيهم إدارة السجن ذاتها التي تقابل بحذر وخوف، وإذعان من قبل السجينات اللواتي يتجنبن قدر الإمكان الاحتكاك بها، فلا يتعاملن معها إلا في أضيق الحدود، محافظات بذلك على تقليد مصري قديم، هو أن يكون الحكام في جانب، والمحكومون في جانب آخر، تمثلاً لدرس تاريخي مدفوع الثمن، دماءً وأرواحًا، مرات ومرات، ابتداء بعصر بناة الأهرام، وما تلاه من عصور الفوضى التي سادت زمن الأسرة السادسة، والأسرات الأخرى المضمحلة بفعل نتائج الاستبداد الفرعوني، والقهر القائم على الاصطفاء والتمييز بين البشر، مرورًا بفترات الفرس، والبطالمة، والرومان، والعرب، والمماليك، والترك، والفرنسيين والإنجليز، وانتهاء بانتفاضة الجوعى في شتاء ١٩٧٧، هذا الدرس الذي يفيد أن كل تذمر، أو احتجاج، مقدر له البطش، ومصيره الفشل الأكيد، إذا لم يكن من القوة والجبروت بما يكفي لمواجهة

الحاكمين إلى حد القضاء على سلطتهم، والحلول محلها، وهو الدرس الذي أثبت صحته فشل كل الذين لم يستوعبوه فظهروا بمظهر البطل المثالي المأساوي، كالفرعون الفيلسوف إخناتون، وهمام السوهاجي الذي انتهت أحلامه في الاستقلال بتجريدة مملوكية انقضت عليه من مركز الحكم في القاهرة، وطالته في عقر داره بالصعيد.

لا يعود احترام بهيجة عبد الحق، إلى أنها شابة طيبة مهذبة، تنتمي إلى عالم البراءة، وقلة الحيلة، أكثر مما تنتمي إلى عالم الخبث، وطاحونة الصراع العمال بكل الوسائل الممكنة في دنيا البشر، لكنه يعود أساسًا، إلى كونها طبيبة، تحترم مثلما يحترم أي شخص بمجرد التحاقه بكلية الطب في بلد ارتبط فيه الطب بالحكمة، تاريخيًا، غالبية سكانه من فقراء الفلاحين الذين يرتفعون بالأطباء إلى مصاف الأنبياء المخلصين، ليس لأرواحهم من عذاباتهم التي قلما يلتفت إليها، ولكن لأجسادهم من آلامها وأمراضها المزمنة التي تبدو وكأنها واقع مقدر لهم سلفًا، لم تكن تهمة بهيجة – من زاوية نظر السجينات – مخلة بالشرف أو الأخلاق، فتستحق الحبس بسببها، حتى لو كانت تسببت، فعلاً في وفاة طفل

صغير، لم يتجاوز التاسعة من عمره، إذ أخطأت في تخديره لإجراء جراحة اللوزتين له بأحد المستشفيات الخاصة، فوفاة الأطفال أمر شائع كثيرًا، لا يختلف عن نفـوق الكتاكيـت، وصغار الفراخ، بل إنه يحدث يوميًا في الريف، والمدينـة، لهذا فإن المسألة في رأيهن يجب أن توضـع فـي حجمهـا الطبيعي، دون تهويل كتهويل الحكومة لما حصل مع بهيجـة عبد الحق، فكل امرأة لم يحرمها الله مـن نعمـة الخصـب والإنجاب، تستطيع بسرعة تعويض كل طفل مفقود، سـواء أكان ذلك بسبب خطأ في عملية جراحية، أو بسبب الجفاف، أو النزلات المعوية، أو الحميات الفولكلورية المنتشرة كنتيجة لعدم توفير المياه الصالحة للشرب، وسوء الصرف الصحي، وللدور الرمزي لوزارة الصحة في الأرياف ، ولعـل هـذا يفسر كيف أننا كشعب عشنا – والحمـد لله – سـبعة آلاف سنة، ولم نزل، دون أن نفنى، رغم البطش والعسف، وكـل الاحتلالات، والطواعين، وجفاف النيل والأطفال، والمجاعات التي بلغت أوجها في الشدة المستنصرية.

لم تكن سنوات الحكم القليلة التي لم تتجاوز الثلاثـة، والتي حكمت بها المحكمة على بهيجة عبد الحق، أو الاحترام

الكبير الذي تتمتع به في السجن، أو التسهيلات الكثيرة التي تحصل عليها من السجينات الحريصات على راحتها وخدمتها، بسبب رعايتها الصحية، ونصائحها الطبية لهن، لتخفف من وطأة شعورها بالمرارة، والحقد على الناس، والحياة، والدنيا كلها، فهي تعيش كل لحظة من لحظات أيامها في السجن، تتجرع الكراهية التي تحملها، للحياة، وتجعلها تفكر في الانتحار دومًا، دون أن تساعدها شجاعتها على تنفيذه فعلاً، لذلك فهي تكتفي بقضم أظافرها، طوال الوقت، إلى حد تجور به على الجلد المحيط بها، فيبدو في حالة تآكل واهتراء غير مفهومين لمن يراه، ولا تكف عن العبث بخصلات شعرها في حركات عصبية، قلقة، تواكب نظرات عينيها الحزينة الساهمة المحبطة، بينما معدتها تجاري على نحو ممتاز، شعورها المستفز، بحركة لا إرادية، دءوبة على إفراز حامض الإيدروكلوريك، مما بشر بحدوث مبادئ التهاب بها، وقرحة سوف تحتل موقعها على جدران غشائها المبطن، بعد سنوات قليلة.

كانت بهيجة من النمط الذي يتمنى أن تمنحه الحياة الكثير مما تجود به على غيرها من الناس، لأنها – وفقًا

لرأيها، وللحقيقة أيضًا – تمتلك قدرات، وإمكانيات تستحق عليها جانبًا من حب الدنيا التي لا تبخل على كثير من غيرها به، وذلك أبسط قواعد العدل الذي لم تتوقف بهيجة، رغم ذكائها الشديد، مرة لتفكر في أنه لفظة مطاطة، تشكلت بأشكال عديدة، منذ بلورها حمورابي في تشريع تمت سرقته بعد ذلك ليصبح غير أرضي، وربما فسر ذلك جانبًا من جوانب شخصية بهيجة، ذات الطابع المأساوي في ساحة الحياة، فقد كانت ومنذ أن وعت ذاتها في الدنيا حريصة على أن تكون النموذج الأدق للمثل الأفضل في رأسها، للكائن الحي، حتى يشملها العدل برعايته، وتبقى دائمًا في خانة التفضيل، وقد استدعى ذلك منها أن تبذل، وعلى نحو دائم، جهدًا كبيرًا لتكون مختلفة، متجاوزة كل المحيط الذي يحاصرها، ويملي عليها شروطه المسبقة، فاستطاعت في البداية أن تقتنص فرصة دخول المدرسة، وهي الفرصة التي لم تتح لشقيقتين لها، كانتا قد سبقتاها إلى الحياة، فقنن مصيرهما، أن تكونا، وإلى الأبد في العالم الاجتماعي السفلي، وقد تبدت براعتها بالاقتناص في قدرتها المدهشة على استيعاب، وتحصيل دروسها، رغم مريلة مصنوعة من

تيل نادية الخفيف، كانت ترتديها في عز الشتاء، فوق جلابية من الكستور العادي، متخلفة عن إحدى أختيها الكبيرتين، بعد أن يأبى جسدها النامي الدخول فيها، ورغم الجوع المــزمن الذي لم يقمع أبدًا، بسبب حصول معدتها على حصة يســيرة من طعام لم يكن يتوفر بنوعيات أو كميات كافية، بسبب دخل الأب المحدود، ولم تقف الرطوبة القارسة التي تطرد الدم من أطرافها عندما تنحني على أرضية الحجرة التي لا يغطيها إلا الحصير، لتكتب واجباتها المدرسية بكسرة قلم رصاص، ولا الالتهاب الخفيف بفروة رأســها بســبب الكيروســين الــذي تستعمله أمها لتدليكه به تجنبًا للحشرات، عائقًا يحــول بــين بهيجة وبين الأولية الدائمة في الدراسة، منذ أن ولجت عــالم المدرسة السحري الذي فتحت أبوابه العجيبة بيــديها علــى مصاريعها، فكانت الأولى فــي الســنة الأولــى، والثانيــة، والثالثة، حتى بلغت نهاية المرحلة الثانوية.

كانت بهيجة محظوظة، لأنها تعلمت في ذلك الــزمن المخطوف من تاريخنا البائس الذي احتفظ دائمًا، منذ زمــن الكهانة الأولى، بامتياز التعليم لقلة اجتماعية عليا، كانت تعيد إنتاج سيادتها بوسائل مختلفة منها العلم فــي ذلــك الــزمن

المخطوف، شاركت بهيجة بنت الخفير ابنة أي وزير المقعد المدرسي نفسه، لتحصل كل منهما على الجرعات التعليمية نفسها، صحيح أن العدالة الظاهرية في مجانية التعليم كانت تنطوي على كثير من التضليل والكذب، لأن ابنة الخفير ما كانت يومًا من الأيام، كبنت الوزير، فهي لم تأكل أبدًا طعامًا من النوع نفسه، ولا باتت مثلها على فراش ناعم وثير، بأي حال من الأحوال، بل ولم تحظ بامتياز الحصول على دروس خصوصية مدفوعة الأجر، من مدرسي المدرسة التي تتعلمان فيها، لكن الباب المفتوح للتنافس العلمي، وبذل جهود مضاعفة، وشحذ قدرات عقلية كبيرة، ثم الدأب المتحدي للحصول على أفضل مكانة دراسية، أتاحا لبنت عبد الحق الخفير، أن تفرض نفسها، وتبقى في موقع الأولية بالنسبة لجميع طالبات مدرستها الثانوية، بما فيهن بنت الوزير أيضا، وهكذا التحقت بهيجة بكلية الطب، وهذا ما عنى انتقالة نوعية جديدة في حياتها، ودخولها مرحلة صعبة من مراحل الصراع الذي يؤججه باعث داخلي خفي لدى بهيجة، إضافة إلى عوامله الظاهرية، وهو الباعث المرتبط بالرغبة في تحقيق حلم الأب الذي كان يعمل خفيرًا بإحدى شركات

الأدوية، ويعتبر الأطباء، بحكم الظروف، مثله الأعلى في الحياة، إذ كان يسد العجز المزمن في ميزانيته الأسرية، عن طريق ممارسة هواية مفيدة تتمثل في إعطاء حقن بالعضل والوريد مقابل مبالغ نقدية صغيرة، لمرضى حيه الذين لا يقوون على الانتقال إلى الصيدليات، أو الحصول على ممرضين ليليين للقيام بذلك، وكان عبد الحق يسد بذلك بعض أوجه الإنفاق العائلي المتزايد الذي كان التضخم المالي بسبب السياسات الاقتصادية الفاشلة للدولة، يجعله في تزايد مستمر.

لم توات ذلك الخفير الحالم الفرصة لرؤية حلمه الطبي مجسدًا في شخص ابنته الذكية، فلقد مات، فور حصولها على الثانوية العامة، بسرطان المثانة نتيجة لبلهارسيا قديمة مزمنة، مما جعل بهيجة تجدد عهدها السري الذي قطعته على نفسها، للأب، عندما كانت تزوره في قبره كل سنة عند حلول ذكراه، فتقرأ له الفاتحة ثم سورة "قل هو الله أحد" مع أمها وإخوتها، أن تكون الأولى دائمًا، وقد كانت تفعل ذلك وهي تذرف بعضًا من دموع الاشتياق والذكرى، وتضع سعفًا أخضر، وإقحوانات صفراء على قبره، واعدة إياه بمزيد من التفوق في العام الدراسي المقبل، رغم معاناتها

الفظيعة التي تجعلها وكأنها جندي يصبر على ما ابتلي به في ساحة حرب ضروس، فتكاليف الدراسة كانت باهظة بالنسبة لدخل أسرتها الذي تناقص بسبب وفاة الأب، ثم هناك مشكلة عريها الاجتماعي الذي بات واضحًا لأنه لم يعد هنـــاك زي مدرسي موحد يخفيه، فلا قبل لها بمواجهة ومجاراة بنـــات، وأبناء الطبقات العليا والوسطى الذين يحولون ساحة الجامعة إلى استعراض دائم لأحدث الأزياء والموضات، لكنها رغـــم الآلام النفسية الكبيرة التي عانتها، بسبب كل ذلك، استطاعت حفظ ماء الوجه بملابس بسيطة متوافقة الذوق، كانت تحيكها بنفسها، مستفيدة من الإرشادات التي يمكن الحصول عليهـــا من بعض المجلات السيارة، وخصوصًا مجلة حـــواء التـــي كانت المجلة النسائية الوحيدة التي تحـــرص بهيجـــة علـــى شرائها بقروش مقتطعة من نقودها القليلة، وقد أرسلت مرة، للمجلة تسأل عن كيفية التخلص من الهالات المحيطة بعينيها دائمًا، فلم تتلق إجابة لضياع خطابها في البريد، وهكذا، سعت بهيجة لتسير مركبها في الحياة، رغم الأمواج العاتيـــة التـــي تصارعها لتصل في النهاية إلى تحقيق حلم الأب المقبور.

غير أن بهيجة التي كانت الأولى في الطب، كانت الأخيرة في الحب، ففي سنتها الجامعية الثالثة، تقرب منها زميل لها، أحبته إلى حد ملاقاته خارج أسوار الجامعة في حديقة الحيوانات، والأسماك، وعلى شاطئ النيل، وفي كل الأماكن الأخرى المتاحة لأوقات غرام قصيرة، لا تكلف أكثر من أجرة الانتقال وتناول مشروب استعماري، كالكوكاكولا أو البيبسي ، مع ساندوتش فول وطعمية، خلال ذلك الزمن الجميل، بذلت بهيجة جهدًا صادقًا، ومحاولات جادة لتكون على أجمل صورة ممكنة عند ملاقاة الحبيب – زوج المستقبل فكانت تضع على وجهها أقنعة من عجينة النشا والملح في محاولة منها لحصار البثور، والتقليل من دهنية بشرتها، وتبيت طوال الليل في قلق، بسبب لفائف ودبابيس الشعر التي تضعها في رأسها قبل النوم، ضمانًا لأن يكون شعرها جميلاً صباح اليوم التالي، وقد ظنت وقتها، أنها بالغة منتهى تحققها في الحياة، وواصلة إلى كامل مرادها، فلن يمر عامان آخران، إلا وتكون قد تخرجت، وعينت ضمن طاقم هيئة التدريس، لأنها لا بد وأن تكون الأولى كعادتها، رغم الدروس السرية التي يقدمها الأساتذة لطلابهم الأغنياء مقابل

مبالغ خيالية، يدفعها أهلهم بكامل الرضا، من أموالهم المجلوبة من بلاد النفط، أو المنهوبة من مال الحكومة، والقطاع العام، أو من التجارة في كل شيء يمكن أن يجلب أكبر ربح في أقل زمن ممكن، ومع أنها لم تكن لتراهن على تفوق الحبيب عمليًا، لأنه كان ينجح بالكاد، إلا أن ذلك لم يمنع تخطيطها للارتباط به، فهو كزوج مقترح، يبدو ملائمًا لها من جوانب كثيرة إذ أنه ينتمي لطبقة تعلوها اجتماعيًا بعض الشيء، فأبوه من كبار صغار الموظفين في مصلحة الضرائب، يكفي مرتبه بالكاد أسرته الكبيرة التي يساهم دخل الأم، من عملها كخياطة في الحفاظ على مسيرتها الاقتصادية، مما يعني أن بهيجة ستبدأ حياتها الزوجية مع حبيبها درجة درجة، ليبنيا من الصفر قفصًا زوجيًا، يجمعان قضبانه قضيبًا قضيبًا بكدهما وعرقهما المشترك، كما أنه طبيب مثلها، وهذه مسألة بالغة الأهمية، لأن من الأفضل التزوج برجل لا تقل شهاداته الجامعية عن شهاداتها أبدًا.

بعد عامين من الآمال، والأحلام، والغرام المشبوب، اكتشفت بهيجة أنها كانت تقبض بكفيها على الريح، فمن كفها اليمنى طار الحبيب الزوج الذي طالما ظنته دعامة من

دعامات تحققها الوشيك، وهجرها إلى زميلة أخرى، تخسر أمامها بهيجة بالضربة القاضية في مجال الحسن النسائي، إذ كانت الأخرى تدعك بفلوس أبيها، صاحب أحد محلات الأحذية الشهيرة بالمدينة، فانوس وسائل التجميل السحرية التي حولت شعرها الخشن باهت اللون، إلى خيوط من الحرير الذهبي المحيط بوجهها الذي يساهم مساهمات دائمة في دوران عجلات معامل ماكس فاكتور، وهيلينا روبنشتاين، وياردلي، ولانكوم، وغيرها من قلاع صناعة التجميل في العالم، بالإضافة إلى ملابسها الأنيقة المنتقاه بحرية الفلوس، والتي كانت تتجدد على جسدها، تجدد أيام الأسبوع الدراسي، والأكثر من كل ذلك أن تلك الخاطفة لبهجة قلب بهيجة، أعطته ما لم تمنحه بهيجة له أبدًا، إذ آثرت الاحتفاظ بدليل عفتها وطهارتها حتى ساعة الصفر الموعودة، ليلة زفافها أما كفها اليسرى فأصبحت خاوية أيضًا، لأنها اكتشفت أن الأولية، وإن كانت مقبولة في مرحلة الدراسة الابتدائية، أو الإعدادية، أو الثانوية، أو حتى طوال سنوات الدراسة الجامعية، فإنها لا تمنح إلا بحسابات دقيقة لمن باتوا على عتبة الحياة العملية، فطغاة الطب الذين ظلوا يطرحون

شعارهم القديم، ذا العين المثلثة، خلال الــزمن الناصــري، والمقصود به عزبة في الريف، وعربة، وعيادة، وهو الشعار الذي كان يعتبر منتهى أمل كل طبيب ناجح، طوروا الشعار على نحو مذهل بعد ذلك، زمن الانفتاح الاقتصادي، ليصــل إلى حد المستشفيات السياحية الضخمة التــي يمــوت علــى أبوابها كل مريض لا يدفع مصاريف علاجه الخيالية مقدمًا، هؤلاء الطغاة، لم يكونوا ليسمحوا أبدًا لأمثال بهيجــة عبــد الحق، ابنة خفير شركة الأدوية، أن تشاركهم قدس الأقداس، فتزاملهم في هيئة التدريس التي باتت معملاً لصــنع نجــوم الطب اللامعة الجاذبة لأموال النفط من السعودية والخلــيج، وللعمولات والسمسرة، وإذا كان هؤلاء الطغاة قــد طيــروا مجدي يعقوب إلى لندن، ليظل بنبوغه وتفوقه شاهدًا حيًا على صحة المقولة القديمة " لا كرامة لنبي في وطنه"، فإنهم هووا ببهيجة عبد الحق من عرش أحلامها المحلقة، إلى أوضــاع مجتمعنا المرة، وأعطوها تقدير جيد، لا غير، بعد أن خسفوا بها الأرض في الامتحانات الشفوية التي لــم تعــط خلالهــا الفرصة لتجيب، وهي التي كانت وقتها تتلجلج فــي الإجابــة وتتردد، بسبب حالتها النفســية المترديــة لفقــدان الحبيــب،

وضعف ثقتها بنفسها وهي ترتدي ملابس متواضعة كيفما اتفق، وشعرها ملموم كعكة خلف رأسها في مواجهة سادة يرتدون بذات وربطات عنق فاخرة، ولا يدخنون إلا الغليون والسجائر الأجنبية المختلطة روائح دخانها، بروائح عطورهم ذات الماركات الشهيرة المجلوبة من عواصم العالم الأول.

هكذا أصبحت بهيجة عبد الحق طبيبة تنتمي إلى آلاف الأطباء المنسيين في مستشفيات وزارة الصحة المحتاجة إلى مستشفى ضخم لعلاجها من أمراضها المزمنة، وتحويلها إلى جهاز قادر على انتشال المجتمع من أمراضه التي تأكل أعمار الناس طوال الوقت.

في السنوات التالية للتخرج، اكتشفت بهيجة حقيقة مكانتها الاجتماعية المتواضعة كطبيبة قيمت الدولة أهميتها بمبلغ مائة وعشرين جنيهًا، فقط لا غير، أي ما يساوي ثمن قطعة، أو قطعتين من الثياب اللازمة للذهاب للعمل، أو ثمن أربعة أزواج من الأحذية التي تنتهي قيمتها الاستعمالية بعد شهرين، أو ثلاثة من الاستخدام، قد تمتد شهرًا آخر، إذا ما أجريت لها عمليات إصلاح، وترقيع للكعب والنعل، عند جزماتي مخلص من ضرورة شراء حذاء آخر، وبالأحرى،

فإن راتبها حينذاك كطبيبة، يوازي صبغ شعر رأس فارغ لسيدة تنتمي للشريحة العليا من الطبقة الوسطى المتآكلة تدريجيًا في ظل المتغيرات الاجتماعية الجديدة التي لم يعد العلم وسيلة من وسائل التحقق فيها، بعد أن قصف الغرب الرقبة المشرئبة للحاق به، بعد سقوط الزمن الناصري، وضياع ذكريات عيد العلم من الذاكرة الاجتماعية المثقوبة، عندما كان متفوقو المدارس والمعاهد والجامعات يمنحون من عبد الناصر جوائز، ليس بصفته رئيسًا للجمهورية فحسب، ولكن باعتباره زعيمًا مخلصًا، تعقد عليه آمال جملة شعوب، تعيش بين خليج النفط الأسود، ومحيط تقبع على طرفه دولة يحرم الفقراء فيها حتى من حبات فطر بري، يلتقط من الغابات، يقيمون بها أودهم.

وهكذا بقيت بهيجة، اجتماعيًا في مكانها محلك سر، رغم سنوات الشقاء، والكد، وحفر الصخر بالأظافر، للتحرك من ذلك المكان، مما جعلها تتساءل دومًا عن حقيقة كينونتها، وعبثية وجودها الاجتماعي، وهو التساؤل الذي أدى في النهاية إلى إصابتها بدرجة من الفصام، أو الجنون الخفيف الذي لا يلحظ، لأنها باتت واقعة في تناقضات حادة، ناتجة

عن كونها تحترم ولا تقدر، وبالطبع لم يلحظ أحد فصام بهيجة الخفيف، لأنه من النوع المصاب به ملايين غيرها، فهي تتصرف أثناء العمل بوقار وجدية لازمين للتعامل مع المرضى، وطاقم الخدمات الطبية المعاون لها، بل وتتعامل بخشونة أحيانًا، فتنهر الممرضات، وتقسو على بعض المرضى ممن لا يلتزمون بتعليماتها في العلاج، لكنها كانت بمجرد أن تغادر المستشفى، وتسير في الطريق، تشعر بالدونية، والضعة الشديدة، إذ ترى السيارات الفخمة السارحة في شوارع المدينة، والتي تقودها نساء في قمة التألق، والتأنق، وكأنهن ممثلات في السينما، وكان يقوي ذلك الشعور بداخلها، إذا ما توقفت أمام المحلات، متطلعة في أسعار السلع والأشياء التي تحتاج الكثير منها، وعندما تصل إلى البيت، تتحول إلى كائن آخر غير الذي كانته أثناء العمل، إذ تبدو متوافقة جدًا مع الأثاث المنزلي المتواضع القديم، وطعام الغذاء الفقير الذي تقدمه لها أمها، دون تنويع عادة، مع كل تفاصيل حياتها التي لم تتغير كثيرًا منذ كانت طفلة.

لقد كان مبعث فصام بهيجة غير الملحوظ في حقيقة الأمر، هو بحثها الدائب عن موقعها في الهرم السري

الصغير الذي تحمله بداخلها ككل الآخرين، والذي هو للفــرد بمثابة بوصلة، تحدد كيفية رؤيته وتعامله مع مــن حولــه، فيتطلع بتقدير واحترام لكل من هو أعلى منه فــي الهــرم، ويحتقر كل من هو دونه، فيه ولعل هذا يفسر كــون مصــر البلد الأكثر ابتكارًا لألفاظ التبجيل والاحترام، والمجــاملات اللفظية المعبرة عن حقيقة الأهرامــات الســرية الصــغيرة الكامنة في داخل أبنائها، وذلك باعتبارها البلد الــذي عشــق الأهرام منذ سنوات موغلة في الزمان، وقد حارت بهيجة، إذ وجدت تناقضًا في موقعها الهرمي يختلف في ساعات عملها عنه في بقية أوقات يومها، بالإضافة إلى ضآلة راتبها الــذي لم يسعفها كثيرًا في تلبية حاجاتها اليومية البســيطة، لتعــيش على نحو أفضل مما كانت عليه أيام كفاحها الدراسي، وذلك بسبب النشاط الدءوب للأسعار وقفزاتها العالية، وقد أيقنــت بمرور الأيام أن مسألة زواجها باتت مشكلة حقيقية لم تتنبــه إليها من قبل، فرغم أنها مقبولة الشكل، من النوع الذي يقبل عليه الرجال دون حماس، لكنهم لا ينصرفون عنه تمامًا، إلا أن عملها في وزارة الصحة، قلص فرصة احتمــال التقائهــا بشخص مناسب للزواج، فهي محاطة في مستشفى الــوزارة

الذي أصبح كل محيطها الاجتماعي تقريبًا، بعدد من الرجال، إما أن يكونوا قد تزوجوا فعلاً لأنهم كبار في السن، بقوا في الوزارة لتواضع طموحاتهم، فالأذكياء من الأطباء لا يطيلون عملهم في وزارة الصحة، فهم يهجرونها إلى أماكن عمل بديلة في القطاع الخاص تتيح لهم دخلاً معقولاً، أو إلى القطاع العام ليحصلوا على خبرة عملية تؤهلهم للانطلاق إلى مجال مهني أرحب، أو أن يكونوا شبانًا من أولئك الذين يحصلون على رواتب محدودة، لا تجعلهم يحاولون الاقتراب من عالم الزواج، مكتفين بمغامرات عاطفية عابرة، مع ممرضات المستشفى على الأغلب، أو مع أنماط من النساء مستوعبات لشروط مثل هذا النوع من الألعاب، وهي الأنماط التي لم تكن بهيجة عبد الحق ولن تكون منها أبدًا.

الجانب الآخر من المشكلة، تمثل في الوضعية الأسرية لبهيجة، فإخوتها الأربعة الذين يكبرونها، لم يدخل بعضهم إلى المدارس أصلاً، كالبنتين الكبيرتين، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن تزوجت إحداهما من عامل في مصلحة المجاري، أما الأخرى فقد تزوجت بصعوبة شديدة لأنها عرجاء بسبب شلل الأطفال الذي أصابها قبل أن تكون

الحملات الحكومية للوقاية منه قد شاعت، وكان الرجل الذي تزوجها، لأنه أرمل عائل لثلاثة أطفال، يعمل على نحو غير منتظم، ككاتب عمومي أمام محاكم الدولة، أمـا الأخ الـذي يكبرها مباشرة فقد حصـل علـى شـهادة إتمـام الدراسـة الإعدادية، بعد رسوب متكرر فيها، لأنه كان يفضـل لعـب الكرة الشراب في الشارع، على حفظ أسباب الحملة الفرنسية على مصر، ولما حاز على تلك الدرجة العلمية الرفيعة، من وجهة نظره، تطوع في الجيش، ضامناً بذلك الإفـلات مـن بطالة محققة، إذا ما نوى إتمام تعليمه، بالإضافة إلى تمتعـه بامتياز الانخراط في مؤسسة من مؤسسـات السـلطة. الأخ الآخر، ولد من النوع المنغولي، وقد عاش حتى بلغ التاسـعة عشرة من عمره ثم توفاه الله، وهو لا يحسب إلا من الناحية الكمية بالنسبة لمشكلة بهيجة الزواجية التي وضـح تعقـدها بمرور الأيام، لأن الأطباء ومن هم على شاكلتهم الاجتماعية، والذين هم على استعداد للزواج، لا يجدون فيها ما يغـريهم كطرف زيجة، بل بالعكس فإن الأوضاع الاجتماعيـة غيـر المرموقة الخاصة بأسرتها، كانت ترجح كفة عدم الإقدام على الارتباط بها، فما المغري في تأسيس شركة زوجية مع واحدة

لا مال ولا جمال، ولا أسرة مرموقة لها، إذا كان الحديث النبوي الشريف يقول: "تخطب المرأة لأربع: لمالها، وجمالها وحسبها ودينها، ففز بذات الدين تربت يداك"، وهذا الزمن ليس زمن أولئك الذين يرغبون الفوز بذات الدين اللهم إلا إذا كانوا من الجماعات الإسلامية، وبهيجة لا يمكن أن تلفت نظر أحد ممن ينتمون إلى جماعة من هذه الجماعات، فهي لا تتحجب، وليست من اللواتي يغالين في الاهتمام بالأمور الدينية، رغم أنها كانت تصلي دائمًا، بل وكانت تعتبر الصلاة معينها الكبير، لتحقيق النجاح المنشود، طوال سنوات دراستها.

حاول بعض أقرباء بهيجة وجيرانها المتعاطفين مع قضيتها أن يمدوها بخطاب، لكن محيطهم الاجتماعي لم يسمح إلا برجال أقل من أملها، وطموحها في هذا الجانب، فبعضهم لم يحصل إلا على شهادات متوسطة، ووظائف حكومية متواضعة، والبعض الآخر كان مستواه التعليمي، محدودًا جدًا، رغم دخله المالي المرتفع، مثل تاجر الأدوات المنزلية الذي تقدم لها وكان تعليمه متوقفًا في المرحلة الابتدائية، بل إنه لم يكن يجيد القراءة والكتابة، رغم بقائه في

المدرسة أربع سنوات، مما اضطره لعمل خاتم نحاس ليوقع به على ما يلزمه من معاملات رسمية، وخصوصًا معاملات مصلحة الضرائب.

مرة واحدة، كادت أن تتزوج، عندما تقدم لها صاحب صيدلية في الحي الذي تقطنه، توفيت زوجته حديثًا تاركة له أربع أبناء، لكنها استبعدت الفكرة تمامًا عندما اكتشفت أن أكبرهم يقاربها في العمر.

وهكذا قطعت بهيجة أملها في الزواج، وعاشت على أمل آخر أن تتاح لها في يوم من الأيام فرصة السفر إلى بلد من بلاد البترول، فتعمل مثل أولئك الذين يسافرون للعمل به، عندئذ سوف تحقق بضربة قصيرة محدودة، أملها الدائم في الصعود إلى أعلى، والانتقال إلى مستوى حياتي آخر يختلف عن ذلك الذي عاشت فيه وما تزال عندها ربما أقبل عليها الرجال، وربما واتتها فرصة اختيار زيجة ملائمة، لا تقف الفلوس عقبة في سبيلها، من أحد زملائها الأطباء، محدودي الدخل مثلها الذين يمكن أن تصادفهم خلال عملها في المستشفى.

لكن بدلاً من الانتقال إلـــى بـــلاد تركـــب الفولفـــو والمرسيدس، ويتجول أهلها بالطائرات في جميع أنحاء العالم وكأنهم يتجولون بالأتوبيسات، انتقلت بهيجة إلى مكان، ربما لم تفكر يومًا أنه موجود على خريطة الوطن أصـــلاً، هـــو سجن النساء الذي باتت واحدة من نزيلاته.

كانت بهيجة قبل ذلك، قد عملت في إحدى العيـــادات الطبية الصغيرة التي انتشرت انتشارًا واسعًا، خصوصًا فـــي حزام المدن العشوائية الجديدة الذي يطوق مدينـــة القـــاهرة وضواحيها القديمة، والذي نما نمـــوًا ســـرطانيًا ليســـتوعب الهجرة اليومية الدائبة من الريف إلى المدينـــة، بحثًـــا عـــن شروط أفضل للحياة، وقد بدأت ذلـــك بعـــد أن تخصصـــت كطبيبة تخدير، وهو التخصص الذي فرضته عليها ظـــروف عملها في وزارة الصحة، وكان ذلك العمل الإضـــافي، إلـــى جانب عملها الثابت الصباحي في الوزارة، يدر عليها دخـــلاً بسيطًا بين الحين والآخر، عندما يتوجب وجودهـــا لإجـــراء بعض العمليات الجراحية الصغيرة في هذه العيادة، مما أتاح لها فرصة مواجهة متطلبات الحياة كل أيام الشـــهر، بينمـــا كانت تضطر قبل ذلك لاستدانة بعض المبالغ النقدية اليسيرة

من أختيها وزوجيهما، وتقوم بردها بمجرد حصـــولها علـــى راتب الشهر الجديد.

غير أنها ولسوء حظها، أعطت جرعة مخدر زائـــدة لطفل صغير، أدت إلى وفاته أثناء إجراء الجراحة، مما حرك اتهاما قضائيًا ضدها، وضد الطبيب صاحب العيادة من قبـــل أهل الطفل المتوفى، انتهى إلى الحكم عليها بالســـجن ثـــلاث سنوات، وتغريم الطبيب بضعة آلاف من الجنيهـــات، علـــى أساس إهمالهما الجسيم في العمل الذي أودى بحياة الطفل.

بعد شهور طويلة من الوحدة والعذاب وحالة الاكتئاب التي عاشتها بهيجة في السجن، بسبب عدم قدرتها المســـتمرة على التكيف في ذلك العالم الوحشي الغريب عنها، والذي ما كانت تتصور وجوده أبدًا، تعرفت بهيجة على مدام زينـــب، عندما نقلوها إلى عنبر آخر جديد، ومدام زينب هـــو الاســـم الذي تصر جميع السجينات على استخدامه عند تعاملهن مـــع زينب منصور، بل وتستخدمه بعض السجانات أيضًـــا، لأن زينب منصور، كانت تجبر الجميع على تقديرها واحترامها، ومعاملتها معاملة رقيقة من نوع خاص، فهـــي أولاً امـــرأة جميلة إلى حد كبير، ذات صوت نـــاعم خفـــيض وعينـــين

ناعستين لا يمل النظر فيهما لاتساعهما، وصفاء لونهما اللوزي الفاتح الذي يتناسب مع لون بشرتها البيضاء وشعرها الأسود الذي تقصه قصيرًا عند حد القفا من الخلف وبذؤابات متناثرة ناعمة على الجبهة والأذنين، وهي ذات يد طولى في السجن، بسبب عائلتها الأرستقراطية العريقة التي ينتشر أفرادها في مواقع مرموقة وهامة بأجهزة الدولة، مما يجعلها تحظى بمعاملة جيدة من إدارة السجن، ولا تتعرض لمضايقات وسخافات، كتلك التي تنالها الأخريات اللواتي لا حماية لهن، كما أنها، إضافة إلى ذلك، امرأة غنية، تشمل أفضالها عددًا لا بأس به من السجينات، خصوصًا أولئك التي يقمن على خدمتها، فيكنسن ويمسحن وينظفن مكانها في العنبر، بل ويغسلن ملابسها، ويعددن الطعام لها، الأهم من ذلك، والذي حبب الجميع فيها، هو تواضعها وتسامحها الدائم في تعاملها مع كل المحيطين بها، مما جعلها في النهاية الحكم الذي يؤخذ برأيه في فض المنازعات التي تنشب بين السجينات، وصاحبة المشورة لمن لديها مشكلة، والملجأ لقضاء الحاجات داخل السجن، وخارجه استنادًا إلى نفوذ أقربائها.

جاءت زينب منصور إلى السجن، لأنها قتلت عم أولادها القصر، وقد فعلت ذلك ببساطة شديدة لا يقوى عليها إلا قاتل متمرس محترف، ولا يتصور أحد أبدًا أن تقوم به تلك المرأة القصيرة الجميلة الرقيقة رقة البللور الذي يخشى عليه من الكسر، لكن زينب منصور، كانت الوحيدة المدركة أنها فعلت ذلك ببساطة وهدوء، بل وأنها يمكن أن تفعله مرة ثانية وثالثة ورابعة، لو اضطرت إلى ذلك، ووضعتها الظروف في نفس الموقف مرة أخرى.

عاشت زينب قبل ذلك، حياة عريضة مترعة بالإثارة والأفراح، تصلح لأن تكون موضوعًا لأحد أفلام السينما، ما عدا السينما المصرية بالطبع، كيلا يجري ابتذاله وتشويهه، فزينب هي الابنة الوحيدة لإقطاعي سابق كبير، تنحدر أصوله من أسرة مملوكية امتزجت بدم مصري، عبر زيجة مرموقة لأحد رجالها من بنت واحد من مشايخ الأزهر، أيام كان الأزهر سلطة دينية ودنيوية أيضًا، وقد تقلصت ثروة الأب بعد ثورة ١٩٥٢ وصدور قانون الإصلاح الزراعي من حيث الأملاك الزراعية، لكنها تمددت في مجال تجارة

الخردة، تمددًا كبيرًا، وصل إلى حد أصبح معه واحدًا من أكبر ملوك الخردة في مصر.

خلال ذلك كانت زينب شابة، يشار لها بالبنان في المجتمعات والمنتديات القاهرية الصاخبة، ونجمة الحضور في عروض الأزياء بملابسها الغرائبية المجلوبة من أشهر بيوتات الأزياء الباريسية، والتي تفوق غرابة ملابس العارضات أنفسهن، وقد ظلت صانعة لأشهر قصص الغرام المتداولة في سهرات النميمة، وهي القصص التي كان يتخلف عنها، عادة، عشاق ضائعون بلا أمل في وصل ما انقطع مع تلك المرأة الفاتنة التي كانت تنتقل من قصة لأخرى ببراعة شهرزاد نفسها في قص حكايات ألف ليلة وليلة، وبما أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، فإن زينب وقعت في الغرام ذات مرة، أثناء رحلة من رحلاتها المتكررة إلى العالم الغربي، ولم يكن المغرم غير قائد الطائرة التي أقلتها نفسه، وهو فاتن نساء خبير لم تتسع دائرة ضحايا غرامه منذ اللحظة الأولى كثيرًا، لأنه اكتفى بوظيفته السماوية فقط، مؤثرًا عدم التمثيل في السينما كعمر الشريف أو عبد الحليم حافظ.

لم يكن الطيار الوسيم أقل شأنًا من زينب في مجـــال الغنى والجاه، فقد كان ينتمي إلى عائلة من أصـــول إيرانيـــة استقرت بالقاهرة منذ حوالي مائتي سنة، واشتهرت بصناعة السجاد، لكنه اضطر لتعلم الطيـــران، لأن مجانيـــة التعلـــيم، دفعت بعشرات المنافسين له في الثانوية العامة إلـــى أبـــواب الجامعة التي أوصدت في وجهه، بسبب مجموعة المحـــدود، وهكذا التحق بمعهد خاص للطيران، اكتســـبت مـــن خلالـــه وظيفة مرموقة في النهاية كقائد طائرة. لم تمر سنوات علـــى اللقاء الهوائي بينه وبين زينب، إلا وكان أبًا لولدين أنجبـــت كلاً منهما بعد عملية قيصرية وكانا آية في الحسن، بســـبب قوانين الهندسة الوراثية التي فعلت مفعولها فـــي الانتخـــاب الطبيعي، فاختارت العينين الرائعتين للأم، والجسد السمهري للأب، وتلك التقاطيع التي لا يختلف علـــى جمالهـــا اثنـــان، والمنتقاة في توليف رائع من وجهي كليهما، لكن القدير العليم يشاء أن يطوي صفحة سعادة الزوجين العاشـــقين، بمـــوت الحبيب في حادث طيران مأساوي، لتبدأ صفحة جديدة فـــي حياة زينب منصور. فالحادث المباغـــت الـــذي لـــم يمهـــل الزوجين لتنفيذ خطتهما التي كانا قد رسماها سويًا لحياتهمـــا

المشتركة في السنوات الأخرى المقبلة، والتي تتلخص في استقالة الزوج من عمله ليبقى إلى جانب أسرته، ويؤسس مشروعًا تجاريًا بديلاً، لم يقلب حياة تلك الأسرة رأسا على عقب، ولم يطفئ جذوة الحياة الصاخبة داخل زينب أيضًا، لكنه أحدث تغييرًا جذريًا غريبًا في شخصيتها، جعل كل من يعرف زينب قبل ذلك، يؤكد أنها باتت امرأة أخرى، غير التي كانتها تمامًا، فقد أصبحت امرأة بلا تأنق، بلا مساحيق وجه، لا تخرج إلا نادرًا، وترتدي أبسط الملابس وأقلها إبرازًا لجمالها، كما أنها أصبحت تتعامل مع الناس في أضيق الحدود، ولا تقبل على المجتمعات التي ظلت تقبل عليها حتى بعد زواجها من المرحوم الطائر، وفي الحقيقة، غدت نموذجًا مثاليًا للمرأة المصرية التي يموت زوجها، فتنقطع انقطاع ناسك في معبد، لتربية أولادها وإحاطتهم بعطفها ورعايتها على أساس أنهم يتامى، إلا في حالات استثنائية تشذ عن القاعدة.

كان من الممكن أن تمضي حياة زينب الجديدة الهادئة على خير، دون منغصات أو مضايقات تذكر، إذ أنها ارتضت واقعها الجديد الذي باتت الأحزان الصامتة التي

طالما تغذت بذكريات الماضي الجميل رفيقتها فيه، لكن عم الولدين الذي كان هو الشقيق الوحيد للأخ المتوفى، لم يكن ليترك زينب تعيش حياتها الجديدة المكرسة لتربية الولدين على أفضل وجه وعلى قدر المستطاع ، فراح يدس أنفه في كثير من أمور حياتها، لا بسبب حرصه على صيرورة مستقبل أبني أخيه المتوفى، بل لرغبته في الاستحواذ على ما تركه الأب لهما من ثروة لا بأس بها، تجمعت من جلب بضائع من جميع أنحاء العالم الذي كان يجوبه في رحلات عمله، كانت في الحقيقة بضائع ممنوعة، بسبب الحماية الجمركية، والتشدد الاقتصادي، تجاه بضائع الغرب خلال الفترة الناصرية، وهي البضائع التي راكم تهريبها بعض الثروات لدى أصحاب المحلات الصغيرة المنتشرة في الضواحي الراقية للمدينة، فكانت خميرة لنمو كبير في الزمن التالي لذلك بعد الانفتاح على الغرب.

في كل مرة كان العم يحاول فيها فرض وصايته غير القانونية على الأسرة الصغيرة، كانت الأم تقف له بالمرصاد ساعية لإحباط خططه، فقد رفضت كل عروضه الخاصة باستثمار أموال الولدين لقاء أرباح مجزية، كما رفضت كل

مشاريعه المقترحة لشراء عقارات، وشقق تؤجر مفروشـــة، لأنها لم تكن لتثق في نواياه أبدًا، ولشعورها الدائم بأنه يرغب في توريطها، فلما فشل في ذلك، أخذ يتقرب منهـــا، لكنهـــا رفضت باندهاش حقيقي بالغ، فهي لم تكن تتصور أنه يجرؤ على ذلك وهو يدرك المكانة الكبيرة التي يحتلها زوجها فـــي قلبها، والحقيقة أنها لم تتصور أبدًا أنه لا يدرك هذه المكانة، لكونه من النوع البشري الذي لا يثمن غاليًا مشاعر الحـــب والعاطفة ولما لم يجد أمامه حلاً على طريقـــة دمنـــة بيـــدبا الفيلسوف، للوصول إلى الوصاية على الولدين، أخـــذ يـــدبر لحيثيات تتيح له الحصول على ذلك عبر القضـــاء، بعـــد أن أضيف إلى رغبته في الظفر بالوصاية شعور بالكراهية تجاه زوجة الأخ المتوفى التي أهانت كرامته برفضها الزواج منه قائلة له إن ألف رجل لا يمكن أن يعوضوها عـــن زوجهـــا الحبيب، فأخذ يلاحقها في البداية بالشائعات التي تنـــال مـــن سمعتها وشرفها، لكنها لم تهتم لأن الزمن كفيل بإخماد أيـــة نار لا يغذيها وقود حقيقي، ولأنها أدخلت بعضًا من أقاربها، كأطراف في المسألة، فهددوه بقطع لسانه إن هو عـــاد إلـــى التكلم فيما يمسها، فالتجأ إلى فكرة جهنمية نبتت فـــي رأســـه

بينما كان يشاهد فيلمًا مصريًا ليحيي شاهين، سرقت فكرته من رواية مرتفعات ويزرنج لشارلوت برونيتي، وهي أن يقوم بتجميع أدلة تتيح له الحجر على زوجة أخيه الأرملة، فيصبح بذلك الوصي القانوني على ولديها، على أساس أن أمهما بلا أب أو أم يمنع وجود أحدهما على قيد الحياة إمكانية حصوله على هذه الوصاية القانونية.

منذ أيام طفولتها الأولى، كانت زينب منصور مولعة بالقطط، ربما لأن أمها كانت مولعة بهم أيضًا، فلقد نشأت زينب في منزل أبيها الكبير بحي المنيرة الذي كان من أجمل وأرقى أحياء القاهرة في ذلك الزمن الماضي، وفيه دائمًا قط أو اثنان على الأقل يحظيان باهتمام ورعاية من أمها، لا يقلان عن الاهتمام والرعاية التي يمكن أن يحصل عليها أي طفل صغير، وكان من المناظر المألوفة لديها أن تجد أمها نائمة على السرير تقرأ في مجلة أو جريدة، بينما يجثم قط ضخم على صدرها، يهر بسعادة ورضا، وأنفاسه تقارب وجهها، ولعل زينب اكتسبت من هنا حب تلك الحيوانات الجميلة الأنانية التي تتسيد على من يقتنيها وتسخره لخدمة رغباتها، على كل حال، وأيًا كانت الدوافع والأسباب، بات

لدى زينب، عندما أصبحت شابة تعيش في منزل أبيها قبل زواجها، كم لا بأس به من القطط، أوقف الأب الثري خادمة صغيرة من خدمه الكثيرين على رعايته، دون أن تقوم بأي عمل آخر.

بعد الزواج، تضاءلت هذه الهواية إلى حد كبير، لأن الزوجة المحبة، اكتفت بإغداق حنانها على زوجها، وعلى قط واحد أسود من النوع الفارسي ذي الفراء الطويل، لكنها نسيت حكاية القطط تمامًا عندما أنجبت ابنها الأول.

لما توفي الزوج، وتجاوز الولدان مرحلة الطفولة الأولى، بقيت الزوجة وحيدة مع ولديها تشعر بالملل في منزل واسع يتكون من طابقين في مصر الجديدة، عندئذ انتعشت لديها مرة أخرى هواية تربية القطط، والجديد هنا، أن الولدين أغرما بها أيضًا، فأصبح المنزل يضم خمسة عشر كائنًا، منهم دستة من القطط المتنوعة الأشكال والألوان، لكل واحدة منها اسمها الخاص، وأماكن مخصصة لنومها، وتتمتع جميعًا بالرعاية الصحية الملائمة، بالإضافة إلى الشرائط الحريرية، والمخملية، والأجراس، والقطع القماشية الجميلة التي كانت تشترى وتحاك خصيصًا، على

نحو يسمح بإدخال أجسادها اللينة فيها، دون مساس بحرية أيديها وأقدامها في الحركة، وذلك توقيًا لبرد الأيام والليالي الشتوية، وقد استلزم كل ذلك إضافة إلى الغذاء والألعاب الظريفة التي تجعل القطط في حالة مرح دائم إنفاقًا، وإن ظل محدودًا بالنسبة لدخل الأسرة الميسورة، إلا أنه كان يعني نوعًا من الخبل والعته من وجهة نظر العم المراقب عن كثب لتفاصيل حياة أسرة أخيه الراحل.

من ناحية أخرى، بدت الأرملة، غير طبيعية بالنسبة للعم ذي النزعة العملية جدًا، والذي كان يتعامل مع كل ما هو وجداني في أضيق الحدود الممكنة، إذ أقبلت بحماس على المشاركة في حفلات الزار، وهي الحفلات الطقسية الصاخبة التي انتقلت عدواها من نساء الطبقات الشعبية، إلى نساء الطبقات العليا، بعد انحسار موجة حفلات الجلاليب، والقباقيب، والفرجة الجماعية على أفلام الجنس الفاضحة، بعد هزيمة ١٩٦٧، غير أن المسألة لم تقف عند حد المشاركة في حفلات الزار هذه، بل امتدت لتصبح عادة تتكرر بين الحين والحين في الدار الواسعة لأم الولدين التي كانت تستمتع كثيرًا بالرقص المجنون، وبتحريك أعضاء

جسدها العاطلة عن أي عمل، ورغم أن هـذا النـوع مـن الحفلات يكون عادة مقصورًا على النساء فقط، ما عدا رجل أو رجلين من ضاربي الآلات الإيقاعية الشعبية ذات الأصل الأفريقي، هما عادة فوق مستوى الشـبهات مـن زاويـة الاحتشام أو العفة الجسدية، إلا أن العم لم ينظر بعين الرضا أبدًا إلى تلك الحفلات المسائية الممتدة حتى وقت متأخر مـن الليل، وينفق على الحفلة الواحدة منها مبالغ كبيـرة، تفـوق كثيرًا ما ينفق على دستة القطط، بسبب الطلبات والشـروط الصعبة التي تكاد أن تكون مستحيلة أحيانًا، والتـي يطلبهـا أولئك الخبراء المنظمين لتلك الحفلات، والمشـرفين علـى طقوسها، كطلبهم مثلاً زوجًا من الماعز كامل البياض ما عدا غرة سوداء في الوجه، أو نقطة بنية في الـذيل، أو طلـبهم تجهيز طيور وحيوانات من الصعب الإتيان بها في بلد يقـع على مدار السرطان، وليس على خط الاستواء، ففي إحـدى المرات طالبوا الأرملة بببغاء هندي ذي ريشـات حمـراء، وصفراء، يوضع في قفص على شباك بالحجرة التي يقام بها الزار، ليظل مشاركًا بتعليقاته طوال الليل، ومرددًا مقاطع من الأغنيات السحرية العنيفة التي ينشدونها، وقد استدعى ذلـك

أن تشتري زينب الببغاء المطلوب من حديقة حيوانات الجيزة بمبلغ باهظ، بعد توسط واحد من أقربائها، كان أحد كبار المديرين لهذه الحديقة، على مدى سنوات.

رغم أن المحكمة في جلستها التي عقدتها لمناقشة طلب العم رفع الوصاية من الأم على الولدين ومنحها له، لم تعتد بوجهات نظر العم، وحججه، عبر محاميه الحاذق الذي حاول بكل الوسائل إثبات عته الأم، وعدم أهليتها للوصاية على ولديها وإدارة أموالهما، وكان على استعداد لعرض شريط فيديو لها وهي ترقص مترنحة كالسكارى في إحدى حفلات الزار الأمر الذي رفضه القاضي الذي كان يريد أن ينتهي بسرعة، ليذهب إلى مأدبة غداء كان أحد كبار الأطباء قد دعاه إليها، وكان الجوع قد قرصه فعلاً، أما هيئة المحكمة، فارتأت أن حجج العم ضعيفة في هذا الجانب ولا يعتد بها، لأن كلاً من موضوعي القطط والزار لم يكن بالأمر المستغرب المعبر عن سلوك شاذ في مجتمع ترتع فيه الخرافات، ويتمسك عبر عاداته وتقاليده، بأفكار، لا تعود إلى أفريقيا البدائية، ولا إلى القرون الوسطى فقط، ولكن ترجع أيضًا لعدة آلاف من السنين قبل الميلاد، وقد ساعد محامي

الأرملة الذي لم يكن أقل حذقًا من محامي خصمها، هيئة المحكمة كثيرًا في التوصل إلى حكمها بعدم العتة، بعد أن أكد أن الاهتمام بالحيوانات الأليفة، يعد مظهرًا من مظاهر التمدن والترقي، واستشهد بأمثلة عدة كانت عبارة عن أخبار اقتطعها من صحف محلية نشرتها نقلاً عن وكالات الأنباء، وأخرى منشورة بصحف أجنبية، عن أناس أولعوا بحيواناتهم الأليفة، إلى حد جعلهم يوصون بثرواتهم كلها للأثير منها، سواء أكان قطًا أم كلبًا، وذكر أنه شاهد بأم عينه – وكان كاذبًا هنا – في عاصمة الثقافة والنور باريس، جامعي قمامة غاية في النظافة والاحترام، تخصصوا فقط في جميع فضلات الكلاب من الشوارع ، بينما أطفالنا يتبرزون في الحارات الشعبية قرب الحوائط، وتحت الشبابيك، دون أن نبالي، ثم عرج إلى مسألة الزار، فأشاد به كوسيلة من وسائل العلاج النفسي، تعد أصدق دليل على عبقرية الشعب الذي اكتشف دوره الخطير في تفريغ شحنات الكبت وتحرير الروح والجسد، قبل أن يكتشف ويثبت بالوسائل البحثية الأكاديمية المتخصصة، وراح يؤكد على ضرورة الاهتمام بكافة فروع الطب الشعبي الذي يجب احترامه والتعامل معه بجدية، لمواجهة الهجمة

الإمبريالية الشرسة التي وصلت ذروتها في هزيمة ١٩٦٧، والمستهدفة ليس حرية البلاد ومقدراتها فقط، بل وثقافتها وتراثها أيضًا، ورغم استماع المحكمة إلى خطبته البليغة المطولة التي زاد وعاد فيها، خالطًا عباسا بدرباس، كما أرتأت زينب، فإن القاضي ألقى بمفاجأة لم يجعلها تستمتع وتستريح بما يكفي بعد سماعها الشق الأول من حكمه الذي يدفع عنها العته، إذ أعلن قراره بانتقال الوصاية إلى العم، وانتزاعها من الأم، لأنها وإن كانت قواها العقلية سليمة كما أكدت التقارير الطبية المرفقة بملف القضية، إلا أنها مبددة، متلافة، لا تؤتمن على مال ولديها من ثابت أو منقول، وبما أن العم من رجال الأعمال، فإنه أكثر أهلية، وأنفع في هذه الوصاية، وكان العم قد أثبت للقاضي أنه فعلاً من رجال الأعمال، إذ سلمه، عبر أطراف وسيطة، عقد بيع شقة، مؤقتًا في عمارته الفاخرة بمدينة نصر.

بعد ذلك بقليل، وبمنتهى الثقة والهدوء، وقفت زينب منصور على باب المحكمة تنتظر الوصي الجديد، وما إن لاح على الباب، قادمًا من داخل قاعة الحكم، حتى أخرجت مسدس زوجها المرخص الذي حشته في الليلة الفائتة بثلاث

رصاصات، وسددته إلى صدر العم الذي كان قد رسم على شفتيه ابتسامة ساخرة متشفية، استبدلها الألم المنبعث من داخله بعضة قوية على نواجذه، ردت لزينب روحها التي كانت قد ضاعت منذ علمت بمقاضاته لها على وصاية الولدين، بعد كل الانهيار النفسي الذي عاشته منذ ذلك الحين، وحتى وقت صدور الحكم، والذي دفع بها لأن تختار أن تكون غالبة بيدها، وليست مغلوبة بيد أحد، وهي التي ما تحملت الغلب يومًا، ولا عاشت الذل، كمرهفة مدللة، لم تتعود من الدنيا عنادًا، بل وكانت دائمًا إذا ما وضعت في تحد، منتصرة مهما كلفها الأمر، باعتبارها أميرة الاختيار، مثلما كانت زنوبيا تدمر في الزمن القديم.

بالمساعي القضائية الحميدة، وباستخدام النفوذ، حصلت زينب على حكم مخفف بالسجن لم يتعد سبع سنوات، وقد كانت ممتنة جدًا لأن المسألة لم تزد عن ذلك.

أوكلت زينب كل ما يخصها من أملاك وميراث لابنة خالة لها، كانت بمثابة شقيقة لها، وأم أخرى لولديها اللذين ورثا العم المقتول أيضًا، لأنه لم يكن قد تزوج أبدًا، وليس له من وريث آخر.

في السجن استلطفت زينب الطبيبة الشابة، وشعرت باحترام كبير لها، منذ الأيام الأولى لإلحاقها بالعنبر، وبعد مرور وقت قليل، اكتشفت زينب أن بهيجة هي ضالتها المنشودة في عالم الصداقة والرفقة، ليس في السجن فقط، ولكن في الحياة أيضًا، لأن زينب، وطوال السنوات التي عاشتها، لم تكتشف أبدًا بهجة الصداقة الحقيقية التي يمكن أن تنشأ بين امرأة وامرأة، فطوال حياتها، كان الرجال يقفون حائلاً بينها وبين ذلك، فهي ما اهتمت يومًا، كامرأة جميلة، إلا باهتمامهم بها، وبأن تكون دومًا محط أنظارهم، ومستأثرة بإعجابهم، لقد كانت تعرف نساء كثيرات لكنها لم تعرف امرأة بعمق أبدًا، مثلما عرفت بهيجة عبد الحق في السجن، فمنذ أن تصادقتا، وهما تتشاركان في معظم تفاصيل حياتهما اليومية، وباتت بهيجة بديلاً للأسرة المفتقدة عند زينب، وباتت زينب العزاء الوحيد لبهيجة في حياتها الموحشة، فهي لم تكن يومًا حميمية مع إنسان، قدر حميميتها مع زينب، وما وجدت أبدًا امرأة قريبة منها، تبثها همومها وآلامها النفسية، إلاها، وقد كانت بهيجة تبهر زينب، بقدرتها على صنع ألعاب ورقية جميلة، وعصافير وأباريق وعرائس طريفة من بقايا

الأوراق التي يتصادف وجودها في السجن، إضافة إلى ألعاب أخرى مسلية، كانت تعدها من أعواد الكبريت وحبات المكرونة المقصوصة، وتشرك زينب فيها وهي ألعاب أقرب إلى المسائل الرياضية والألغاز الصعبة. أخذت زينب تسدى لبهيجة خدمة جليلة جدًا، وهي تعليمها اللغة الفرنسية التي تجهلها بهيجة، لأنها من الجيل الذي نشأ في ظل احتقار اللغات الأجنبية، كرد فعل طبيعي لسنوات طويلة من الاستعمار الإنجليزي، والهيمنة الأوربية على البلاد، وتأثرًا بالنزعة القومية التي تعتبر لغتنا سيدة اللغات، وهو الجيل نفسه الذي أثبت أن ذاكرة الشعوب يمكن أن تضعف في بعض حقب التاريخ، لأنه سرعان ما ألقى بأبنائه في أحضان التعليم الأجنبي، على أمل الالتحاق بقطار المدنية الذي فاته كثيرًا، وأهمل سيدة اللغات، ناسيًا أن الهنود يتقنون الإنجليزية أكثر من إتقان اليابانيين لها.

كانت بهيجة هي التي عرفت عزيزة بزينب، وحكت لها حكايتها، بعد أن نشأت علاقة طيبة بينهما، بسبب نصائح بهيجة الممتازة لعزيزة بخصوص ألم البواسير الحاد الذي بات مزمنًا عندها، لكونها تجلس كثيرًا دون حركة كافية

تساعد أمعاءها على الإخراج، وبسبب عــدم أكلهــا أكـــلات مناسبة تحتوي على السيليلوز النباتي، وكانت عزيزة عبــر جنونها الخفيف تقدر بهيجة تقديرًا جمًــا، بســبب علمهــا، وتهذيبها، وطريقتها البسيطة السهلة في تناول الأمور، ولأنها كانت خلافًا لبقية النساء اللاتي عرفتهن، لا تلجأ إلى المخاتلة وأساليب الخداع في التعامل مع الآخرين، كما أنهــا تســلك بجدية واستقامة دون ميوعة أو تدلل سخيف، لــذلك قــررت ذات ليلة قمرية، صافية السماء، وهي ترمي ببصرها بعيــدًا، حيث ذؤابات الأشجار العالية التي يمكــن أن تلمحهــا مــن شباكها أن تضم بهيجة، وصديقتها زينب إلى ركب العربــة الذهبية، ذات الأفراس المجنحة الصاعدة إلى السماء، وكــان من مرجحات قرارها الخطير، أنها لا بد ستحتاج إلى طبيبــة بارعة مثل بهيجة، لمواجهة أية أزمات قد تطرأ على واحــدة من راكبات العربة المختارات، وإلى امــرأة رقيقــة راقيــة كزينب لتعلم أولئك البائسات قواعد السلوك وآداب التعامــل، لأنها طالما نفرت من السلوك الخشــن، وأســلوب الحــديث البذيء الذي تتداوله معظم السجينات، لــذلك، وبينمــا هــي

جالسة تحتسي خمرها المائي، وتتلذذ بآخر نفس من أنفاس سيجارتها، حدقت، إلى ذؤابات الشجر أكثر وقالت:

- عندي خبر حلو لك يا بهيجة، بكرة لما تطلعي معنا، عندي لك عيادة من مجاميعه.

ثم أضافت:

- وأنت يا مدام زينب، همتك والنبي في توضيب الهدوم، قبل ما نطلع.

حزب العصافير

تلك النحيلة البيضاء بياض قلب اللفت التي تبدو لفرط نحولها وكأنها نصف إنسان اختفى نصفه الآخر، أو ضاع منه، هي الشابة الذاهلة التي أطلق عليها جميع من في سجن النساء اسم شفيقة المتولة، لأنه ما من أحد يعرف على وجه التحديد من أين جاءت وما هي حكايتها التي دفعت بها إلى سجن النساء، بل وما هو اسمها الأصلي الذي أطلقه عليها أهلها المجهولون بالنسبة للجميع.

جاءت ذات يوم إلى ذلك السجن، متهمة بالشحاذة والتسول، وهي تهمة ستجعلها تتردد عليه عدة مرات بعد ذلك، كنزيلة لبعض الوقت من نزيلاته الكثيرات، على الرغم من أن أي إنسان يستطيع أن يلحظ، وبقليل من الذكاء والفطنة، حالة الذهول والضياع الذهني التي تعيش فيها شفيقة ما عدا الأطباء الذين أصروا على أنها عادية وليست بمجنونة، وبالتالي لا يحق لها الحصول على شرف دخول مستشفى الأمراض العقلية التابع للحكومة، والذي هو أحد معالم البلاد، منذ زمن بعيد، ومحط هؤلاء الذين لا يحتملون تناقضات وعبثية الحياة فيها، فيأتون إليها إتيان المستجير من

الرمضاء بالنار، ولعل أطباء الأمراض العقلية معذورون في ذلك، فشفيقة كائن بالغ الهدوء، لا تشاكس، ولا تتشاجر، ولا تعتدي على أي مخلوق حتى لو كان نملة صغيرة، تستطيع سحقها بقدمها أثناء عبورها الطريق، وفوق ذلك، هي دائمة الابتسام، صحيح أنها لا تتكلم أبدًا، ولا ترد على أي سؤال يوجه إليها، لكن أليس الصمت في عالم صاخب بالكلام الفارغ هو منتهى العقل، وليس الجنون؟

عمومًا في سجن النساء متسع للجميع، خصوصًا إذا كان من نوع شفيقة التي تحدث أقل ما يمكن من مشكلات، سببها الأساسي عذاب الآخرين بسبب حالتها، وحيرتهم الدائمة، وشفقتهم عليها، لشعورهم بالعجز، وعدم القدرة على معاونتها لتصبح كائنًا عاديًا في مأكلها، وملبسها، قادرة على تجاوز الحالة التي هي فيها، فهي لا تستحم تقريبًا، ولا تخلع جلبابها الذي ترتديه دومًا على اللحم دون أية ملابس داخلية، أو خارجية، تحته أو فوقه، ثم إنها لا تسأل أو تصارع أبدًا على طعام، سواء أكان خبزًا، أو نوعًا نادر الظهور في السجن كاللحم مثلاً، وإذا لم تجُد عليها واحدة من السجينات بشيء يؤكل أو يشرب، فإنها تظل مددًا طويلة، تصل أحيانًا

إلى أيام متصلة دون تناول أي شيء يذكر، بل كثيرًا ما كانت ترى وهي تلقي بمقررها اليومي الذي هو ثلاثة أرغفة من الخبز الأسمر الرديء إلى القطط الضالة في فناء السجن، أو تقطع رغيفًا، إلى فتيتات صغيرة، تتركها على إفريز شباك زنزانتها، لعصافير الأشجار القريبة من السجن، والتي تأتي وتحط، بين الحين والحين على شبابيك الزنازين.

في بعض الأحيان كانت شفيقة المتولة تشاهد وهي تنحني ساجدة على الأرض لفترات طويلة، وكأنها تلعب اليوجا في أوقات أخرى ترى رافعة يدها النحيلة، ذات الأصابع الدودية الرفيعة، لتضعها في مواجهة أشعة الشمس، بينما تتأمل خطوط كفها المتقاطعة المتداخلة، لزمن ممتد، دون أن ينفد صبرها، أو يبدو عليها الضيق، مما يجعلها وكأنها تمثال قد من صخر، وهكذا، اكتسبت صفة المتولة، وعاشت بين الجميع دون كراهية، أو خصومات، أو أحقاد تتبادلها مع واحدة من السجينات.

كل هذا لم يعن، أبدًا، أن شفيقة لا تعرف حكايتها، ولا تشعر بكل ذلك الألم الرهيب الذي أخرس لسانها وجعلها تفضل العزلة الاختيارية عن الدنيا، والانقطاع الكامل عن

الناس، رغم كل المحاولات التي جربت معها لإجبارها على الكلام، بعد أن أكد أطباء الطب النفسي والعصبي، ومتخصصو الأنف والأذن والحنجرة، وخبراء الكلام والنطق، سلامة جهازها الصوتي، وأدوات السمع، والنطق، لديها، وقدرتها المفترضة على الكلام، فلما يئسوا، رجحوا أن يكون امتناعها عن النطق ناتجًا عن صدمة عصبية تعرضت لها، ومشكلة حادة ألمت بها. بذلك ظلت حكايتها سرًا مجهولاً للجميع ما عداها، وهي التي عاشت تفاصيلها لحظة بلحظة، وتحملت خلالها ما لم يتحمله بشر من ألم وعذاب، ربما كان السبب وراء ابتسامتها غير المفهوم الذي أخذت تنفرج شفتيها الرقيقتين المضمومتين دائمًا عنه، عندما جاءوها بمتخصص في التعامل مع الصم والبكم، ليحاول التفاهم معها أثناء التحقيق في النيابة، حتى يتمكنوا من تسجيل أقوالها في محضر رسمي، يكون بمثابة مستند لإدانتها، وكانت ابتسامتها تتسع كلما أخذ ذلك الخبير يشير بأصابعه ويديه، محاولاً التفاهم معها، فقد كانت على الأغلب تسخر ليس من تلك المحاولة الفاشلة لاستعادتها إلى دنيا الناس مرة أخرى، بل من كل ما يحيط بها، والذي اكتشفت عبر آلامها كم هو

زائف، وشرير مما جعلها تقرر أن لا تفاهم، ولا اتصال مع الآخرين، مهما بذلوا من محاولات، ومهما بلغ الأمر بها،

الغريب، أن شفيقة لم تكن شحاذة، ذات يوم أبدًا، فهي لم تستجد من أي كائن كان، ولم تسر في الطرقات مادة يدها، تطلب حسنة من الناس، سواء كانت نقودًا أم شيئًا يؤكل أو يشرب، فقد كانت فقط تجلس إلى جانب جدران الجوامع، أو تنام تحت شجرة في حديقة من الحدائق العامة، أو تسير بجوار شاطئ النهر حتى تتعب قدماها الحافيتان، فتجلس على الرصيف، واضعة يديها في حجرها، بلا حول ولا قوة.

عندئذ، كان منظرها البائس يثير العابرين الذين ترق قلوب بعضهم لها فيميلون عليها، ويرمون إليها ببعض النقود، أو بكسر من سميذ، كالذي يأكله العشاق أثناء سيرهم عند الغروب بجوار ضفة النهر، ومع أنها لم تكن لتفعل شيئًا بالنقود، أكثر من دسها في قرطاس ورقي، تصنعه عادة من ورقة ملقاة في الطريق، إلا أن الشرطي الذي قادها إلى قسم البوليس اعتبر قرطاس الفلوس هو دليل إدانتها كمتسولة، محترفة، تبتز مشاعر الناس، وتستغل عواطفهم الطيبة، ليجودوا عليها ببعض مما لديهم، كما ورد في تقرير النيابة.

ظل حزن شفيقة، وأساها العميقان اللذان لا ينقطعان هما كل ما تملكه من مشاعر تجاه الحياة، وهــذا مــا يبــدو واضحًا لكل ذي عين، بمجرد التطلع إلى وجهها، والنظر في عينيها الواسعتين، ذات النظرات النبيلة الأسيانة التي تطفــر، دومًا، دموعًا محسوسة، غير مرئية أبدًا، ربما كانــت تقــف وراء المعاملة الطيبة الرقيقة التي تتلقاها، بدلا من الفظاظــة والعنف، ومحاولات الاعتداء التي تتعرض لها عادة من هي في وضعها من اعتداء امرأة شابة وحيدة بلا مأوى، ولعــل قذارتها، واتساخها الدائم، لعبا دورًا كبيرًا في هــذا الجانــب أيضًا، إضافة إلى أنها كثيرًا ما قضت لياليهــا فــي أمــاكن مهجورة مظلمة، وخرابات لا يعبرها عابر، ممــا زاد فــي وحشتها، وشعور الناس بغرابتها.

قبل سنوات التشرد والاعتزال، عاشت شفيقة، كأيــة فتاة عادية تنتمي إلى الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى في بيت هادئ، بلا أم، تديره وتشرف على تنظيم أموره شــقيقة أرملة تكبرها بحوالي ثماني سنوات، لعبت باقتــدار دور الأم الحنون والأخت العطوف، ليس مع شفيقة وحدها، ولكن مــع أخين آخرين أحدهما يكبرها، والآخر يصغرها بأربعة أعوام،

مما جعل الأب الذي كان حريصًا على وحدة أسرته، وضمان نجاحها لا يتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته، رغم معاناته وشعوره الدائم بالوحدة، مما جعله قلقًا، متوتر الأعصاب، يثور لأتفه الأسباب، ويتعامل بتشدد كبير مع عياله، خصوصًا البنات منهم، خوفًا من انفلات زمامهن، بسبب غياب الأم، وحرصًا على سمعة أسرته التي يجدها فوق أي اعتبار آخر في الحياة، بصفته رجلاً صعيديًا يحرص على القيم والتقاليد التي تمتد إلى عدة آلاف من السنين.

كانت الأخت الأرملة على جانب كبير من الأنوثة والجمال، إذا كانت ملامح وجهها تحمل بصمات واضحة تثبت أن الدولة العليا العثمانية مرت من هنا، وهي البصمات التي دفعت إليها بخطاب يرغبون في الزواج منها، مذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وأدت إلى تزويجها عند بلوغها السابعة عشرة من ضابط ميسور الحال، خرج من منزل الزوجية تاركًا إياها وثلاثة أطفال أصغرهم كان يرضع من ثدييها، صبيحة يوم الخامس من يونيو في العام ١٩٦٧، ولم يعد بعد ذلك أبدًا، وقد اعتبر شهيدًا، فاستحقت عنه الأرملة الحزينة كل الامتيازات التي تمنح لأسرة شهيد.

منذ صدور الفتوى القانونية لوفاة زوجها، وعلى ضوئها، باتت تلك الجميلة، رسميًا، أرملة في مستندات الدولة، ظلت، حتى آخر لحظة رأتها فيها شفيقة المتوولة، دون زواج، إذ كانت قد قررت منذ غياب زوجها ألا تخوض التجربة مرة أخرى، وعاشت لسنوات طويلة، بعد انقطاع كل أمل في عودة الزوج، لا تسعى لربط حياتها بحياة أسرية جديدة، مع رجل آخر، كالتي عاشتها من قبل مع زوجها الضابط، لكن قانون الطبيعة المعروف أدخلها التجربة مرة أخرى مع فارق بسيط، إذ أن التجربة الجديدة ظلت تجربة عشق، لا يمكن أن تتحول أبدًا إلى تجربة زواج، بسبب اختلاف دين المعشوق عن دينها، وهو السبب ذاته الذي جعلها تحيط تلك العلاقة بسرية تامة، خوفًا من اكتشاف أمرها، لدى أبيها، وبقية أفراد أسرتها خصوصًا إخوتها الذكور، فقد كانت الأخت الدقيقة الحريصة التي تعمل مدرسة، تتذرع دومًا لخروجها في أوقات غير أوقات العمل الرسمية، بدروس خصوصية تعطيها لتلاميذها الصغار من البنات والبنين، لكي تستغل الوقت لملاقاة حبيبها، وعندما تعود، كانت تسارع بإخفاء كل أثر يدل على علاقتها به،

كالهدايا الصغيرة التي يقدمها لها بين الحين والحين، والتي لم تتجاوز أساور، أو خواتم فضية، وزجاجات من العطر المحلي المسمى قسمة، لأن العطور المستوردة لم تكن قد شاعت وقتئذ بما يكفي، بسبب المقاطعة الاقتصادية للغرب التي زادت حدتها بعد هزيمة الخامس من يونيو، وانتهت كزوبعة في فنجان بمجرد تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، زمن السادات، وراحت تقدم هذه الهدايا البسيطة لشقيقتها الصغرى، مجددًا كهدايا تزيد من حبها وتقديرها لها، ومن تعلقها بها، وتقوي سطوتها عليها، وقد كانت محل تقديرها وإعجابها، بسبب كونها بمثابة أم لها، عوضًا عن الأم الحقيقية التي أخرجتها من رحمها، ولكن بسبب جمالها وأنوثتها الفائقة التي كانت تشعر شفيقة بأنها شابة باهتة الجمال، محدودة الأنوثة، حلمها أن تصل في هذا الجانب إلى ما وصلت إليه أختها الكبرى التي تكن لها كل إعجاب وتقدير، ظلت الحبيبة الأرملة، وفية لحبها الذي كانت تزيده الأيام اشتعالاً، بسبب قسم الحبيب على الإخلاص والوفاء لهذا الحب، وأن يستمر في العلاقة، ولا يقطعها أبدًا مهما كان الأمر، ومهما بلغت ضغوط أمه العجوز التي وصلت، بعد

البكاء كل يوم، إلى حد تقبيل يده، والتوسل إليه أن يتزوج بأسرع ما يمكن، لأن أخاه الصغير، ووفقًا لتقاليد العائلة، سيظل محرومًا من الزواج إلى الأبد، إن لم يتزوج قبلاً منه شقيقه الأكبر، وكان الحبيبان قد تعاهدا على الوفاء تحت شجرة ضخمة بحديقة الحيوانات، ربما غرست زمن الخديوي إسماعيل، وحفرا بمبرد قصافة الأظافر الحروف الأولى من اسميهما، فقط، ضمانًا للسرية، على جذعها الضخم داخل خرطوش لم يكن فرعونيًا ملكيًا، لأنه جاء على شكل قلب يخترقه سهم، وحلفا أن يكون هادم اللذات ومفرق الجماعات، كما تقول شهر زاد في ألف ليلة وليلة، هو الحائل الوحيد الذي يحول بينهما، ويقطع وصال الوجد الممتدة بين قلبيهما.

تعرضت العاشقة المسكينة التي طالما سفحت مشاعرها وأعصابها خوفًا من انكشاف أمرها، لضغوط نفسية بسبب جمالها وفتنتها الجاذبة للرجال الذين رفضت عددًا منهم، تقدموا للزواج بها، مع استعدادهم لاحتضان أطفالها، متذرعة بحجج متينة لا تحيد عنها، أبدًا من نوع تفرغها لتربية أولادها، وانقطاعها لخدمة أبيها وإخوتها، وقد حاولت إخفاء جانب من فتنتها، حتى لا تلفت الأنظار وتثير الانتباه،

فتحجبت، لتخفي شعرها الأسود الفاحم الجميل المكلل لرأسها، ذي الوجه الأبيض المتناسق القسمات، ولتبدو في عيون الناس كما يجب أن تكون أرملة شابة عفيفة تنتمي لأسرة صعيدية محافظة حريصة على سمعة زوجها الشهيد، وفية لأبنائه، ورغم كل ذلك انفضح أمرها ذات يوم، إذ التقط أول خيط للعلاقة، قريب لها، كان مدلهمًا بحبها منذ فترة طويلة تعود إلى ما قبل زواجها، لكنه حينئذ لم يتجرأ على طلب يدها لأنه كان صاحب دكان صغير لبيع السجائر، والملبس والأرواح النادلر المقررة على عدة أجيال من الأطفال قبل ظهور الشيكابوم، والشيكلتس، ومنتجات مصنع حلويات سيما، لكن رواج السياحة أنعش أحواله كثيرًا، وخاصة بعد أن حول إلى مطعم سياحي للأكلات السريعة دكانه الذي لم تعد أهم معالمه لمبة كيروسين نمرة خمسة التي كانت موضوعة على طاولة البيع الزجاجية، لإشعال السجائر التي يشتريها الزبائن، وقد أمده برأس مال ذلك المطعم المسمى سفرة العز، شريك، كان قد جلب عدة آلاف من الدولارات بعد سنوات قضاها في السعودية كعامل في محطة بنزين، غير أن انتعاش الأحوال المالية للعاشق القديم، أنعشت

مشاعره الكامنة في قلبه المحب وأيقظتها مرة أخرى، رغم مرور سنوات طويلة على خمولها، بسبب زواج الحبيبة، والتركة المتخلفة عنه، والممثلة في الأطفال الثلاثة، لذلك تقدم لها عارضًا عليها الزواج بشروط مغرية جدًا، بالقياس لشروط سوق الزيجات الراكد آنذاك، لكن قلب الأرملة المطلسم بالقسم على الوفاء للحبيب، صد العرض المغري، وتذرعت صاحبته بالحجج التقليدية التي كانت تزيدها احترامًا لدى أبيها وإخوتها ، باعتبارها رمز الوفاء للزوج المرحوم، والتفاني لأولادها الذين حرصت كل الحرص على سعادتهم وراحتهم.

ومع ذلك، فإن صاحب الدكان الذي بات يسمى رجل أعمال، منذ الوقت الذي تحول فيه دكانه إلى مطعم، ومشاركته في أنشطة استثمارية أخرى، بسبب العائد الكبير من الأكلات الشعبية المتميزة بالطعم الشرقي بالنسبة للسياح، والأجانب المقدمة في مطعمه، لم ييأس، ولم يقطع الرجاء في المرأة التي طالما اشتهاها، بل وبات يشتهيها أكثر، بعد دخولها ديوان النساء، واكتمالها كثمرة شهية تنتظر القطاف، إضافة إلى ذلك، فإن إصرار الرجل على التزوج بها، كان

محاولة لمصالحة النفس، واستعادة ثقة مفتقدة بها في الماضي، جعلته يحجم عن التقدم لها زمن الأرواح والملبس، غير أن السبب الأقوى الذي جعله مصرًا على الظفر بها أكثر من أي وقت مضى، كان شعوره المتفاقم، بعد أن دخل غابة الأعمال، بأن كل شيء في الدنيا يمكن الحصول عليه بالمال، باعتباره المصدر الوحيد الذي أصبح يستمد منه كينونته، ومعنى وجوده في الحياة، لذلك حاول رجل الأعمال التقرب من الأرملة العاشقة، بكل الوسائل الممكنة، ابتداء من محاولته الناجحة لاستمالة أبناءها وأسرتها بالهدايا، لأنه لم يكن من الممكن تقديم الهدايا لها مباشرة، خبط لزق، إذ أنها سوف ترفضها على الفور وانتهاء بتقديم خدمات يصعب على من في مثل وضع أسرتها الحصول عليها، مثل توظيف أخيها الكبير كمحاسب في مكتب سياحة، وتقديم سماعة طبية مستوردة من سويسرا لأبيها الذي كانت تستلزم حالة أذنه اليمنى وضع سماعة طبية حساسة، وإلا بات يسمع الأصوات، وكأنها صادرة من أسفل جب عميق، لكن رغم كل محاولات التقرب هذه، فإن الزوجة المنشودة، كانت ترده، ليس على أعقابه خاسرًا، كما اعتيد القول في مثل هذه

المناسبات، فقط، ولكنها تصده أيضًا بالريق الناشف في الكلام معه، والنظرات المستخفة، فهيهات أن يكون موضـــعه فـــي القلب، بصلعته التي لا يبخل الزمن عليها بمزيد من التوسعة، وكرشه النامي بنمو ثروته وفلوسه، كموضع الحبيب الـــذي يصلح وجهه لأن يكون أيقونة كأيقونات مدرسة الفيوم في فن التصوير، ثم إنها لا تظن – وقد كانت محقة في ظنهـــا – أن رجل الأعمال هذا، سوف يعامـــل أبناءهـــا معاملـــة حســـنة ويعطف عليهم إذا ما تزوجته، لأنه ما عاملهم يومًا برقة، ولا بود، إلا ساعة عرضه الزواج عليها.

بخبرة رجل سوق، وتاجر خبر الحياة، وتعامل مـــع أنواع مختلفة من البشر، سواء أكانوا رجالاً أم نساء، خمـــن عارض الزواج اللحوح، أن في الأمر سرًا أو بالأحرى لا بد وأن يكون هناك رجل آخر غيره، فمن غيـــر المعقـــول ألا تشعر امرأة، كهذه الأرملة الجميلة، بالرغبة فـــي الارتبـــاط بعلاقة مع أحد من جنس الرجال، ثم إنها رغم كل محاولاتها لإخفاء رغبتها هذه، فإن تفاصيل صغيرة، لاحظها، كثيرًا ما فضحتها، فهي تتفرج بشغف شديد على المسلسلات، والأفلام العاطفية التي يعرضها التلفزيون، ويصادف وجـــوده، أثنـــاء

عرضها في بيت أهلها، أحيانًا، حتى أنها تتباطأ في إعداد الشاي أو القهوة له، حتى لا يفوتها بعضًا من مشاهد هذه المسلسلات، ثم إنها رغم تحجبها تتأنق وتضع عطورًا في أوقات خروجها لإعطاء الدروس الخصوصية، إضافة إلى حرصها على الالتزام بمواعيدها، كما لو كانت عسكريًا في الجيش ذاهبًا للالتحاق بوحدته العسكرية، وقد حاول إغراءها بالامتناع عن إعطاء كل هذه الدروس مجتمعة، مقابل درس واحد، لأحد أبناء ثري عربي، سيدفع لها ضعف ما تحصل عليه من دخل هذه الدروس، إضافة إلى ذهابها وعودتها بإحدى سيارات ذلك الثري الخاصة التي يقودها سائق، لكنها رفضت بشدة متذرعة بأنها تخشى على نفسها من دخول بيوت العرب القادمين من الخليج، حتى لو كان بها زوجات وأولاد، حرصًا على سمعتها.

لم يبق أمامه بعد ذلك، إلا أن يبحث بنفسه عن سبب رفضها له، رغم حالته المالية الميسورة التي تتمناها، ليس أرملة لها ثلاثة أبناء، أو عانس تحلم بالزواج، بل وكل بنت بكر كفلقة القمر في عز شبابها ونضارتها، ثم إنها – أي الحبيبة العاقة – تدرك جيدًا أنه لو أشار بإصبعه لمن هي

أجمل وأشبّ منها ، لجاءه بدلاً من المائة ألف. وفي الحقيقة أن الرجل كان محقًا برأيه هذا بسبب عجز الشباب عن الزواج، وتحمل أعباء تأثيث منازل زوجية، والإنفاق عليها، إذ التهم زمن الوساطة والسمسرة كل الأحلام الممكنة التحقق، والطموحات بحياة أفضل مختارة وفقًا لخيارات العمل التي باتت نادرة، بعد سقوط شعار التصنيع من الإبرة للصاروخ سقوطًا عموديًا لم يسم عليه أحد. إضافة إلى ذلك فهو لو أراد لتزوج بسنيورة من بنات الخواجات اللواتي تقذف بهن رياح السياحة إلى مطعمه، دون أن يدفع مقابل الزواج بها أسود أو أبيض، لذلك فقد أخذ في مراقبتها، ورصد حركتها أثناء الخروج خصوصًا بعد الظهر عندما تتجه لإعطاء الدروس الخصوصية، إذ كان يأتي لزيارتهم في بيت أبيها قبل موعد دروسها بقليل، ثم يتذرع بأعمال لديه، ويقوم بتوصيلها بسيارته الخاصة إلى مكان الدرس المفترض، ليتابعها بعد ذلك، ولم يمر، بالطبع، وقت طويل، حتى اكتشف حبيبها المجهول، بعد أن تابعها حتى التقت به في أحد المحلات المغلقة، غير المطروقة كثيرًا من قبل الجمهور، إلا لذلك النوع من الأحبة الذين يفضلون تبادل غرامهم في أماكن

هادئة، ذات إضاءة شاعرية خافتة، ونوادل يهمسون همسًا أثناء خدمتهم للزبائن الهامسين.

لسوء حظ أخت شفيقة، لم تر العزول الذي رآها، فربما كانت سوت الأمر معه، حتى لو وصل إلى حد قبولها الزواج منه، لأنها تدرك جيدًا أن انكشاف أمرها – إذا ما تم – أمام والدها لن يكون نتيجته إلا العدم، لكنها، ولأنها لم تره، مضت إلى مصيرها البائس، مسيرة وليست مخيرة، إذ قام رجل الأعمال بحركة انتقامية وقحة، بعد أن حسب عمليات المكسب والخسارة في الزواج منها، على أساس أنها رفضته، وستظل ترفضه، بسبب وجود ذلك الرجل الآخر الذي يعتبر في رأيه الخنجر الذي سددته إلى موضع جرح كرامته المنكوء منذ زمن بعيد، فقام بإبلاغ والدها بأنه رآها تجلس مع رجل غريب في كافيتيريا أبو منجل سيئة السمعة، والمعروفة بكونها وكرًا للعشاق والمحبين، أساسًا، حيث كانت تضع ساقًا على ساق، ويدها تحت يد ذلك الرجل الذي كان آنذاك يحوطها بذراعه، ويهمس في أذنها بكلمات وهو في غاية الوجد والغرام.

بهدوء، وفي ليلة شتوية باردة، عقب ذلك اليوم الذي عرف فيه الأب بسلوك ابنته الذي اعتبره مشينًا إلى حـد لا يصدق، ومنحرفًا بشكل لم يكن يتصور أن يصدر عن واحدة مثلها، ربيت كأفضل ما تكون التربية فـي أسـرة صـعيدية محافظة، خصوصًا وأن الرجل الذي شوهدت معـه، أثبتـت التحريات التي قام بها أخوها، أنه لا ينتمي إلى دينها، اتخـذ الوالد، ذلك العجوز المتزمت قراره الخطير، بعد مشاورة مع ابنه الذي لم يكن أقل غضبًا ولا تزمتًا من أبيه تجاه سـلوك أخته الأرملة التي اعتبر أنها قد مرغت شرف أسرتهم فـي التراب، وقد ترتب على ذلك القرار، أن احتـال الأخ علـى أخته، ذات يوم بعد غروب الشمس، متـذرعًا برغبتـه فـي مرافقتها لشراء قمصان ، وجوارب له، كما اعتاد أن يفعـل في مناسبات من هذا النوع، وبعد أن هدأت صغارها الثلاثـة الصارخين لرغبتهم في الخروج معها، ووعـدتهم بإحضـار علب عصير فواكه من النوع الذي يحبه كل مـنهم، قبلـتهم مودعة، طار بها في سيارته الأخ الذي طالما حملتـه علـى يدها بعد وفاة أمها، وغسلت له ملابسه، بل وألقمته صـدرها الصغير الخالي من اللبن، لتشعره بأن صدر أمه مازال رهن

حاجته، خلال الليالي العصيبة التي أعقبت وفاتها، وهي الليالي التي طالما قطع سكونها، ونياط القلوب، بصرخاته طلبًا للرضاع، طار بها، ليس إلى محلات عمر أفندي التي باتت تبيع أفخر القمصان، بعد تجديدها لتلائم روح العصر، وتوقفها عن بيع الكساء الشعبي من الكستور والدامور والبوبلين، ولكن إلى منطقة صحراوية نائية تبعد عن المدينة والعمران، عدة كيلو مترات، ليتركها هناك إلى مصيرها المحتوم، حيث كان في انتظارها، تحت جنح الظلام قاتل مأجور، اتفق معه الأب قبل ذلك، وقد ضرب أخوها عرض الحائط بقسوة، بكل تضرعها، وتوسلها إليه، بألا يتركها للموت، لأجل أطفالها الصغار الذين كانوا، آنذاك، ينتظرون في شوق العصير المعلب المرتبط بعودتها.

بعد ذلك في البيت الرهيب، وبقلب جامد كالصخر، وعيون باردة ميتة النظرات، ككل عيون القتلة، أعلن الابن انتهاء المهمة ونجاحها، للأب الذي كان جالسًا ينتظر بفارغ الصبر، نتيجة خطته، والاطمئنان على غسل عاره، وبمجرد أن تلقى النبأ الذي أراح قلبه، نادى على الأخت الصغرى التي لم تكن إلا شفيقة المتوولة، وأعلن لها ، بينما هو ممدد

على سريره في حجرة النوم، ما جرى للأخت الأم، ثم هددها هي الأخرى بالموت، إن هي فتحت فمها بكلمة واحـــدة، لأي كائن كان، حول هذا الموضوع.

في تلك الليلة، باتت شفيقة التي كان اسمها، حتى هذه اللحظة، تغريد، على السرير كجثة متيبسة في انتظار غسلها، مفتوحة العينين عن آخرهما، عـــاجزة بفعـــل قـــوة خارقـــة مجنونة، تنبعث من داخلها عن الإتيان بأي فعل صغير حتى إغماض جفنيها، وعندما طلعت الشمس، كانـــت قـــد فقـــدت ثمانية كيلو جرامات من وزنها دفعة واحدة، كما لـــو أنهـــا قطعة صغيرة من الزبد، ذابت ذات ليلة حارة، فلمـــا صـــحا أبناء أختها المغدورة من نومهم، ولم يجدوا أمهم إلى جانبهم في البيت، أخذوا يبكون بشدة فلم تجد الخالة ما تقوله لهم، إلا أن أمهم ذهبت لعمتها العجوز، لأنها مريضة جـــدًا، وأنهـــا اضطرت للمبيت عندها، لكن عند حلول المساء، كانت الشابة المصدومة المفجوعة فجيعة لا حد لها، قد فقدت كـــل قـــدرة على مواجهة الأمر، وأصبحت كائنًا غريبًا طوله مائة وسبعة وستين سنتيمترًا، ووزنه خمسة وأربعين كيلو جرامًـــا مـــن العظم واللحم البشري، وما إن حل منتصف الليـــل تقريبًـــا،

وبعد التأكد من نوم الجميع، بما فيهم الأب والأخ، تسللت الشابة المسكينة على أطراف أصابعها، وفتحت باب الشقة خارجة بحذر وهدوء، بينما كان أبوها يغط في نومه، فلم يكتشف هروبها، إلا عندما قلب قط شريد حلة طبيخ، كانت بالمطبخ، وهو يحاول إزاحة غطائها المعدني، بعد أن دخل من الباب الذي ظل مفتوحًا بعد خروجها، فحدث ضجيج ناتج عن وقوع الغطاء على الأرض صحا الأب عليه.

ظلت تغريد التي أصبح اسمها شفيقة من الآن فصاعدًا، تجري وتجري، وكأن قوة جامحة كقوة فرسين فتيين تدفعها للجري، أخيرًا، وبعد زمن ممتد من الهروب بسبب مطاردة تصورتها في مخيلتها، سقطت من الإعياء، إلى جوار أحد الأسوار، لم يكن إلا سورًا قرميديًا عاليًا لمدرسة متبقية من زمن الإرساليات الاستعمارية في القرن الماضي، وقد ظلت إلى جوار السور حتى أوشك الفجر على الطلوع، فرآها أحد أولئك الذاهبين لكسب ثواب صلاة الفجر في الجامع القريب من المدرسة، فارتعب، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم عند رؤيتها، لأنه لم يكن قد رأى طوال عمره الذي جاوز الستين عامًا، بشريًا بهذا القدر من النحول

واتساع العينين، يجلس محملقًا في اللاشيء في هذا الهزيع الذي ينام فيه معظم الناس، وعندما عاد مع بعض المصلين، فور انتهاء الصلاة، ليرسم ما رآه وشاهده بأم عينه، كان البشرى المرعب، قد فارق المكان، مما جعلهم يتندرون عليه قائلين له، إن ما رآه لم يكن أكثر من تخيلات دارت برأسه.

منذ الليلة الأخيرة التي قضتها في بيت أبيها، لم تفتح شفيقة شفتيها بكلام أبدًا، وهامت على وجهها أيامًا وليالي، تقتات من مقالب القمامة، وتنام بجوار أي حائط، حتى لو كان حائط مقبرة، وكانت جل نهاراتها تسير دون توقف يسمح للناس بالانتباه أو الالتفات إليها، لأنها ما كانت تعود للأماكن التي تعبرها أبدًا، وقد قطعت شوارع وحارات المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ولم تمض شهور إلا وأصبحت ملامح وجهها، ملامح أخرى، لا تشبه ملامحها الأصلية أبدًا، خصوصًا وأن شعر رأسها كان قد شاب دفعة واحدة، منذ الليلة التي تلقت فيها خبر قتل أختها، فأصبحت تبدو في عمر يزيد عن عمرها الحقيقي خمس عشرة سنة على الأقل.

بعد شهور من ذلك، دخلت شفيقة السجن لأول مرة، بتهمة التسول، وهي التهمة التي سوف تجعلها تتردد عليه بعد ذلك عدة مرات، وتصبح واحدة من نزيلاته الدائمات.

لم تقرر عزيزة ضم شفيقة المتوولة إلى زمرة نساء العربة الذهبية السماوية، إلا بسبب شفقتها عليها، وشعورها بمدى تعاستها ومعاناتها الفظيعة التي بلغت معها ما هي عليه من حال، إضافة إلى سلوكها المستكين الزاهد في كل ما يتكالب عليه أهل الدنيا، وكان أكثر ما يجذب عزيزة إليها، حنوها على العصافير، ورقتها البالغة وهي تضع لهم فتيتات خبزها على إفريز الشباك لتطعمهم، ولو ألمت عزيزة بحكاية شفيقة المتوولة، لوضعتها فورًا ودون أي تردد على رأس قائمة راكبات العربة، دون أدنى شك، ولأجل شفيقة عزمت عزيزة على إلحاق الحاجة أم عبد العزيز بالعربة، ولم يأت هذا لأن عزيزة ترى أن أم عبد العزيز مظلومة، لا تستحق عقوبة السجن، ولا لأنها ضحية من ضحايا الحياة اللواتي قذفت بهن الأقدار في ذلك المكان الكئيب، مثلما تلقي أمواج البحر بالجثث الغارقة على الشطآن المهجورة، ولا بسبب صلواتها التي لا تنقطع، ليل نهار، وقراءتها الدائمة في دلائل

الخيرات، أو تلك الأوقات الطويلة التي تجلس فيها للاستماع إلى محطة القرآن الكريم بواسطة راديو ترانزستور صـــغير تلصقه بأذنها – من ماركة تليمصر، بقي كشاهد على محاولة فاشلة للدخول في مجال التصنيع، والاعتماد على الذات، أيام الطنطنة الإعلامية للصاروخ القاهر وشقيقه الظافر اللذين لم يظفرا بأي نصر في حرب ١٩٦٧، ولكن عزيـــزة قـــررت إلحاقها بالعربة بسبب ذلك الحنو الدائم الذي كانت تغدقه على شفيقة المتوولـــة، والإشـــفاق عليهـــا، ومراعـــاة أحوالهـــا، والحصول على ما يصرف لها من طعام وإعطائه لها، فلولا انتباهها الدائم لحالتها، لكانت تلك البائسة قد انتهـــت حياتهـــا على ظهر الدنيا، منذ زمن طويل.

كانت أم عبد العزيز، حريصة على مراقبة ومتابعـــة شفيقة المتوولة طوال الوقت، وخصوصًا عندما تجتاحها حالة التشنج العصبي، فجأة، والتي تداهمها بين الحـــين والحـــين، فتتحول الفتاة النحيلة إلى لوح من الخشب اليابس، وســـرعان ما ترتمي على الأرض، زائغة النظرات، جاحظـــة العينـــين على نحو مخيف، يحول رأسها إلى مـــا يشـــبه رأس عجـــل صغير، جرى ذبحه للتو، بينما يخرج من فمها زبـــد أبـــيض

برغاوٍ خفيفة كرغاوي صابون شركات القطاع العـام الـذي يوزع إجباريًا مع حصص الدعم التمويني عند البقالين، وتقف جميع السجينات والسجانات اللواتي يصادف وجودهن، عنـد حدوث هذا المشهد حائرات، لا يمتلكن القـدرة علـى فعـل شيء، عندئذ، تتقدم أم عبد العزيز وهي تتمتم بالشهادتين، ثم بسورة ﴿قل أعوذ برب الناس﴾، فتنحني على الفتاة الملقـاة على الأرض، لتؤذن في أذنها اليمنى أذانًـا جمـيلاً، تعقبـه بتلاوة ما تيسر لها من أسماء الله الحسنى، لتطلب، بعد ذلـك الشفاعة من رسول الله ﷺ للفتاة، ولا تتركها، حتـى تعـود الحياة، والليونة البشرية، إلى جسدها مرة أخـرى، فتسـارع بمناولتها شربة ماء، وتربت عليها بحنو، بعد أن تأخذها فـي صدرها الضخم المستعد لاستيعاب كائن آخر فيه، إلى جوار شفيقة، بينما تنهمر دموعها على خدها بحرارة.

كانت شفيقة تثير في أم عبد العزيز ذكرى ابنها الذي استشهد في حرب ١٩٧٣ لأنها تشـبهه إلـى حـد كبيـر، خصوصًا في الحـاجبين الكثيفـين المعقـوفين، والعينـين الواسعتين، وفلجة السعادة في أسنانهما الأمامية التي أثبتـت الأيام، كذب ارتباطها بالحظ السعيد، كما يشاع عنها دائمًـا،

فالبنت المسكينة أوصلها حظها إلى السجن، وفلذة القلب واراه حظه التراب، دون أن تعرف له مكان قبر، تذهب إليه أو تقيم عليه شاهدًا يخلد اسمه، لأنه استشهد في سيناء، وتركها تعاني مرارة فراقه، وحسرتها الدائمة عليه، وهي الحسرة والمرارة التي لم يقلل أو يخفف منها أبدًا، أنها حصلت كنتيجة لاستشهاده على تعويض مالي لا بأس به أتاح لها بعد أن باعت زوجًا من الثعابين الذهبية، تبقيا لها من مصوغات زواجها، أن تعلي دورين في بناء بيتها القديم، بعد أن دفعت المعلوم لموظفي البلدية، وحصلت على ترخيص بناء، مخالفة بذلك القانون الذي لم تأت بسبب مخالفته هذه إلى السجن، ولكن بسبب تقاضيها خلوات من سكان الشقق الذين أجرتها لهم، مما جعل ربحها من عملية البناء، والتأجير، يقفز ليصل إلى ثلاثمائة في المائة على الأقل، لكن المستأجرين المقهورين الذين كانوا من موظفي الحكومة ذوي الرواتب القليلة، والدخل المحدود، والذين دفعوا الخلوات للحاجة أم عبد العزيز، بصعوبة بعد أن ربطوا الأحزمة على البطون، واقتطعوا أجزاء ضرورية من رواتبهم، للدخول في جمعيات شهرية مع زملائهم في العمل، تتيح لهم سيولة نقدية، تفي

بالخلو المطلوب من كل منهم، هؤلاء الموظفون، سارعوا بالإبلاغ عن ما حصلته منهم أم عبد العزيز من خلوات يجرمها القانون تجريمًا لا بأس به، لكنه لم يساعد في حل أزمة الإسكان التي تفاقمت، إذ تحول الملاك إلى نظام التمليك بدلاً من تقاضي الخلوات، ونتيجة لهذا حكم على أم عبد العزيز بالسجن، ووجدت هي ذلك حلالاً غبار عليه، لأن مدة الحكم لم تكن طويلة بسبب سنها وشفقة القاضي الذي أصدر الحكم، عليها، ومراعاته لكونها أم لشهيد في الحرب.

ظلت أم عبد العزيز سجينة مثالية السلوك على كل المستويات، فهي عاقلة، رزينة نظيفة الملبس، ذات لسان عفيف، ويد ممدودة بالخير للصغير قبل الكبير، وكانت تهمتها من ذلك النوع الذي يبعث على الاحترام بين السجينات والسجانات، فهي تهمة ليست مخلة بالشرف من وجهة نظرهن. ولا تقلل، على الإطلاق من شأن صاحبتها التي عيبها الوحيد هو شخيرها المستمر الشبيه بصوت تنقيط الماء من صنبور تالف، بمجرد أن تضع رأسها على الوسادة لتنام، وهو الشخير الذي كانت أم رجب وأم الخير تساهمان في تحويله إلى سيمفونية كاملة للقلق والإزعاج، باعتبارهما

تتامان في العنبر نفسه مع أم عبد العزيز فيما عدا ذلك ظلت أم عبد العزيز موضع تقدير، خصوصًا بعد أن صارت كثيرات من المسجونات، يؤمن بها، كامرأة تقية واصلة وصول العارفين بالله، لكثرة صلاتها، ولصيامها كل اثنين وخميس، عدا شهر رمضان والأيام الست البيض التي تعقبه، وأول رجب ونصف شعبان، وغرات الأشهر الحرم، وكذلك لبركتها الواضحة، وقدرتها على إعادة شفيقة المتوولة إلى حالتها الأولى بعد أن تؤذن في أذنها اليمنى، عندما تجتاحها نوبات المس الشيطاني التي لم تكن في الحقيقة إلا نوبات صرع عنيف لم تعالج منه أبدًا، وكنتيجة لهذا الإيمان والاعتقاد في أم عبد العزيز من قبل المسجونات، والسجانات كذلك، باتت تقضي أوقاتًا كثيرة في السجن، تقوم بعمل الأحجبة للمسجونات، وترقي بعضهن وتمسح رءوسهن، وقراءة بعض الآيات البينات، عندما تنتابهن حالات صداع شديد لا تقوى على قمعها منتجات شركة باير، وسويس فارما، وهوكست من الأقراص المسكنة للألم، لأنها في واقع الأمر حالات ناتجة عن ضعف البصر المتزايد، لغياب فيتامين أ تقريبًا من الغذاء، أو عن الإمساك المزمن لقلة

السليللوز النباتي في وجبات السجن، إضافة إلى ذلك، فقد وصل الاعتقاد في أم عبد العزيز إلى حد شجعها على القيام بتفسير الأحلام التي كانت تقوم بتفسيرها عادة بينما تتجمع حولها مجموعة من السجينات اللواتي كن يجدن ما تقوم به هذه المرأة، نوعًا من النميمة اللذيذة، وقد ثبت الاعتقاد في قدرة أم عبد العزيز على تفسير الأحلام تفسيرًا دقيقًا صائبًا، عندما قالت لمحروسة السجانة، أن لها ابنة سوف تتزوج قريبًا، خلافًا لإرادتها، لما حكت لها محروسة، ذات يوم، عند الصباح أنها رأت فيما يرى النائم، أن إحدى بناتها التي هي أجمل واحدة فيهن، كانت تلتهم إصبعًا كبيرًا من الموز، فحاولت أن تمنعها من أكله، لتأكدها من أنه مسموم وسوف يضرها، لكن الفتاة أصرت على التهامه، مما جعل محروسة تبكي وتصرخ طالبة النجدة، لكنها أفاقت على صوت بائع الفول الذي كان ينادي بالحارة، فهبت مذعورة من نومها إلى المطبخ، وحملت السلطانية الإستامبولي الخزفية التي قايضت عليها ببنطالين من بناطيل ابنها القديمة، واشترت الفول، وعندما عادت بعد الظهر إلى البيت، بعد انتهاء عملها في السجن، فاتحتها ابنتها التي هي في رأيها فتاة لعوب، تستحق

قصف الرقبة، رغبتها في الزواج من الكهربائي الذي أصرت على الزواج منه.

الطريف أن أم عبد العزيز، وبمرور الوقت، باتت تعتقد وتؤمن بقدراتها الخاصة في تفسير الأحلام، وكشف الحجاب عنها، مما جعلها تزيد في صلواتها، ولا تكف عن قراءة الأوراد، والأدعية، وكل ما تمدها به محروسة التي كانت لا تشبع من تفسير الأحلام أبدًا من كتيبات دينية رخيصة، تشتريها خصيصًا لها من أولئك الباعة المنتشرين إلى جوار سور جامع السيدة زينب، وسور جامع الحسين رضي الله عنهما لكنها ذات ليلة من الليالي أيقنت بانكشاف الحجاب عنها، وانفتاح الطريق الموصل إلى الله، أمامها، إذ أنها بينما كانت جالسة على سريرها، تسبح بمسبحتها القديمة التي خرطت حباتها المستديرة من خشب العنبر، والتي كانت قد اشترتها من خان الخليلي، وإلى جوارها قطة السجن المدللة، تهر باطمئنان، فاض بها الوجد والشوق، وغلبها الحنين لرؤية وحيدها الشهيد الذي حرمت منه، إلى حد شعورها بأن دقات قلبها تسرع، ورأسها يسخن، سخونة غير عادية، وأصابعها لا تقوى على تحريك حبات المسبحة بيسر

وسهولة، عند ذاك، ورغم الصخب الذي كان يمــلأ عنبــر العجزة، وقتها، لأن أم رجب كانت تتشاجر مع لولا الكوافيرة على علبة كبريت ضاعت مــن لــولا، فاتهمــت أم رجــب بسرقتها، ورغم الأصوات المتداخلة، بسبب محاولات أطراف أخرى لفض الشجار، شاهدت أم عبد العزيز بعينيها اللتــين سوف يأكلهما الدود، ابنها الغالي العزيز، عبد العزيز، يجيء إليها بملابسه العسكرية، وهيئته الجميلة التي هي على هيئــة شفيقة المتوولة، إلى حد كبير، فيجلس قبالتهــا علــى حافــة السرير، ويربت بيده على رأس القطة التــي امتنــت لــذلك كثيرًا، ورفعته قليلاً عله يهرش لها رقبتها وذقنها اللتين كانتا تضايقانها بسبب نغش البراغيث بها، بــل وتســمع صــوته بأذنيها الحادتين، رغم شيخوختها، واللتين يمكنهما الإنصــات إلى دبيب نملة، وهو يقول لها في رقة.

– عاوزة أي شيء يا حاجة قبل ما أرجع.

ثم لم تمر ثانية على كلماته، إلا وكان قد اختفى، مما جعل الأم الثكلى، تفتح عينيها بشدة، وتغلقهما عــدة مــرات، لتتيقن من كونها صاحية لم تغف، ولتؤكــد لنفســها أن مــا شاهدته كان حقيقة وعلمًا وليس بحلم مــن الأحــلام، ولمــا

تأكدت تمامًا من ذلك، بعد أن تحسست بيدها الموضع الذي كان يجلس عليه من السرير، فوجدته ساخنًا، كما لو أن إنسانًا غادره لتوه، صرخت صرخة عظيمة، ولطمت، ضاربة بكفها على صدرها، منادية ولدها العزيز، مما جعل الدهشة تعم جميع من بالعنبر فيتوقف شجار أم رجب ولولا التي رفست القطة رفسة قوية بقدمها، عندما قفزت الأخيرة مذعورة من صراخ أم عبد العزيز، فتعثرت برجلها.

استعادت الأم الحزينة نفسها، بعد مدة من اللطم والندب اللذين شاركت فيهما عظيمة الندابة، ووجدتها أم رجب فرصة سانحة، لبكاء ابنتها ونعيها، وبعد أن بذلت حنة جهدًا خارقًا في إسكاتها وتهدئتها، بمسح وجهها بقطنة مغموسة في ماء الزهر، ولم شعرها في منديل آخر، بدلاً من الذي خلعته لتمسكه، بيدها، وتعدد به صفات ابنها الخَلقية والخُلقية التي أضاعها، وأفناها الموت الغادر وأسكنها التراب، وعندما همدت قواها تمامًا، ولم تعد قادرة على بذل المزيد من المشاعر الأسيانة التي بذلتها بكل خلجة من خلجات نفسها، ظلت ساكتة ساهمة، لا ترد على كل الاستفسارات التي وجهت لها، والباحثة عن سبب صراخها

وعويلها المفاجئ على وحيدها، لأنها لم تشاهد من قبل في مثل هذه الحالة الشنيعة من الانهيار والحزن، فقد كانت تتذرع بالصبر وبقراءة القرآن دائمًا، وحتى عندما سألتها حنة سؤالاً مباشرًا عما جرى، آثرت أم عبد العزيز الاحتفاظ بالسر لنفسها، وكتمان الأمر عن الجميع، إذ اعتبرت أن رؤيتها لأبنها بأم عينها، وهو ميت، نوع من العطف والكرامة التي خصها الله بها، والتي تستوجب الشكر، والحمد، والكتمان في النفس.

قامت أم عبد العزيز، بعد أن استعاذت من الشيطان الرجيم، فتوضأت وصلت صلاة أخلصت فيها إخلاصًا كبيرًا، واستغفرت الله، عما فعلته منذ قليل، لأنها لم تقصد الاعتراض على مشيئته، وأمضت ليلتها ساهرة، حتى غياب النجم عن سماه، تقرأ ما تيسر لها من آيات وأدعية تريح الميت في قبره، وتصبر ذويه في دنياهم.

في ذلك الوقت، وبينما كان كل ذلك يجري، كانت عزيزة في زنزانتها الانفرادية المجاورة لعنبر العجزة حيث دارت هذه الأحداث، تحملق في السقف، بعد أن استمعت إلى ما حدث، وخصوصًا الصراخ والعديد الحار، وفكرت مرة

أخرى في أم عبد العزيز، وأحوالها، وعذابها المرير الــذي قلما عبرت عنه مذ جاءت السجن، وبينما هي تطفئ الجمــرة الصغيرة لبقايا سيجارتها في كوز الصفيح القديم الذي كــان ذات يوم علبة مربى التين البرشومي، صنعته شــركة قهــا، شعرت بتأنيب الضمير، وبالخجل من نفســها قلــيلاً، لأنهــا أخطأت في حيثيات قرار إلحاق تلك العجوز البائسة بالعربــة الذهبية الصاعدة إلى السماء، لذلك قامت من مكانها، وذهبت إلى الشباك، حيث أسندت رأسها بين قضيبين مــن قضــبانه الحديدية، وقالت بصوت خفيض شابه الخجل:

– حقك عليّ، خاطرك قبل خاطر شفيقة!

لحن الصعود السماوي

لم يعرف أحد أبدًا، ما الذي كانت تفعله عزيزة الإسكندرانية، عندما تبقى وحيدة في زنزانتها الانفرادية لمدة أربع عشرة ساعة يوميًا، بعد أن يغلق عليها باب الزنزانة من الخارج، حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، حتى تفتحه السجانة المناوبة في السابعة من صبيحة اليوم التالي، كانت نزيلات عنبر العجزة المجاور لزنزانتها يسمعن وقع قدميها معظم الليل وهي تتمشى في حركة دءوبة، قلقة، قلما تتقطع، أما ما خلا ذلك فلا صوت يُسمع طالعًا من جهة زنزانتها، وهكذا ظلت أحاديثها الطويلة الممتدة، وحواراتها التي لا تتقطع مع أمها وزوجها المقتول، ونفسها، وأولئك المصطفيات للصعود في العربة الذهبية المسحورة المجنحة، إلى العالم الآخر الجميل في السماء، سرًا أبديًا، لا تعرفه غير عناكب سقف عنبرها التي تقاسمها سهر الليالي مقتنصة ما تيسر لها من هوام، ويراع غرّه الضوء المنبعث من العنبر في الليل، وكذلك جنادب الغيطان التي كانت ترسل بتحيات المؤانسة، لتلك الوحيدة الجالسة تتجرع خمرها الوهمي،

فتسمعها، عبر شباك الزنزانة المفتوح، صريرها المرسل من أماكنها في الحقول القريبة من شاطئ النهر الذي لا يبعد عن السجن كثيرًا.

نجحت عزيزة في البقاء بسجن النساء، طوال سنوات طويلة، بدلاً من نقلها إلى مستشفى المجانين، إذ ظلت حالتها تحير الأطباء الذين لم يجدوا شواهد فعلية تستدعي ضمها لزمرة الذين فقدوا عقولهم، فخرجوا عن حدود المتفق عليه المألوف في القطيع البشري، أما التصرفات القليلة المحدودة التي بدرت منها، خلال سنوات وجودها في السجن، فقد أثبت التحقيق فيها، أن الملائكة أنفسهم، لو تعرضوا لها لأبرزوا أنياب الشياطين الجارحة، وأظافرهم الحادة في مواجهة الذين استفزوهم، وعملوا على استثارتهم، لكن عزيزة، كانت تكتفي عادة في المواقف الاستفزازية، بالعض الخفيف، كما فعلت ذات مرة مع لولا الكوافيرة لوقاحتها، أو بشد الشعر، أو ربما بالضرب بالقبضة في صدر وأنف الغريم، كما فعلت ذات مرة مع سجانة نكدة، ذات وجه كئيب مصفر، كأنها في الأصل، نباشة من نباشي القبور، ظلت تضع نقرها من نقر البنت جمالات، وتقف لها على الواحدة، مترصدة لها في

الكبيرة والصغيرة، لأن البنت رفضت في مرة من المرات أن تغسل لها هدومها، لأن يدها كانت قد احترقت بعد انسكاب الزيت عليها، وهي تقلي البطاطس، فيما عدا حوادث بسيطة كتلك، لم تكن عزيزة لترتكب أي فعل آخر، يلفت النظر إليها، ويشير إلى جنونها، عدا كونها تكلم نفسها أحيانًا في حضور الأخريات، وهذه مسألة يفعلها كل الناس تقريبًا، مع فارق واحد بسيط، هو أن عزيزة تفعل ذلك بصوت عال مسموع، فتقول ما تود قوله للآخرين، دون اعتبار لما يصح أو ما لا يصح، وما يجب وما لا يجب، فتقول للأعور: أنت أعور في عينه، وهو الشيء الذي كثيرًا ما يود الناس فعله وقوله، لكنهم يحجمون عن ذلك، عادة، بسبب خيانات شجاعاتهم.

على أي حال، لم تكن حالة عزيزة، وحديثها المسموع مع نفسها في فناء السجن، أو الدهليز الطويل المطلة عليه زنزانتها، وبعض الزنازين الأخرى، يشكلان في أي وقت قلقًا، لأي كائن كان، بما في ذلك إدارة السجن نفسها التي ارتأت وضعها في زنزانة انفرادية، تحسبًا لعواقب حوادث، قد ينتج عنها مشكلات لا لزوم لها.

طالما تأملت عزيزة وهي في زنزانتها فكرة السجن، باعتبارها الخيار الجماعي الذي اختاره البشر، لعقاب بعض منهم، وكانت ترى أن فكرة العقاب لجعل المرء عبرة لمن لا يعتبر، لا تنطبق عليها أبدًا، وأنها لا يمكن أن تكون عبرة لأي بشر آخر، لأنها عاشت حياة فريدة من نوع خاص، لا يمكن لإنسية غيرها أن تعيشها، ولا تقوى على الاستمرار فيها إلا جنية من جنيات البحر القادرات على الغوص فيه، بعيدًا، بعيدًا في الأعماق، دون خوف أو وجل، لأنهن عرفن أسراره، وخبرن أمواجه العاتية، مثلما خبرت هي بحر العشق، وعرفت أهواله وآلامه، بالإضافة إلى أنها لم تقتل رغبة منها في القتل، أو الانتقام، ولا بدافع الغضب، أو الكراهية، لكنها قتلت من أجل الحفاظ على عشقها الفريد الذي ما عاشت إلا لتظل شجرته أبدًا، يانعة، مزدهرة، وهي لم تقتل إلا ذلك الآخر الشبيه الذي قررت التخلص منه بعد أن تجسد لها في هيئة زوج أمها، فسرق النار الأبدية لعشقها، واقتلع شجرة الحياة في نفسها من أعمق جذورها، لتحافظ على ما حافظت عليه طوال سنوات عمرها كلها.

لم تندم عزيزة لحظة على قيامها بالقتـــل، ولا علـــى حرق المنزل الواسع الجميل، بعد أن غمرت بالكيروسين كل ركن فيه كان قد شهد تفصيلة من تفاصـــيل عشـــقها، وكـــل موضع عاش لحظة من لحظات الغرام المشبوب الذي لم يلم بسره إلا هذا البيت، الساكن فـــي قلـــب حديقتـــه الفســـيحة، والصاخب بحياة سرية لم يعرف البشر مثلها أبدًا، كما أنها لم تندم في أي وقت من الأوقات، لأنها أمضت حياتهـــا، كمـــا صوفي ورع، تصلى في محراب غرامها المجنـــون، لكنهـــا ندمت أشد الندم على شيء واحد، وحيد، هو أنهـــا ســـمحت لذلك الحبيب المؤله أن يتعلق بأخرى، وأن يصل به الأمـــر إلى اعتزام الزواج بتلك التي أحبها، وكانت عزيـــزة تعـــض أصابع الندم لأنها أتاحت لحادث، كالخدش الصغير، أن يعكر صفو غرامها الجميل، فلم تقض على المهزلة في مهدها، ولم تقدم على ما فعلته بعد ذلك في ذات اللحظة التي انتفض فيها قلبها وجلاً ورعبًا، إذ رأت معبودها الأثير، ينظر إلى نادرة تلك النظرة التي ما اعتاد، أبدًا، أن يوجههـــا إلـــى غيرهـــا، فشعرت أن ما في قلبه من حب وغرام، لم يعد لها منذ تلـــك اللحظة، وقد كان عليها ألا تؤجل، أو تسوف، أو تراهن على

أن ما حدث لم يكن إلا سحابة صيف عــابرة، تــذهب فــي سبيلها، دون أن تغمر بفيضها جزيرة العشق السرية الصغيرة التي رتعت في مباهجها، وعاشت فيها، وطالمــا تمنــت أن تعيش فيها إلى الأبد.

كثيرًا ما أمضت عزيزة ساعات لياليها، تتحدث إلــى ذلك المعشوق الأبدي الذي طالما ظنت أنهــا لــم تخلــق إلا لتعشقه، وما عاشت إلا لأن نفحات من روحه كانت تســري في دمائها، فتجعلها امرأة بألف امرأة ، تبذل مــن روحهــا، لذلك الحبيب القدس، حتى يراها نضرة متجددة دومًا، كما لو كانت طائر الفينيق الجميل الذي لا يفنى، ولا يرتوي أبدًا من ماء الحياة، ولطالما تحدثت معه في لياليها، ذات الخمر النيلية العذبة التي ما أسكرتها، إلا بنشوة ذكريــات حياتهــا التــي تتسرب منها، وهي مبعدة عن مدينتها البحرية الأثيرة، خلف أسوار السجن العالية، ولطالما بثــت حنينهــا، لتلــك الأم – الصديقة، شقيقة الروح، وشريكة الجســد، ونديمــة الأيــام الخوالي التي عصف بها الزمان، ووردة البيت اليانعة التــي باركت، دومًا، ما بين زوجها وابنتها من تعاطف، ومــودة، وغذت شجرة محبتها بمدد من عطفها وحبها، ومــا حاولــت

يومًا، أن ترى ببصيرتها، أو تجلو بأذنيها وبقية حواسها المستطيعة، ما عجزت عيناها عن تبيانه لها من صخب صامت واش بأواصر الغرام بين زوجها العشيق، ووحيدتها الصغيرة القلقة دومًا بهواجس العشق في ذلك البيت القديم الذي شهد لحظات الميلاد ولحظات الموت الأليمة أيضًا.

كانت عزيزة تفكر، وهي تجلس وحيدة في زنزانتها، أن من المحتمل أن تكون أمها قد اكتشفت حقيقة العلاقة بين ابنتها وزوجها، فارتضت ذلك، وآثرت الصمت لأسباب كثيرة، ربما كان على رأسها أنها كانت ترى فيها مكمن سعادة حشاشة قلبها، وضياء حياتها الذي تستضيء به، وهي المحرومة من نور عينيها، فلطالما رحبت بأن يخرجا سويًا في أيام وليال كثيرة للنزهة أو للسهر خارج البيت، وهي التي ألحت على زوجها ليصحب ابنتها إلى المدينة – العاصمة التي هي أم الدنيا فيطوف معها فيها، وما أكثر ما حفزت ابنتها على أن تولي زوجها الرعاية والاهتمام، فجعلتها تشرف على تحضير ملابسه بنفسها، كلما تأهب للخروج، وتعد له الطعام عندما يعود إلى البيت متأخرًا في بعض الأمسيات، بالأحرى، لقد أرضعتها حبه وعشقه، مثلما

أرضعتها حليب صدرها، فلعلها كانت عالمة أن ذلك العطف، والحنان، يمكن أن ينمو وينضج إلى ما هو أبعد... بل إلـــى منتهى العشق والغرام.

لكن ما كان يؤلم عزيزة، ويشعرها بالضـــيق، بـــل وبالخجل من نفسها أيضًا، هو أنها ما كانت لتسمح لأمها أن تكون ذات يوم في الوضع الذي كانت هي فيه، لو كانت في مكانها، ولما قبلت أبدًا أن تعشق ابنتها زوجهـــا، وأن تتدلـــه بحب الرجل الذي أحبته، وعشقته، وتزوجته أيضًـــا، وكـــان شعورها بالخجل والضيق، بسبب اتهامها، لنفســـها بالقســـوة وغلظة الفؤاد، إضافة إلى ما هو أهم من ذلك، وهو الجحود البالغ، تجاه هذه الأم الطيبة المتسامحة، كريمة النفس التي لم تتوقف للحظة عن إحاطتها بالحب والحنان.

عند ذلك الحد من التفكير، كان غضب جامح يتملـــك عزيزة.. غضب من نفسها، وغضب عليها، لأنها ما كانـــت أبدًا الابنة الوفية البارة التي يلهج لسانها بالشكر والامتنـــان، لتلك الأم العظيمة، بل كانت ابنة ناكرة للجميل، أنانية، تحب لنفسها ما لا تحبه لأمها التي لولاها لما عرفت ذلك الرجـــل المعشوق، ولا عاشت معه كل ذلك الزمن الجميل، وإذ يأخذ

عزيزة الغضب، وتثور بداخلها قوة الألم التي تهـز كيانهـا، فتعصف بروحها المعذبة التي طالما نأج فيها البوم والـريح، تهب واقفة، وتتمشى جيئة وذهابًا بـين جـدرانها الأربعـة العالية، وعندما يبلغ ألمها مداه، تتجه إلى الشـباك، فتمسـك بقضبانه الحديدية الصدئة، وتهزها، بكل ما تجمع في قبضتي يديها من غضب وألم، وكأنها تود أن تحطمها وتدفع بنفسـها خارجها، بعيدًا، عاليًا في السماء، عندئذ كانت ساكنات عنبر العجزة يسمعن صوتًا صادرًا عن غرفة عزيـزة المجـاورة فيحسبن أن القطط لا تكف عن الـنط مـن الشـباك، إلـى زنزانتها، وكانت أم عبد العزيز، تعتقد أن عزيـزة مؤاخيـة جنًا، يأتون إليها ليلاً، على هيئة قطـط لا يمكـن أن تكـون كالقطط الأخرى الشاردة التي تتسلل إلى العنابر ليلاً بهـدف السرقة، فتكشف الأغطية عن الطعام في غفلة من صاحباته، وإلا كانت عزيزة نهرتها وطردتها، وقـد تحـدثت أم عبـد العزيز، ذات صباح، مع عزيزة في موضوع القطط الليليـة هذا، فنفت عزيزة نفيًا تامًا وجود قطط تزورها أثناء الليـل، وكانت الحاجة العجوز التي ظنت أن حجب العالم المستور قد رفعت عنها في السجن، تود أن تحصل من عزيـزة، علـى

معلومات تتعلق بهذا الموضوع ، لتوسع مداركها الغيبية، وتكرسها لنشاطها الجديد الذي أثبتت التجربة نجاحه في السجن، والذي قررت الاستمرار فيه، وتصعيده، بعد خروجها منه، إلى حياتها الطبيعية،

بعد أن تفشل عزيزة في تحطيم القضبان، وتؤلمها يداها إلى درجة لا تعود معها قادرة على بذل المزيد من الجهد، لدفع ما يعوق فرارها من عذاباتها، وما يمنعها من الصعود عاليًا إلى حيث تشاء، كانت تئوب عائدة إلى فراشها الأرضي، مجرجرة جسدها المنهك بالألم، لتجلس كركام بشري، حطمته الأيام، وتلاعب به الزمان، فأصبح شيئًا متوهجًا كالفضة في الرأس، وخيوطًا محفورة بدقة حول العينين اللتين ذبلتا، وانطفأت فيهما لمعة الحياة، فلم يبق منها إلا تلك النظرة الناعسة المترفعة، كعلامة باهتة تدل على ما كانت عليه صاحبتها في الماضي، وما إن ترمي بجسدها على مرتبة الإسفنج الرقيقة، حتى تشعل لنفسها سيجارة جديدة، وتتجرع كأس خمرها المائي في جرعات سريعة، لتطفئ بها ما لا يخبو في نفسها من آلام مشتعلة، ولتعاود

التفكير فيما يجب إنجازه، حتى تقلع على أكمل وجه عربتها الذهبية الصاعدة إلى السماء.

كانت عزيزة ترغب في أن تبدو راكبات عربتها الذهبية في أجمل صورة يمكن أن يكون عليها بشر، عند ارتفاعها عن الأرض، باتجاه السماء، وكانت ترى أن هذا أقل ما يجب ويليق بنساء مختارات من سجن النساء، عند صعودهن إلى هناك، لذلك فقد أمضت ليالي طويلة تحادث سونيا الأرمنية التي كانت أشهر خياطة في الزمن الماضي بمدينة الإسكندرية، والتي طالما حاكت لعزيزة ولأمها أجمل الثياب، وأكثرها عصرية وأناقة، وقد كانت عزيزة، تناقش سونيا في أدق التفاصيل المتعلقة بنوع القماش وألوانه، ومدى ملاءمة كل ثوب من الأثواب التي سوف تصنعها، لصاحبته المختارة للالتحاق بالعربة الذهبية، وكان كل هذا يتم بعد أن تستدعي عزيزة سونيا من مهجرها الجديد في فرنسا الذي استقرت فيه بعد أن لحقت بأبنائها الذين كانوا قد افتتحوا مطعمًا للمأكولات الشرقية فيها، وكانت تستدعي السجينات اللواتي سيلتحقن بالعربة، واحدة تلو أخرى، لتراهن، وتأخذ مقاييسهن، وتختار لكل واحدة منهن ما يناسبها من أثواب،

وخلال ذلك تستشير زينب منصور الجالسة إلى جوارها، وتسترشد بذوقها الأرستقراطي الرفيع، فيما يتعلق بتفاصيل الأثواب التي كانت تريدها مصنوعة من أقمشة فاخرة، جميلة، منتقاة بعناية، وذات ألوان رقيقة بهيجة، تجعلهن يبدين وكأنهن ملائكة، لا تقل جمالاً وبهاء عن ملائكة السماء عندما يقابلنها وهن يرتدين هذه الأثواب الطويلة الواسعة المخصورة، والمصنوعة من الكريب دي شين، والشيفون الرقيق، والحرير الشانتونج، والساتان الدوشيس، والدانتيل المخرم، والتل الموشى بالقصب، وقشر السمك الذي يكتب ألوانًا سماوية بهيجة، كتلك التي تكبها رقاب الحمام البلدي، ثم إنها اختارت لكل واحدة منهن تاجًا ذهبيًا مرصعًا بالجواهر، والأحجار الكريمة التي تسلب بسحرها العقول، وحرصت أن تكون هذه التيجان على غرار التاج الذي كانت تضعه الملكة فريدة على رأسها، ليلة زفافها إلى الملك فاروق الذي كرهته عزيزة كثيرًا، لأنه طلق فريدة، وتزوج ناريمان، لكن الله الذي يمهل ولا يهمل، قلعه من عشه، بعد ذلك بقليل، إذ قامت الثورة، فترك الجمل بما حمل، وخرج من البلاد غير معزز ولا مكرم، بينما ظلت صورة الملكة فريدة في

ثوب زفافها الطويل الرائع، والتاج على رأسها، معلقة على الحائط إلى جوار سرير عزيزة التي كانت تنظر إليها، وتمتع عينيها بها، بين الحين والحين، حتى أتى يوم شديد من أيام النوة البحرية الصغرى طير الصورة من الشباك المجاور لها، بعد أن فتح الريح مصراعه الذي لم يكن محكم الإغلاق، بشدة فضاعت معالم الصورة من كثرة ما انهمر عليها من مطر في الحديقة.

أما بالنسبة للأحذية فلسوف تكون منسجمة تمامًا مع الأثواب فقد اختارت عزيزة أن تكون من الساتان السادة، أو الجلد الرقيق الذي تتخلله أجزاء من الفلترية، أو القطيفة الشمواه الدافئة، وجميعها بكعوب بسيطة غير مرتفعة كثيرًا عن الأرض، ما عدا كعب حذاء حنة الذي سيكون ارتفاعه سبعة سنتيمترات، أما عظيمة الندابة، فإنها ستخصص لها حذاء دون كعب على الإطلاق، لكنه سيكون موشى بخيوط فضية جميلة، ثم إنها ستجعلها تجلس في آخر العربة، حتى لا تحجب الرؤية عن الجالسات أمامها، وستفعل ذلك، دون أن تشعرها بشيء، أو تؤذي مشاعرها، مثلما كان الناس يفعلون معها في السابق، فقد حكت لها عظيمة يومًا بأسى أنهم كانوا

يجعلونها تقوم بتنظيف السقوف في بيت أبيها لأنها طويلة، مستغنين بذلك عن شراء رأس العبد المصنوع من الغاب، والذي يستخدم في ذلك، بل وصل الأمر إلى حد جعل جارة لهم، ترسل ابنتها الصغيرة لاستدعائها بين الحين والحين، لتجلب لها شيئًا من الأشياء، موضوعًا فوق الدولاب العالي القديم، لأنها لا تستطيع الوصول إليه، لإنزاله، وأن عظيمة كانت تتضايق جدًا، لأنها تكره أي شيء يذكرها بطولها غير العادي.

بخصوص الشعور، قررت عزيزة أن يتولى أمرها عدلي حلاق النساء الفنان الذي لم يخلق لشيء إلا لرءوس النساء، فهو يستطيع بفضل أصابعه الماهرة الذهبية، أن يحولها إلى رءوس شبيهة برءوس حوريات البحر الساحرات، وهو حلاق مدينتها الذي طالما تفنن في تصفيف شعرها، بطرق حازت دائمًا على إعجاب حبيبها، وبهرته، إذ كانت تزيد سحنتها فتنة وجمالاً. وقد قررت عزيزة، بعد تفكير عميق جدًا، ضم قطة السجن المعذبة إلى ركاب العربة، إضافة إلى قطة أخرى، ذات لون أسود غطيس، لاحظت أنها باتت تتردد على السجن كثيرًا، وكانت تجلس

أحياناً إلى جوار قطة السجن في الممشى الذي ترى عزيزة جانبًا منه من شباك غرفتها الآخر، فتهران سويًا بمنتهى الارتياح، ودون نشوب أية معارك بينهما، وقد لاحظت أنهما لا تتصارعان أبدًا على الطعام الذي تلقي لهما به، أحيانًا، أثناء الليل.

رغم كل هذه الاستعدادات التي أعدتها عزيزة لتكون الحال عند الصعود على أفضل ما يرام، ظلت هناك بضعة عقبات صغيرة، حاولت عزيزة تذليلها، فعلى سبيل المثال، كانت محروسة السجانة تكره أم رجب كثيرًا، لأنها تلعب دور الجاسوسة على السجينات لصالح إدارة السجن، مما يسبب لمحروسة كثيرًا من الحرج إذ تتهم بالتواطؤ مع بعض السجينات الأمر الذي لا ترى محروسة أنه يتم من قبلها إلا لأسباب إنسانية بحتة، فأم الخير صنعت عروسًا قماشية بحجم طفل لعايدة الصعيدية، لتضعها إلى جنبها وهي نائمة، كما لو كانت ابنا لها، لكن أم رجب سرقتها، ولما واجهتها محروسة بهذه السرقة، وأحرجتها، انتقمت منها فأبلغت إدارة السجن، أن محروسة سمحت لجمالات، ذات ليلة، بالمبيت مع هدى في عنبر الجرب، وهو ليس عنبرها، لأن هدى كانت قد

أغرتها بدعوتها إلى حفل ساهر في العنبر، سيجري فيه الرقص والغناء، بمناسبة خروج إحدى السجينات في اليوم التالي بعد أن صدر قرار بالإفراج عنها لعدم ثبوت تهمة الجمع بين زوجين عليها، إذ اكتشفت المحكمة وفاة زوجها الأول الذي لم تكن قد رأته منذ غادر البلاد قبل سبع سنوات، ولم تسمع أي خبر عنه أثناءها، فغيرت مكان سكنها، وسافرت إلى بلد في الصعيد، وتزوجت بائع عسل أسود جوال، أنجبت منه ثلاثة أطفال، لكن أم زوجها الأول قاضتها لتدخلها السجن .

المشكلة الأخرى التي واجهت عزيزة، هي شفيقة المتوولة التي كانت معظم السجينات لا يحببن وجودها بينهن كثيرًا، رغم إشفاقهن عليها، بسبب قذارتها، وإصرارها على البقاء بأقل ثياب ممكنة على جسدها، حتى في عز الشتاء، ورغم كل المحاولات المبذولة من بعضهن لإعطائها شيئًا تستر به جسدها لكن عزيزة، كانت تراهن على أنهن سوف يقبلن عليها، ويحتفين بها، كثيرًا، بعد أن تحمم، ويليف جسدها جيدًا بالليف الخشن، ويفرك كعبها بالحجر البحري الخفاف، حتى يصيرا ناعمين، نعومة حرير ثوبها الوردي

الساتان، مكشوف الصدر قليلاً، والذي سوف تجعله سونيا، بمهارتها، محبوكًا عند الخصر، واسعًا عند الأطراف والذيل، ثم إن عدلي الحلاق، سوف يسرح لها شعرها الناعم الجميل، ويعقصه من الخلف عقصة بديعة، يمسكها دبوس كبير من العاج الأبيض المرصع بفصوص الماس، وعندئذ، فلسوف تبدو وكأنها امرأة أخرى تمامًا، لا علاقة لها أبدًا بتلك الفتاة الكئيبة الوسخة التي كانتها، بل ربما بدت شبيهة بالممثلة الجميلة شادية في ذلك الفيلم الذي غنت فيه أغنية "دور عليه تلقاه"، والذي شاهدته عزيزة، ذات يوم في سينما مترو بالإسكندرية، عندما ذهبت إليها بصحبة حبيبها الذي ظل ممسكًا براحتها، وأخذ يطبع على خدها قبلة بين الحين والحين في الظلام، بعد أن ألحت عليه أمها ليخرجها، ويرفه عنها قليلاً، بعد أن ظلت راقدة في السرير عشرة أيام إثر إصابتها بالتهاب حاد في القولون، رفع درجة حرارتها، فظن الأطباء في البداية أنه حمى التيفوئيد.

أما ما كان يؤرق عزيزة أرقًا شديدًا، ويجعلها تنتفض رعبًا أحيانًا، فهو تصورها وخوفها، أن يأتي مأمور السجن، ويحاول فرض نفسه على العربة، بعد أن يبهره منظرها،

ويعرف أنها صاعدة إلى ذلك المكان الجميل في السماء، حيث النعيم المقيم، والسعادة الأبدية الخالصة، والحب الصافي العميق بين البشر الذين لا تؤرقهم مشاحنات أو صراعات دنيوية دنيئة، وقد ظلت عزيزة تحسب حساب هذه المشكلة، والطريقة التي سوف تواجهها بها إذا ما حدثت فعلاً، لذلك قررت أن يكون الإقلاع ليلاً، بينما يكون المأمور غير موجود في السجن، على أن تتم العملية بسرية، وهدوء وسرعة، ولهذا فإنها سترجو الأفراس، ألا تصهل صهيلها الجميل، وألا ترفرف بأجنحتها الذهبية القوية، ذات الرنين الموسيقى السحري قبل لحظة الصفر لئلا تلفت الأنظار إلى العربة، وتجعل النائمات يفقن، ويحاولن الركوب بها، وستأمر كل من اختارتهن للصعود معها أن يتحركن بحذر وهدوء، وسرعة، لكي تتم العملية بنجاح، قبل وصول المأمور كي لا يكتشف أمر العربة ويحاول الصعود إليها مما يعقد المشكلة.

كان ذلك الهاجس، هو الذي يؤرقها، كل ليلة، عندما تنتهي من التفكير في حبيبها، وأمها، وراكبات العربة الصاعدة إلى السماء، ذلك الأرق الذي يطرد محاولات النعاس للاستقرار في عينيها، ويجعلها تسمع صياح الديكة

وأذان الفجر، حتى آخر ليلة، عاشتها في هذه الحيـــاة، تلــك الليلة التي استعادت فيها، كل ما يمكن أن تستعيده ذاكراتهـــا التي ظلت أنيسة لياليها الطويلة الموحشة في السجن، ورتبت كل ما أرادت ترتيبه وتدبيره، لتصعد عربتها الذهبيـــة إلـــى سمائها المنشودة، بعد أن نادت على راكباتهـــا المختـــارات واحدة واحدة، نداءً سريًا لا يسمعه سواها، وألبست كلاً منهن ثوبها الرائع المعد خصيصًا لها، وجعلـــت عـــدلي الحـــلاق يصفف لكل واحدة شعرها ويزين رأسها بما يجعله في أجمل صورة، وعلى خير وجه، ثم إنها تأهبـــت بعـــد كـــل ذلـــك للصعود، كما تصورته، ورسمته في مخيلتهـــا، بكـــل دقـــة، فارتدت ثوبها الأسود المخملي الطويل، ذا الأكمام الطويلـــة، والصدر المصنوع من الدانتيل الذي نثـــرت عليـــه ماســـات صغيرة، تتلألأ بالألوان الطيف، على شكل زهـــور بديعـــة التكوين والصنع ثم إنها صففت شعرها بطريقتهـــا المفضـــلة التي طالما أتقنها عدلي الذي تفنن في إتقانها هذه المرة، أكثر من أية مرة أخرى، فجمعه ولمه في نهايـــة رأســـها، عنـــد اتصاله بالرقبة، وأمسكه بشريط من الساتان الأســـود، علـــى هيئة فراشة جميلة، ثبتت فيها لؤلؤة صغيرة، ثم إنها بعـــد أن

استعرضت نساء العربة واحدة، واحدة، وتأكدت أن زينتهن على ما يرام، بل إنهن في تمام الجمال وغاية الفتنة، سمحت لهن بالركوب، وحملت قطة السجن المشمشية في يدها، وكانت قد وضعت لها، حول رقبتها، شريطًا من القطيفة البنية الداكنة، يتدلى منه جرس فضي صغير، أما رفيقتها السوداء، فقد حملتها للفلاحة أم الخير التي شعرت بسعادة غامرة، كما لو كانت قد عثرت على لقية من اللقى، بعد أن أحاطت عزيزة رقبتها بشريط من الحرير الأحمر الوردي، فبدت جميلة متألقة بسوادها اللامع، ولم تنس تعليق جرس صغير بالشريط أيضًا، وبعد أن صعد الجميع إلى العربة، واتخذن مواقعهن فيها، أشارت عزيزة بيدها إلى فرقة الموسيقى السماوية التي جلبتها لتعزف لحن الصعود السماوي وهو اللحن ذاته الذي انطبع في ذاكرتها بعد أن سمعته يومًا في زمنها الماضي، تعزفه فرقة من فرق الجيش الموسيقية، يوم عيد الجلاء في كشك الموسيقى بحدائق أنطونيادس الجميلة التي ما عاد أحد يعزف فيها أو في غيرها شيئًا ربما لأن الزمان الذي كان الناس فيه يتذكرون عيد

الجلاء، مضى، وقد عزفت الفرقة السماوية عزفًا جميلاً، رائعًا، اهتزت له مشاعر عزيزة.

وبعد أن انتهت من مراسم الصعود السماوي المهيبة التي كانت مسبوقة بعشاء فاخر أكثر من كل عشاءات الفنادق ذات النجوم الخمسة فما فوق وحفل راقص، تخلله رقص رائع، طالما رقصته عزيزة مع الحبيب الأزلي في قاعات الأندية الليلية الفاخرة بالمدينة، أيام أعياد الميلاد، وليالي رأس السنة، وبعد أن انتهت من إلقاء نظرة مودعة عميقة، لم تخل من احتقار لكل عالم السجن الرهيب، بمبناه، وإدارته، وسجاناته وطعامه، ونومه، وملبسه، وعالمه اللاإنساني، أعطت شارة البدء في الانطلاق، بعد أن أحكمت قفل الأبواب، فبدأت الأفراس البيضاء الجميلة القوية تفرد أجنحتها الذهبية الرائعة، وكأنها أشرعة لسفن أسطورية سوف تمخر عباب البحر.

لكنها، وبدون أن تعرف كيف جرى ذلك على وجه التحديد، فوجئت بمأمور السجن، والسجانات اللواتي طالما كرهتهن، يظهرون أمام العربة، فيعترضونها، ويوقفونها، محاولين الركوب فيها.

عندئذ، ارتفع ضغط دم عزيزة، وكانت وحيدة في زنزانتها، ارتفاعًا كبيرًا حتى تجلط الدم جلطات متتالية: مرة، ومرتين، وثلاثة في مخها الذي ما كف لحظة قبل توقفه الأخير، عن التفكير في العمر الذي مضى، والحياة التي تسربت في دروب الأقدار وما عاشته من سنوات فرح وسنوات حزن.

فلما دخلت في غيبوبتها الأخيرة، وبدأت تنازع نزع الموت الذي ما شهدته نجمة سماوية واحدة، رأت مختاراتها من نساء السجن، يهبطن بسرعة من العربة الذهبية مرة أخرى، ويشتبكن مع هؤلاء الذين يودون اقتحامها، والصعود فيها، حتى نجحن في ردهم خائبين، بعد أن أسقطنهم تحت أرجل الأفراس البيضاء، ذات الأجنحة الذهبية التي أخذت ترفرف بأجنحتها لتنطلق إلى السماء بعد أن رفعت عزيزة يدها بصعوبة، مكررة شارة الصعود، ولم تتوقف دقات قلبها التي كانت قد أخذت تخبو شيئًا فشيئًا، لينتهي دبيب الحياة فيها، إلا بعد أن تيقنت من إحكام إغلاق نوافذها وأبوابها على كل اللواتي كن قد عدن إليها من صفوة نساء السجن، وأن

الأفراس البيضاء رفعت أقـــدامها عـــن الأرض، وطـــارت بأجنحتها الذهبية إلى السماء.

صدر للكاتبة

- زينات في جنازة الرئيس (قصص قصيرة) – القاهرة ١٩٨٦.
- مقام عطية (رواية قصيرة وقصص) – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٨٦.
- عن الروح التي سرقت تدريجيًا (قصص قصيرة) – مصرية للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٨٩.